حلمي النمنم

يوم حُنين

قراءة تاريخية

حلمي النمنم

يوم حُنين

قراءة تاريخية

الكرمة

أعمال حلمي النمنم

الصادرة عن دار الكرمة

سيد قطب: سيرة التحولات
أيام سليم الأول في مصر: جذور الإرهاب
يوم حنين: قراءة تاريخية

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٣
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٣
© حلمي النمنم ٢٠٢٣
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.
نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

يوم حنين / حلمي نمنم - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٣.

تدمك: 9789778625585
١- التاريخ الإسلامي.
أ- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٣١٨٧ / ٢٠٢٢

تصميم الغلاف: أحمد فرج

المحتويات

مقدمة
النبي والكافر
عاريَّة ومضمونة
كان يبغض قريشًا
عافية الله أوسع
لا تستباح الحرمة
الثأر
اقطعوا عني لسانه
الكل يترقب
شاعر النبي عاتبًا
مخاوف الأنصار أكبر
وللمهاجرين عتاب
الناقمون
يمرقون من الدين
ليست حربًا دينية
التمرد
المتشددون والكذابون
مسيلمة والمخابرات الرومانية
عدو الداخل
وأسأل لكم الناس
يا رسول الله رضينا وسلمنا
الأحمق والسيدة العجوز
الحرب أبغض الخيارات
إن جاءني مسلمًا
الاستشهاد
ألفة القلوب
ألفة لا استعلاء
أكذوبة الحزب الهاشمي

أقارب خصوم
أبو طالب وسادة قريش
أبو سفيان: العدو العاقل
كلمة أخيرة
المصادر والمراجع

مقدمة

تهتم هذه الدراسة بقراءة وقائع وأحداث غزوة حنين قراءة تاريخية، وربما حربية وسياسية. وقعت غزوة حنين بعد فتح مكة مباشرة، وفي الدراسات التاريخية لغزوات النبي محمد صلى الله عليه وسلم لا تجد هذه الغزوة نفس الاهتمام والاحتفاء اللذين تجدهما غزوتا بدر وأُحد مثلًا، على الرغم من أن لها ظروفًا خاصة وتختلف في طبيعتها وأهدافها عن كل ما سبقها من غزوات في صدر الإسلام. كانت «حنين» غزوة استباقية، إن صح التعبير، فقد أراد النبي أن يستبق الخصوم، من قبيلة هوازن تحديدًا، الذين قرروا مساعدة ثقيف في الهجوم على مكة لضرب القوة الوليدة بها. كان فتح مكة يعني الالتحام بين يثرب ومكة تحت قيادة النبي، بما يهدد مكانة ونفوذ المناطق والقبائل الأخرى القريبة في جزيرة العرب، وكان هناك تنافس تاريخي بين مكة والطائف، وكانت الطائف مدينة زراعية متميزة، وكانت تجارية كذلك، يضاف إلى ذلك أن الطائف كان بها بيت للعبادة ينافس الكعبة، ويتردد عليه عرب الجزيرة، وكانت تمتلك علاقات تجارية ودينية مع اليمن القريبة منها، بما ضمن لها مكانة متميزة. والآن بعد فتح مكة، ونجاح النبي في توحيد مكة ويثرب معًا، وارتفاع صوت المسلمين، فإن المستقبل للكعبة وزوارها، والوضع الاقتصادي والتجاري سوف يسير لصالح مكة والدين الجديد. وهكذا قرر أهل الطائف الاستعداد لغزو مكة، لضرب ذلك النموذج الجديد وتحطيم القوة الصاعدة.

أما جيش النبي، فقد اختلف تكوينه هذه المرَّة، ففي الغزوات السابقة كان الجيش يتكون من المهاجرين وعدد محدود من الأنصار، كما كانت الحال في غزوة بدر الكبرى، أو من المهاجرين والأنصار معًا، كما في سائر الغزوات، لكن بفتح مكة اختلف الأمر، لقد انضمت مكة وأهلها من المقاتلين والفرسان إلى الجيش، وهؤلاء ليسوا من المهاجرين ولا من الأنصار، وفيهم المسلم وفيهم الكافر الذي لم يعتنق الإسلام بعدُ، ذلك أن الرسول لم يفرض عليهم الإسلام يوم الفتح ولا ألزمهم به، وإنما منحهم أمانًا مطلقًا غير مشروط: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». أما وإن المعركة للدفاع عن مكة فقد تقدم أبناؤها للدفاع عنها، وفيهم من لم يمر على إسلامه سوى أيام، وفيهم الكافر الذي ما زال على موقفه القديم، وقد قبلهم النبي جميعًا في الجيش، وقاتلوا ببسالة.

هذه التفاصيل وغيرها، ثم ما وقع بعد انتهاء الحرب، هي ما يهتم به هذا الكتاب، فهو محاولة لتقديم قراءة تاريخية وتحليلية لها، وبالتأكيد سنجد فيه الكثير والكثير مما يفيدنا اليوم ثقافيًّا وحضاريًّا وسياسيًّا.

التاريخ ماضٍ، لكن الماضي لا يموت ولا ينقطع، فيه ما يستحق أن نتأمله ونتعلم منه، ودائمًا يستحق التاريخ أن نعيد قراءته.

حلمي النمنم

كانت «حنين» أول غزوة يخرج إليها رسول الله بعد فتح مكة، وكان خروجًا اضطراريًّا أو دفاعيًّا، ذلك أن فتح مكة أعلن عن وجود قوة بازغة. صارت مكة ويثرب وما بينهما تحت إمرة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد شعرت القبائل الكبرى في المناطق القريبة من مكة والمنافسة لها تقليديًّا بالقلق والانزعاج من تلك القوة البازغة، ومن شخصية النبي الذي نجح في تكوين هذه القوة.

من قبل، كان الصراع بين النبي وأصحابه مع زعماء مكة أقرب إلى نزاع داخلي، أو مكي-مكي، وغالبًا لا شأن للآخرين به، وإن كانوا يراقبون الموقف من بعيد. وبعد الفتح اختلف الأمر، فكانت هوازن وثقيف الأكثر قلقًا، وحدث جدل داخل كلٍّ منهما، ثم لقاء بينهما، وجرى التباحث في أمر النبي وقوته، وقالوا كما يذكر الواقدي في كتابه «المغازي»: «والله ما لاقى محمد قومًا يحسنون القتال». وانتهى أمرهم إلى القرار التالي: «أجمعوا أمركم فسيروا إليه قبل أن يسير إليكم». وزاد أشراف ثقيف بالقول: «كنا نَهُم بالسير إليه قبل أن يسير إلينا». وهكذا بدأوا يحشدون كي يتقدموا نحو مكة ويفاجئوا الجميع، وحصل النبي على تلك المعلومة، لم ينبئه بها الوحي، والواضح أن النبي كانت لديه مصادر معلومات موثوقة داخلهم.

وكان النبي في كل المعارك يتجنب أن تكون في المدن أو المناطق السكنية، هكذا كان في «بدر» وفي «أحد». ولما حاول الأحزاب مهاجمة يثرب، سارع إلى حفر الخندق حولها ليمنعهم من اقتحامها، وحين تهيأ لدخول مكة بذل جهدًا حثيثًا كي يكون دخولًا سلميًّا من دون إراقة دماء، ولمَّا بلغه أن سعد بن عبادة، وكان على رأس كتيبة قتالية، يتوعد قريشًا وأهل مكة، سارع إلى عزله، وكان أمره صارمًا إلى القادة بألَّا يبادروا إلى القتال، ثم إنه التقى أبا سفيان بسعي العباس بن عبد المطلب عمه، الذي كان صديقًا لأبي سفيان، واتفق معه على ما يمكن أن نعتبره تسليم مكة مع ضمان أمن وسلامة كل من دخل داره وأغلق بابه، ومن دخل الكعبة، وكذلك من دخل دار أبي سفيان، وهكذا فُتحت مكة بسلام.

المهم، كان على النبي أن يجهز الجيش ويخرج لمواجهة هوازن وثقيف ومن معهما، وألَّا ينتظر حتى يقتربوا من مكة، ولكن هذه المرَّة تتغير بِنْية جيش النبي، وتتغير كذلك طبيعة المعركة أو الموقعة التي يقدِمون عليها. في كل ما سبق من وقائع كان جيش النبي كله من المسلمين الذين خرجوا يقاتلون دفاعًا عن اختيارهم دينًا يغاير دين الأسلاف وحماية لأنفسهم من الاضطهاد، كان الجيش عادة يتكون من المهاجرين والأنصار، وكانت كفة الأنصار الأرجح عددًا، الآن يدخل عنصر جديد، أبناء مكة، أو الطلقاء، الذين قال لهم النبي يوم الفتح: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، ولم يكن أطلقهم بشروط، ولا دخل معهم في مقايضة ولا مساومة، فالأنبياء لا يقايضون. باختصار، لم يَفرض عليهم ولم يلزمهم بأن يعتنقوا الدين الجديد، صحيح أن وجوه المدينة ذهبوا إليه طواعية،

مبايعين ويفتحون صفحة جديدة، لكن بقي بعضهم على حاله القديمة، لم يعترفوا بنبوة النبي ولا تركوا معتقدهم القديم، أي أنهم يصنَّفون في خانة الشرك أو الكفر، وكانت الكلمتان تستعملان بمعنى واحد.

ويجب ألَّا نندهش لذلك وألَّا نفاجأ به، فالنص القرآني يؤكد ذلك، لنقرأ في القرآن الكريم سورة «النصر»: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2)»، فالتعبير القرآني جد دقيق، إذ يتحدث عن الدخول في دين الله أفواجًا، ولم يقل «جميعًا»، ولم يقل «كل الناس»، نزلت هذه الآيات ـ وفق معظم المفسرين ـ في فتح مكة، ومن ثَمَّ فهي تتحدث في المقام الأول عن المكِّيين الذين جاءوا «أفواجًا»، أي مجموعات، ولم يأتوا جميعًا ولا عن بكرة أبيهم، والحق أن ذلك يتسق مع جوهر الموقف القرآني في حرية الإيمان وديمقراطية المعتقد الديني، كما ورد في الآية ١١٨ من سورة «هود»: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً»، وفي الآية ٢٩ من سورة «الكهف»: «فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ».

والآن، بدأ تجهيز الجيش، وانضم إليه ألفان من المكِّيين. وتشير المصادر العربية إلى أن اثنين من الكفار انضما إلى الجيش وكان كلٌّ منهما من الأعيان وسادة مكة، الأول هو صفوان بن أمية، والثاني سهيل بن عمرو بن عبد شمس. وشارك غيرهما من غير الأعيان أو الوجهاء، وعشرات من شباب مكة، في جيش «حنين»، من دون أن يعتنقوا الإسلام.

صفوان كان متزوجًا من ابنة الوليد بن المغيرة، وأسلمت يوم الفتح، ورفض هو أن يترك دين الآباء، ثم خرج من مكة ليضمن حياته بعد العداء الذي واجه به النبي من قبل، وبعد تفاصيل كثيرة من مساعي وجهود زوجته لتؤمنه أرسل إليه النبي الأمان، وعاد إلى مكة، واستقبله النبي فرحًا به وهاشًّا له، ثم بدأ النبي يجمع السلاح تأهبًا للخروج. يذكر ابن هشام في «السيرة النبوية» أن النبي أُبلغ بأن صفوان لديه سلاح وأدرع، فأرسل إليه وهو مشرك: «يا أبا أمية، أعِرْنا سلاحك هذا نلقَ فيه عدونا غدًا»، فرد عليه: «أغصبًا يا محمد؟»، قال: «بل عاريَّة ومضمونة حتى نؤديها إليك» («عاريَّة» أي: استعارة)، قال صفوان: «ليس بهذا بأس»، فأعطى النبي مائة درعٍ بما يكفيها من السلاح، وزعموا أن رسول الله سأله أن يكفيهم حملها، ففعل. إلى هنا تنتهي رواية ابن هشام. خرج صفوان إلى الحرب ولم يُسلم، كما يقول الواقدي، ويعطينا ابن سعد في «طبقاته» تفصيلات أكثر، فيقول: «خرج صفوان مع رسول الله وهو كافر، فشهد حنينًا والطائف وهو كافر وامرأته مسلمة، فلم يفرق رسول الله بينه وبين امرأته، حتى أسلم صفوان واستقرت امرأته عنده بذلك النكاح».

في غزوة حنين، اهتز موقف المسلمين في بداية المعركة على النحو المعروف تاريخيًّا، وبدا أن نتيجة المعركة لن تكون في صالحهم، فجاء أحدهم فرحًا وقال لصفوان بن أمية: «أبشر أبا وهب، هُزم محمد وأصحابه». فرد عليه صفوان: «فُض فوك، إن ربًّا من قريش أحب إليَّ من رب من هوازن إن كنت مربوبًا». هنا الانحياز بالمطلق إلى القبيلة، واختيار الرب يرتبط كذلك بالقبيلة.

ولمَّا انتهت المعركة بانتصار النبي أعطاه النبي عن سعة من فيء المؤلفة قلوبهم، وأعطاه كذلك عطاءً خاصًّا به، ثم اعتنق الإسلام وظل في مكة إلى أن مات أوائل عهد معاوية بن أبي سفيان.

أما سهيل بن عمرو فقد شارك في كل حروب قريش ضد النبي، وكان أحد الذين أُسروا في «بدر»، وهو الذي تولى التفاوض وكتابة صلح الحديبية مع النبي وكان ممثلًا لقريش، ولما دخل النبي مكة سارع إلى داره وأغلق بابه خشية أن يُقتل، وأرسل ابنه عبد الله ـ وكان مسلمًا ـ إلى النبي يطلب لأبيه الأمان، فاستجاب النبي وقال: «هو آمن بأمان الله، فليظهر»، ثم قال لمن حوله من الصحابة: «من لَقِي سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه، فلعمري إن سهيلًا له عقل وشرف، وما مثل سهيل جهل الإسلام». وهكذا خرج سهيل وتحرك آمنًا من دون أن يعترضه أحد، ودون أن يعتنق الإسلام، ولما بدأ تجهيز جيش حنين انضم إليه.

يقول ابن سعد: «خرج مع رسول الله وهو على شركه، وأعطاه الرسول مائة من الإبل من غنائم حنين، ثم اعتنق بعد ذلك الإسلام». وسوف يكون له موقف حاسم يوم وفاة النبي، فقد أرتج الأمر على البعض، ولم يستوعبوا الحدث، وقام خطيبًا فيهم وذكرهم بقول الله تعالى: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ»، وقوله تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ». وتحدث فيهم بما يشبه حديث أبي بكر إلى عمر في ذلك اليوم.

ماذا يعني هذا كله؟ قبول النبي أن يخرج ويحارب معه كافر، وقبل ذلك قبوله في المجتمع بلا حساسية ولا تمييز، وحرص رسول الله على ألَّا يرميه مسلم بكلمة جارحة، ولا حتى أن ينظَر إليه نظرة غير مريحة، إنه رسول الله وكفى.

بين أهم ما يكشفه موقف النبي مع صفوان بن أمية في غزوة حنين سقوط نظرية أو مقولة استحلال أموال الكافرين، تلك التي نادى بها دعاة التطرف والتكفير وأمراء الإرهاب، وقد جعلوا منها موردًا أساسيًّا ومصدرًا ماليًّا لتمويل عملياتهم الإجرامية، خاصة حين تجف منابع التمويل الأجنبي أو الدولي، ونحن نعرف أنهم توسعوا في التكفير، حتى شمل غير المسلمين جميعًا، وشمل أيضًا المسلمين الذين رفضوا أفكارهم. وانطلاقًا من التكفير واستحلال أموال الآخرين، قاموا منذ سنوات السبعينيات بالسطو على عدد من محال الذهب المملوكة لمواطنين مصريين أقباط، ولما انكشف أمرهم أمام المجتمع، وتبين أنهم في النهاية «حرامية الصاغة»، فضلًا عن انتباه أجهزة الأمن، استحلوا أموال المسلمين عبر شركات توظيف الأموال، وكُشِف هذا الملعوب أيضًا، فكان أسلوب الاستحلال، حيث اتجهوا إلى جمع التبرعات بزعم أنها من أجل الخير والإحسان، الأمر بسيط، جمعية خيرية يتم إشهارها ومن خلالها تُجمع التبرعات لبناء مشروع ما، يُقام المشروع على مهل، ويذهب فتات التبرعات إلى المشروع، أما جُلها فتتجه إلى مساربهم، لشراء الأعوان ودفع النفقات لهم، واختراق الجهات التي يريدونها، فضلًا عن شراء الأسلحة وتفخيخ السيارات؛ أي تمويل الإرهاب وتجنيد الإرهابيين بالمال والسلاح.

عرَّف بعض الفقهاء الاستحلال بأنه استباحة أموال الآخرين وأعراضهم المحرمة واعتبارها حلالًا، وبدأ ذلك مع الخوارج باستحلال أرواح المسلمين وقتلهم، وفي زماننا وجدنا جماعة شكري مصطفى في السبعينيات تستحل ممتلكات خصومهم وأرواحهم، كما فعلوا مع الشيخ محمد حسين الذهبي أستاذ التفسير بجامعة الأزهر، حيث قاموا بخطفه من بيته بعد أن تنكروا في زي رجال الشرطة، ثم قتلوه. وبعدهم جاءت تنظيمات وجماعات استحلت أموال وممتلكات الأقباط المصريين، خاصة محال الذهب، لتمويل عملياتهم، وزادت وتيرة تلك العمليات في سنوات التسعينيات، حيث اقتحموا محال الذهب في مناطق مثل عين شمس والمطرية بالقاهرة، فضلًا عن عدة مدن في الصعيد مثل أسيوط والمنيا وسوهاج، حتى زادت وتيرة تلك العمليات بها، وفي التحقيقات تبين أنهم قاموا بذلك بناءً على فتاوى من أمرائهم، جعلت ممتلكات «الكفرة» حِلًّا لهم. ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحد، فقد استحلوا الأموال والممتلكات العامة فخربوها ودمروها، كما حدث في أبراج الكهرباء وخطوط الضغط العالي في صيف ٢٠١٣، وغيرها من مؤسسات الدولة التي سعوا إلى نهبها ثم إحراقها، كما جرى في مقر شركة «المقاولون العرب» برمسيس.

والحق أن أول نموذج للاستحلال عرفناه في العصر الحديث بمصرنا كان مع حسن البنا، الذي جمع تبرعات لإرسالها إلى أهل فلسطين مساعدة لهم بعد ثورتهم الكبرى سنة ١٩٣٦، وأرسل جزءًا صغيرًا مما جمعه من مال، أما باقي الأموال فقد وجهها لحسابه، وذكر لأتباعه أنه أنفقها

على الجماعة. كانت تلك الواقعة سبب انشقاق جماعة «شباب محمد» عن الإخوان سنة ١٩٣٨. قبل ذلك، كان قد تسلم دعمًا من شركة قناة السويس «الإنجليزية الفرنسية» وشرع في بناء مسجد بالإسماعيلية من ذلك الدعم. وكما ذكر في مذكراته، سُئل من بعض المحيطين به: «كيف تبني بيتًا لله من شركة استعمارية؟»، كان رده: «إنها أموالنا رُدت إلينا». بعدها جاء تلاميذه وطوروا تلك الحالة لتصبح نظرية يعملون بها، وقاموا بتطبيقها.

ويجب القول إن الأزهر الشريف قد رفض وأدان نظرية الاستحلال تلك، على لسان عدد من شيوخه وعلمائه، أكثر من مرَّة.

موقف النبي مع صفوان كان واضحًا، وهو استبعاد استحلال ممتلكاته، وأكرر كان صفوان كافرًا، لم يكن مسيحيًّا ولا يهوديًّا، ولم يكن أسلم بعد، ومع ذلك احتاج النبي إلى ما لديه من أسلحة لاستكمال تجهيز الجيش، هنا لم يستحل ولم يستولِ على السلاح، بل طلبه منه، وأهل مكة عُرفوا بالكرم، والعرب عمومًا، لكن أهل مكة تجار أيضًا، أي يجيدون تحديد قواعد التعامل المالي بأدق التفاصيل، النبي نفسه كان تاجرًا قبل البعثة، منذ أن خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام للتجارة، ثم خرج في تجارة خديجة، السيدة العظيمة، وبادر الرسول إلى تحديد القواعد مع صفوان بأن قال له صلى الله عليه وسلم: «أعرنا سلاحك هذا»، المطلب واضح، إعارة، لا بيع، ولا شراء، ولا استحلال، ليس هذا فقط، بل حدد الغرض الذي سوف يستعمل فيه السلاح ليكون المعير على بيّنة، أي شفافية تامة، «نلقَ فيه عدونا غدًا»، الضمير «نا» هنا قد ينصرف إلى عدو النبي وأصحابه، وقد ينصرف إلى أهل مكة جميعًا، المسلمين وغيرهم، أي من هم مثل صفوان، باعتبار أن أهل الطائف قرروا اقتحام مكة على من فيها، ومن ثَمَّ يصير العدو مشتركًا، وهذا هو الأقرب إلى الفهم باعتبار أنه يتحدث إلى صفوان. ولم نجد الأخير يناقش في هذه المسألة وبدا مقتنعًا، والدليل أنه قاتل مع النبي وكان ضمن جيشه. ما كان يشغل صفوان هو أسلوب الإعارة، وسأل: «أغصبًا يا محمد؟»، أي يُعير السلاح قهرًا أو غصبًا بلا موافقته، وبمعنى آخر: هل ما يُطرح عليه من النبي هو أمر ملزم واجب النفاذ، بحكم أن أمر مكة صار إليه، بعد أن انتصر عليهم، وأن صفوان في الموقف الأضعف، أو بحكم أنه نبي الله لا تُرَد كلمته ولا يُرفض له أمر، أم له فيه الاختيار والقرار؟ ويطمئنه النبي: «بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك»، أي أنها إعارة، وليست مستأجرة ولا مغتصبة، ومضمونة، باختصار «إعارة مؤقتة»، أي إذا فُقِد أو تلف منها شيء يعوَّض عن قيمة التلف أو ما يفقد منها حتى ترد، أي أن النبي متعهد بردها إليه. هذا حوار النبي مع الكافر، وهذا هو أسلوب التعامل.

باختصار، لم يمنع النبي التعامل مع الكافر، ولا استعلى عليه، لم يزدَرِه ولا أساء إليه، ولا استحل ممتلكاته ولا أهدر حقه، وفي التعامل المالي عامله بالقاعدة التي عامل بها المسلم، بعد المعركة أوفى الرسول بما تعهد به، بأن رد إليه السلاح كاملًا، وكانت المفاجأة أن قدم له هدية

كبرى تفوق قيمة السلاح نفسه، وإلى اليوم لا تزال هذه القاعدة قائمة.

يكتمل هذا المشهد العظيم بتعامل الرسول مع سهيل بن عمرو، حين ذهب ليقابل النبي، وكان كافرًا أيضًا، قال الرسول لأصحابه: «إن سهيلًا له عقل وشرف»، أي أن اغتياله معنويًّا والانتقاص من قدره بسبب الموقف الديني مرفوض، وأن عدم اعتناقه الإسلام وتمسكه بالدين القديم لا يجرده من العقل ولا من الشرف. والحق أن نبي الله كان على يقين تام بأن مسألة العقيدة الدينية أمر يفصل فيه الله تعالى، وأن الله أمره أن يبلغ رسالته للناس، أما القرار والاختيار لهم هم، والحساب متروك لله وحده، العديد من آيات القرآن الكريم تتحدث عن ذلك بوضوح تام.

هكذا فعل النبي مع الكفار، وهكذا كان التوجيه الإلهي، فما بالنا بأولئك الذين يستحلون أموال الآخرين وأعراضهم، حتى لو كانوا مؤمنين وموحدين؟!

لم يكن صفوان بن أمية ومعه سهيل بن عمرو وحدهما في جيش النبي وهما لا يزالان على الشرك بالله أو كفارًا. يذكر الواقدي: «خرج مع رسول الله ناس من المشركين كثير». كان خروج جيش حنين بعد خمسة عشر يومًا فقط من فتح مكة، وقد تقبل المسلمون وجودهم بالجيش، ولم يشعروا بأي غضاضة من جراء ذلك، ولو كان لدى أحدهم أي هاجس قلق أو رفض لوجود هؤلاء بالجيش، ما تردد في أن يصارح النبي به، وقد اعتادوا معه على المكاشفة والمصارحة بلا حرج أو تردد، وكان النبي يستمع إليهم جيدًا ويتقبل ما لديهم بصدر رحب وعقل مفتوح ويشرح لهم موقفه، فضلًا عن ذلك فإن المهاجرين كانوا مكِّيين والذين انضموا إليهم هم أهلهم وجزء منهم يكملهم. أما الأنصار، أهل يثرب، فكانت لديهم ثقة كبيرة في كل ما يتخذه النبي من خطوات وقرارات، وكانوا يحملون للنبي حبًّا صادقًا وعميقًا، ولم يهتز ذلك الحب يومًا، وكانوا يدركون من سنوات شغفَ النبي في أن يجمع شمل أهل مكة جميعًا، لذا كانت تلك الخطوة مقبولة تمامًا منهم.

فيما بعد، زمن الفتنة الكبرى، التي لم نخرج منها إلى اليوم، وفي ذروة الصراع بين علي ومعاوية، انطلق في أجواء الصراع ما نسميه الآن «سلاح الأرشيف»، وراح البعض يتساءل عن أسباب ودوافع مشاركة هؤلاء «الطلقاء أو المؤلفة قلوبهم» في جيش النبي، كانت التساؤلات والشكوك بأثر رجعي تعني ضمنيًّا عدم تقبل تلك المشاركة، بل رفضها، ثم وجدت تلك الشكوك وذلك الرفض طريقهما إلى بعض كتب التاريخ والفرق الإسلامية، حيث ذهب هؤلاء إلى أن النبي اتخذ تلك الخطوة لسببين، الأول: أن النبي تخوف أن يتركهم في مكة، فيقوموا بالتمرد والانفصال عن المدينة (يثرب)، ويعود الأمر بمكة كما كان من قبل. الثاني: تخوف النبي أن يواجه ثقيفًا وهوازن، فينقض المكِّيون على جيشه من الخلف.

هذا كله وجد طريقه إلى بعض المتشددين وجماعات الإرهاب، والحصاد نراه حولنا في إرهاب مقيت وبائس يحاول أن يدمر كل شيء.

تاريخيًّا لم يخرج كل رجال مكة إلى تلك الحرب، هناك من رفضوا أو تكاسلوا، يقول ابن هشام في «السيرة النبوية»: «استعمل رسول الله عتَّاب بن أُسيد بن أمية على مكة أميرًا على من تخلف عنه من الناس»، أي أنه صلى الله عليه وسلم لم يترك مكة فارغة أو بلا أمير يتولى أمرها وأمر أهلها. لو أن هناك مخاوف لأمرهم جميعًا بالخروج، لكنه لم يفعل، بل إن من خرجوا تسابقوا وكانوا يخشون ألا يقبلهم النبي معه، ومن الحوار بين النبي وصفوان نفهم أن النبي دعاه للمشاركة في الجيش.

حين فتح النبي مكة لم يمسَّ ما نسميه اليوم «المراكز القانونية والاجتماعية» لأعيانها ورؤساء القوم. طلب إليه علي بن أبي طالب أن يسلم مفتاح الكعبة إلى الهاشميين وتكون لهم سدانتها بدلًا

من عثمان بن طلحة، فرفض النبي تمامًا ذلك الاقتراح أو الطلب، ونادى عثمان وسلمه المفاتيح قائلًا: «اليوم يوم بر ووفاء».

باختصار، الفتح والانتصار لا يعني الانتقام ولا الثأر، وكذلك لا يعني حصول البعض على مكاسب معينة.

ولما أراد اختيار والٍ على مكة اختاره أمويًّا؛ عتَّاب بن أُسيد بن أمية، باعتبار أن ذلك كان ـ تقليديًّا ـ موقع الأمويين وليس موقع الهاشميين.

والواقع أن مكة لم تكن مدينة حروب، هي أكبر مركز تجاري في الجزيرة العربية، تصل إليها تجارة الشام وتجارة اليمن، هي الملتقى للجميع، ومدينة هكذا دورها لا بد لها من تجنب الحرب والقتال، هي أيضًا تضم الكعبة المقدسة لدى أهل الجزيرة، ويتوافدون عليها للطواف وللحج، أي أنها تستقبل العرب جميعًا، لن يقدم الحجاج نحو البيت العتيق ويسعى الطائفون آمنين مطمئنين إلا بتجنب أن تقوم حروب ومعارك داخل مكة، قريبًا من الكعبة. هذه الاعتبارات كلها جعلت النبي يكثف كل جهوده ليدخلها سلمًا، فاتحًا لا غازيًا، ومن قبل حين جاء للحج وردَّه سادتها عنها رفض خوض الحرب بالرغم من إلحاح كثير من صحابته على ذلك، مرتضيًا صلح الحديبية بشروطه المجحفة له ولأنصاره، السلم مقدم لديه على الحرب، حتى لو كان السلم مصحوبًا بشروط ليست مرضية تمامًا أو لا تتناسب مع قوته.

حين طلب إلى صفوان المشاركة هو وغيره من الكفار، كان يعرف موقفهم الديني ويعرفهم شخصيًّا، وهو صلى الله عليه وسلم كان يضع هنا عدة قواعد، بل مبادئ يجب التوقف عند بعضها:

أولًا: هي ليست حربًا دينية ولا عقائدية، كانت حربًا وطنية للدفاع عن مكة، ضد القبائل الأخرى، تحديدًا ثقيف وهوازن، فقد قصدوا الهجوم على مكة، باختصار الطائف وما حولها يسعون لاحتلال مكة، لو أن هؤلاء يستهدفون النبي والإسلام لهاجموا يثرب من قبل، أو لأعانوا أبا جهل (عمرو بن هشام) وأبا سفيان على النبي في معركة بدر أو ما تلاها من معارك. ولما بلغ النبي في نهاية المعركة مقتل عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث، وكان أحد قادة جيش العدو، قال: «أبعده الله، فإنه كان يبغض قريشًا»، لم يذكر النبي أنه كان رافضًا أو معاديًا للإسلام، ولم يقل إنه عدو الله ورسوله، إنما كان يبغض قريشًا.

ثانيًا: إن الدفاع عن الوطن واجب كل أبنائه القادرين على ذلك، بغض النظر عن الموقف والاعتقاد الديني لكلٍّ منهم، واجب المسلم وغير المسلم، المؤمن والكافر، لا يجوز سحب شرف ومسؤولية المواطنة من إنسان بسبب دينه واعتقاده، هذا ما أرساه النبي. نحن هنا بإزاء نموذج ودولة المواطنة الكاملة لكل الأفراد، بلا تمييز ولا إقصاء أو استبعاد. لم يكن صفوان وغيره يقرون بنبوة النبي، ولكن هذا لم يؤدِ إلى استبعادهم من الدفاع عن مكة ولا المشاركة في الجيش، ليس هذا فقط، لقد استعان النبي بقدرات صفوان العديدة وغيره، مثل المشاركة في تسليح الجيش ونقل المؤن

والسلاح.

ثالثًا: تأسيسًا على ذلك، لا يليق أن ينظر أحدنا باستخفاف أو استهانة إلى النص الدستوري الذي يقول إن «حرية الاعتقاد مطلقة»، دستورنا المصري ينص على ذلك، ولا يجوز لأحد أن يَعدَّ هذا النص ديكورًا أو للوجاهة السياسية، كما لا يجوز لجماعة أن تحاول السير عكس الدستور.

رابعًا: الدفاع عن الوطن دور الرجل والمرأة معًا، في معركة حنين وجدنا مشاركة نسائية تستحق التوقف عندها، لدينا نموذج أم سليم التي شاهدها الرسول في القتال، وكذلك أم الحارث الأنصارية، وكانت من أثبت الناس في أصعب لحظات القتال.

خامسًا: ليس شرطًا لازمًا أن يعتنق أبناء الوطن جميعًا دينًا واحدًا، أو أن يكونوا على المعتقد نفسه، ولا أن يكونوا في موضع مفاضلة دينية، المطلوب منهم جميعًا الدفاع عن الوطن والحفاظ على سلام الدولة وتماسكها، فالتنوع الخلَّاق والتعدد الخصب يزيدان المجتمع ثراءً ويمنحانه حيوية دافقة. لا ينبغي لأحد، فردًا كان أو جماعة أن يدفع بالمجتمع إلى الاحتدام أو الاحتراب الطائفي، ولا الاستقطاب المذهبي.

سادسًا: أن يقدم كل إنسان لوطنه ما يقدر عليه، من لديه المال فليفعل. اقترض النبي المال من صفوان وغيره وهو يجهز الجيش، وقدم صفوان وغيره السلاح.

بدأت معركة حنين بداية سيئة لجيش النبي، حيث فوجئوا بهجوم مباغت من جيش هوازن، وكان يقوده مالك بن عوف. كان مالك في الثلاثين من عمره، شابًّا متحمسًا، يمكننا القول: متهورًا، تولى قيادة قومه حديثًا، ويطمح في انتصار حاسم وسريع.

وضع مالك خطة عسكرية غريبة، حيث فرض على مقاتليه أن يخرج كلٌّ منهم إلى ميدان القتال ومعه أسرته، الزوجات والجواري والأطفال، ومعهم كذلك ما لديهم من ثروات وأموال، وكانت ثرواتهم تتركز في البعير، ويكون كل هذا في المقدمة ومن خلفهم الفرسان. كانت وجهة نظر مالك أن المقاتل في وجود أهله وبحضورهم، وكذلك في وجود ثروته وأمواله كلها، سيجبن عن الفرار ويستبسل في القتال. لكن هذه الخطة وجدت رفضًا من شيخ هوازن دريد بن الصمة، وكان قد جاوز المائة عام من عمره بكثير، قيل بلغ مائة وستين عامًا، وفقد بصره، لكنه في شبابه كان مقاتلًا شرسًا وقائدًا فذًّا، حملوه إلى ساحة القتال فسمع صراخ الأطفال ورغاء البعير وأصوات الماعز فاندهش، ولما سأل عن وجود هؤلاء أجابوه، فذهب إلى مالك وطالبه بتغيير تلك الخطة، قال له: «ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعليا قومهم وعزهم، ثم الْقَ الصُّبَّأ على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك مَن وراءك، وكان أهلك لا خوف عليهم، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك».

شرح مالك وجهة نظره، فرد عليه دريد أن المهزوم لا يعبأ بأحد لحظة هزيمته، لا الأهل ولا الولد ولا المال. رفض مالك النصيحة تمامًا: «والله لا أفعل ولا أغير أمرًا صنعته»، ثم قال: «إنك قد كبرت وكبر علمك وحدث بعدك من هو أبصر منك». كان مالك حريصًا على أن يُنسب كل شيء إليه، وأن يتجاهل علنًا رأي القائد السابق دريد.

قرر دريد إبراء ذمته أمام قومه محذرًا إياهم قائلًا لهم: «هذا فاضحكم في عورتكم، ومُمكن منكم عدوكم، ولاحق بحصن ثقيف وتاركك فانصرفوا واتركوه».

كانت ملاحظات رجل خبِر الحياة والقتال، وتوقُّع أو نبوءة من إنسان عاش مديدًا. سوف نلاحظ أنه استعمل «الصُّبَّأ» لوصف المسلمين، هكذا كان هو، وكانوا يرونهم، أناسًا «صبئوا» عن دين الآباء والأجداد. إلى هذه الدرجة كانوا يرون المسلمين والإسلام.

همَّ القوم بالانصراف عن مالك، فاستل سيفه مهددًا أن يغرسه في صدره إن تركوه، فوجدوا أنه لو فعلها لم يكن أمامهم قائد سوى دريد وهو هَرم ضرير، ما عاد قادرًا على القيادة. كان تهديده الفج لهم بالانتحار يؤكد صدق فهم وتحليل دريد له، وكان خضوعهم للتهديد يؤكد أنهم مقدمون على الهزيمة. لو عقلوا لتركوه وما بادروا بالحرب وسعوا إلى التفاوض.

كان وادي حُنين منحدرًا جدًّا، وما إن وصل جيش النبي، وقبل التهيؤ للقتال، باغتهم مالك

بالهجوم، وفوجئ المسلمون بالمشهد، فلاذوا بالفرار وارتبكوا، خاصة أنه لم يكن لهم دراية ولا معلومات كافية عن طبوغرافية الوادي. وبدا أن الهزيمة تحققت، غير أن النبي كان لديه إصرار على استيعاب وامتصاص الهجمة أو الضربة الأولى وتحمل خسائرها، ثم مواصلة القتال، وهكذا صمد وحوله عدد قليل من الفرسان، وطلب من عمه العباس بن عبد المطلب، وكان جهير الصوت، أن ينادي في المقاتلين: يا للأنصار، يا للخزرج، يا للأوس. وصل النداء، واستعاد المقاتلون زمام المعركة. فيما بعد، واستنادًا إلى هذا النداء، حاول البعض أن ينسب الفرار إلى المكِّيين، ولم يكن ذلك دقيقًا، لكنها الإحن المذهبية والسياسية. كما حاول البعض، لأسباب مذهبية وسياسية، إثبات أن أبا بكر وعمر كانا في مقدمة الفارين، وكان ذلك كذبًا، حيث ـ كما ورد في العديد من المصادر التاريخية ـ كانا إلى جوار النبي.

المفاجأة كانت أن مالك بن عوف بادر إلى الهرب ولحق بحصن ثقيف كما توقع دريد، ومن هناك أرسل إلى النبي يطلب المصالحة.

في لحظة الغضب من المفاجأة الأولى، اندفع المقاتلون من جيش النبي إلى قتال وقتل من لقيهم، المشكلة أنه لم يكن هناك سوى النساء والأطفال والصبيان أو الذراري، حيث لم يتمكنوا من الفرار، بينما الرجال والشبان المقاتلون فروا مع مالك. وبلغ النبي ما يحدث، ولم يقبل به، ونادى: «ما بال أقوام ذهب بهم القتل حتى بلغ الذرية، ألا لا تُقتل الذرية»، وقالها ثلاثًا: «ألا لا تقتل الذرية...». هؤلاء أطفال، أولاد المشركين، وُجدوا في ميدان المعركة وفي لحظة القتال، وقد وُضعوا في المقدمة، أي «دروع بشرية» بمصطلح عصرنا، ولم تكن هناك قوانين حديثة كالتي نعرفها الآن، ومع ذلك استنكر النبي هذا السلوك، وأعطى أمرًا قياديًّا بالامتناع عنه تمامًا، وقد توقف المقاتلون فور أن وصلهم النداء.

الآن نرى أناسًا يزعمون أنهم يجاهدون في سبيل الله، اعتبروا الشوارع ميادين قتال، يقتلون الأبرياء، أطفالًا ونساء، معظمهم أبناء مسلمين، وبقلب وضمير بارد يقولون: «يبعث على نيته»، وقد وجدوا من يفتي لهم بذلك، وذهبوا إلى بعض الكتب الصفراء يستخرجون منها ما يسوّغ لهم عمليات القتل والإرهاب، وعلينا أن نسمي الأفعال بمسمياتها، القاتل يظل قاتلًا ومجرمًا، حتى لو حاول التخفي وراء مصطلحات مثل الجهاد وإقامة الخلافة، هم قتلة فقط.

ويبدو أن أجواء القتال وميادين المعارك وانفعالاتها قد تغري البعض بالقتل، أو لا يجدون فيه غضاضة، ودور القيادة العظيمة أن تحدَّ من ذلك وتتصدى له، بل إن دور القائد تجنب القتال بالمرَّة إلا إذا فُرِض عليه ذلك فرضًا. النبي تجنب القتال عند فتح مكة، لكن مع هوازن كان يدفع عدوانًا. وتصدى للقتل غير المبرر، فحين اختل جيش النبي في البداية وانسحب المقاتلون فرارًا، جاءت أم سُليم، وكانت مقاتلة، تنادي النبي: «أرأيت هؤلاء الذين أسلموك وفروا عنك وخذلوك، لا تعفُ عنهم يا رسول الله، إذا أمكنك الله منهم فاقتلهم»، الدعوة هنا لقتل أناس فيهم من الصحابة ومن

المهاجرين والأنصار، لكنه عليه الصلاة والسلام يرفض ذلك قائلًا لها: «يا أم سُليم، قد كفى الله، عافية الله أوسع».

فتح باب القتل وسفك الدماء لا يجلب سوى مزيد من القتل، ولذا من يتابع التنظيمات الإرهابية، يجد أنهم يقومون في حالات كثيرة بتصفية بعضهم بعضًا، أو يبلغ بعضهم الجهات الأمنية عن البعض الآخر. عبد الرحمن السندي قائد التنظيم الخاص في «الإخوان» أرسل، سنة ١٩٥٣، علبة حلوى مفخخة إلى بيت خلفه في قيادة التنظيم. أبو بكر البغدادي (أمير داعش) تعرض لعدة محاولات اغتيال من بعض «المجاهدين» معه. أسامة بن لادن سلمه أحد أتباعه إلى الولايات المتحدة التي كانت تطلب حياته.

على أن من أهم ما جرى يوم «حنين» كان بين النبي وأُسيد بن حُضير. كان أسيد من الأنصار، وكان من الأوس، وكان مسلمًا مخلصًا، ولما أمر النبي بمنع قتل الذراري، قال له أُسيد: «يا رسول الله، أليسوا هم أولاد المشركين؟»، وكان رد النبي حاضرًا وقويًّا: «أوَليس خياركم أولاد المشركين؟»، ثم واصل صلى الله عليه وسلم القول: «كل نسمة تولد على الفطرة، حتى يُعْرِب عنها لسانها».

المعنى واضح، وهو أنه ليس مبررًا للقتل أن يكون والد الطفل مشركًا، لسبب مباشر، وهو أن خيار المسلمين، أي أفضلهم وأتقاهم، هم أبناء مشركين. ولماذا نذهب بعيدًا؟ عكرمة هو ابن أبي جهل. علي كرَّم الله وجهه، وأخوه جعفر الشهيد الطيار، وأخوهما عقيل، وأختهم هند أو أم هانئ، هم جميعًا أبناء أبي طالب عم الرسول الذي سانده بحكم رابطة الدم لكنه رفض بإصرار أن يترك دين آبائه ويتحول إلى الإسلام، ومات على اعتقاده القديم.

وجهة نظر أُسيد واضحة، وهي أن القتل يلحق بالمخالف دينيًّا وعقائديًّا، ورأي النبي واضح أنه ليس مبررًا للقتل. إن الإنسان يولد على الفطرة حتى يُعْرب عنه لسانه، اللسان ليس أداة النطق أو الثرثرة، لكنه يترجم عن عقل ويعبّر عن اختيار صاحبه.

باختصار، مسألة الإيمان والشرك، واختيار الدين الذي يعتقده، أمر خاص بالإنسان، لا يُقتل بسببه، والاختيار تتدخل فيه عوامل الأسرة والمجتمع والثقافة العامة، وكان النبي يدرك ذلك جيدًا حين قال: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه». اضطُهد النبي أكثر من عشر سنوات بسبب اختياره وقراره الابتعاد عما وجد عليه مجتمعه، وتعرض لعدة محاولات اغتيال، لا لشيء إلا أنه لم يقتنع باللات والعزى وآمن بالله الواحد الأحد، ولذا لم يكن ممكنًا أن يقبل أو يسمح باضطهاد لأحد بسبب دينه، لم يفعلها يومًا ولم يسمح بها، فمن يفعلها اليوم لا يجب أن ينسب فِعلته إليه.

لم تكن مشاعر المسلمين حول النبي واحدة تجاه المكِّيين حين توجَّه الجيش صوب مكة لدخولها (الفتح)، كان بينهم من رآها فرصة للانتقام واستباحة مكة بكل ما ومن فيها. كانت هزيمة المسلمين في غزوة أحد، وسقوط شهداء منهم، ثم حصار المكِّيين ليثرب أيام الخندق، فضلًا عن شروطهم المجحفة والقاسية على النبي والمسلمين في صلح الحديبية، كل ذلك جعل بعض النفوس معبأة ضد المكِّيين، وكان هناك من يريد تأديب بعض الذين بالغوا في العداء وفجروا في الخصومة، وكان فيهم مَن لديه رغبة جارفة في القتال، بغض النظر عمن يكون في الطرف الآخر من المعركة، وفيهم من كان يقيم مجده على عدد وأهمية من قتلهم بسيفه أو طعنهم برمحه في المعركة من الخصوم، ولم يكن ذلك غائبًا عن النبي ولا عن بعض المهاجرين، كما لم يكن غائبًا عنهم أن معاناة الأنصار (أهل يثرب) من الحصار الذي فُرِض عليهم من قبل خلق لدى عدد منهم شعورًا بالعداء والرغبة في الانتقام من المكِّيين الذين حاصروهم.

رأى النبي في التحرك نحو مكة فرصة لطي صفحة الماضي، والتسامح والتغاضي عما فات، وأن مشهد هذا الجيش الجرار كفيل بأن يردع المكِّيين عن القتال، لذا بذل جهدًا كبيرًا، وأصدر أوامر مشددة لقادة الجيش بألَّا يقاتلوا أحدًا، ولا يرفعوا سيفًا، إلا إذا كانوا مضطرين للدفاع عن النفس. وحدث أن قال سعد بن عبادة، سيد الخزرج وفارسها الشجاع، وكان أحد القادة: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستباح الحرمة». سمعها منه عمر بن الخطاب وشعر بالقلق الشديد على أهل مكة، هو يعرف شراسة سعد في القتال، ويعرف كذلك مشاعر الكراهية لديه تجاه قريش، لذا لم يجادله عمر، بل ذهب إلى النبي يبلغه وقال له: «يا رسول الله، ما نأمن أن تكون له صولة في قريش»، فعزله النبي فورًا عن القيادة، واختلف المؤرخون فيمن عُيِّن مكانه، ذكر البعض أنه اختار ابن سعد نفسه حتى لا يبدو الأمر انتقاصًا من الخزرج أو عدم تقدير لمكانتهم، وقيل اختار النبي مكانه علي بن أبي طالب.

وقد يتساءل البعض: لماذا بادر النبي إلى عزل سعد بن عبادة ولم يراجعه فيما قال أو يطلب إليه تخفيف حدته وغلوائه أو يعطيه أمرًا بعدم استباحة الحرمة؟ ويمتد التساؤل إلى عمر بن الخطاب نفسه: لماذا صمت عن سعد بن عبادة ولم يجادله وقرر أن يسرع إلى نبي الله ويبلغه بما سمعه وما يتردد عن نية سعد نحو مكة وأهلها؟

نبي الله يعرف جيدًا أن سعد بن عبادة في نفسه شيء تجاه كفار قريش، والمؤكد أن عمر بن الخطاب كان يعرف الشيء نفسه، سعد مسلم مخلص، هو أحد أبناء يثرب الكبار الذين اعتنقوا الدين من تلقاء أنفسهم، من دون أن يدعوهم النبي إليه، فقد سمعوا عن الدين الجديد وما يقول به فاعتنقوه، ثم ذهبوا إلى النبي يستمعون منه، بعد أن صاروا موحدين، مؤمنين ومسلمين، وكانوا

يترددون على مكة ويذهبون إلى الكعبة في موسم الحج، ثم ذهب وفد منهم إلى الحج، وهناك قابلوا النبي، وعقدوا معه ما يُعرف في التاريخ باسم «بيعة العقبة الثانية»، وهي البيعة التي التزم فيها الخزرج والأوس بنصرة النبي والدفاع عنه وحمايته هو ومن معه، هذه البيعة ترتبت عليها هجرة كثير من المسلمين إلى يثرب، ثم هجرة النبي نفسه، ومن ثَمَّ خروج الإسلام من الإطار المكي «المحلي» المحاصر بكبار قريش إلى فضاء الإنسانية الرحب في يثرب. الذين ذهبوا لمقابلة النبي في تلك البيعة، كانوا ـ كما ورد في «سيرة ابن هشام» ـ ثلاثة وسبعين رجلًا ومعهم امرأتان، عند البيعة طلب النبي منهم أن يختاروا منهم اثني عشر نقيبًا، يمثلون كل البيوت والفروع العائلية في يثرب، فكان من بين النقباء سعد بن عبادة، وهكذا تمت البيعة سرًّا أو بعيدًا عن عيون قريش، لكن من الصعب أن يبقى في هذا العالم أمر كهذا سرًّا، وكانت البيعة ليلًا، لكن في اليوم التالي تسرب أمرها إلى كبار قريش، فذهبوا إلى عبد الله ابن سلول يسألونه، فأكد أنه لا علم له بذلك، وما كان قومه ليعقدوا اتفاقًا أو بيعة مع النبي من دون علمه، ولم يكن يكذب، هو فعلًا لم يكن يعلم بأمر هذه البيعة ولم يحضرها، وكان في نيتهم أن يخبروه بها في طريق العودة، لكن قريشًا تأكدت من البيعة وتيقنت مما حدث، وجاء تيقنهم بعد مغادرة وفد يثرب أو معظم أعضائه إلى يثرب. وكان هناك من بين النقباء اثنان، كانا في أول الطريق، وهما سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، لم يمكنهم الإمساك بالمنذر، لكنهم أمسكوا بسعد، قبضوا عليه، ربطوا يديه إلى عنقه، ودخلوا به إلى مكة وهم يضربونه، ويجذبونه من شعره الكثيف، واستمر الضرب والإهانة. توقع أن يرأفوا به، لكنهم كانوا في حالة هياج، حتى نصحه أحدهم ـ خفية ـ أن يهتف باسم أحد القرشيين يربطه به جوار أو عهد، وكان قد عرف اثنين من التجار حينما كانا يذهبان بتجارتهما إلى يثرب، وهما مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، والحارث بن حرب بن أمية، وما إن ذكر الاسمين وكانا في الكعبة، حتى وصلا إليه، وأقرا بأنه كان يحمي تجارتهما ويمنع أحدًا من ظلمهما، فقاما بتخليصه، وأعلن كلٌّ منهما أنه في جواره، وهكذا فُكت قيوده، وعاد ثانية إلى يثرب، ومضى في طريقه، لكن يبدو أنه لم ينسَ ما حدث له من هؤلاء القوم. وها هو يوم الفتح قد اقترب، ولعله أراد ـ شعوريًّا أو لا شعوريًّا ـ التخلص مما وقع له من ضرب ولكم وإهانة. الطريف أن الذي لكمه يومها كان سهيل بن عمرو، الذي سيظهر في موقعة حنين، ضمن جيش المسلمين، ولم يكن قد أسلم بعد.

هذه الخلفية يعرفها جيدًا رسول الله، ولذا قرر أن يجنِّب سعد بن عبادة هذا الموقف بأن نحاه عن القيادة، وجنَّب المجتمع أزمة كان يمكن أن تحدث، فلو انطلق يستبيح حرمات أهل مكة في ذلك اليوم، لانقلب المشهد دمويًّا وثأريًّا على الجانبين، وكان رسول الله حريصًا على تجنب ذلك، والحيلولة دون حدوثه.

ويبدو أن الرغبة في تجنب سفك الدماء لم تكن لدى النبي وعمر فقط، فها هو أحد المهاجرين، حاطب بن أبي بلتعة، ما إن رأى الجيش يتحرك حتى بعث برسالة على وجه السرعة إلى أهله في

مكة يعلمهم ويحذرهم، مع سيدة كانت لديه، اختلف المؤرخون في أمرها من تكون، وعلم النبي بالأمر، فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ليعيدا السيدة ورسالتها قبل أن تصل إلى المعنيين بها في مكة، وتمكنا من ذلك. كانت السيدة قد أخفت الرسالة في جسمها بطريقة تثبت أن طرق التخفي والتخابر كانت على أعلى مستوى في ذلك الزمان، واستدعى النبي حاطبًا ليحقق معه، فأجابه حاطب: «إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت»، ثم قال: «لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم».

وجد عمر أن ما قام به حاطب يصل إلى حدود الخيانة العظمى، فطلب السماح له بقتله، فرفض النبي ذلك، وقال له: «ما يدريك يا عمر؟»، وشرح النبي لعمر أن الله قد يكون غفر للبدريين ما تقدم وما تأخر من ذنوبهم. وكان حاطب بدريًّا. في رد النبي تعاطف شديد مع مخاوف حاطب وتفهم لما قام به ودوافعه، وإن لم يقرَّه عليه، فضلًا عن تسامح عميق.

لم يكن حاطب وحده، فها هو العباس عم الرسول، كان لديه خوف أكبر وقلق أشد مثل الذي استشعره عمر من توعد سعد بن عبادة، فما إن اقترب الجيش من حدود مكة حتى ركب بغلة النبي البيضاء وخرج بها، لعله يجد أحدًا من قريش يلفت انتباهه إلى ضرورة أن تتخذ قريش خطوة ما أو مبادرة ما تجاه النبي، فسمع صوت صديقه أبي سفيان بن حرب يتحدث إلى بديل بن ورقاء، فأنصت إلى حديثهما، وكانا مندهشين من مشهد النيران التي أوقدها المقاتلون للإنارة وإعداد الطعام وغير ذلك، وما كانا يعرفان مصدر تلك النيران ولا لمن هي، كان رأي بديل أنها لهوازن، واستبعد أبو سفيان ذلك، فنادى عم الرسول أبا سفيان، وكانا رفيقين قدامى وشريكين في بعض التجارة، عرف أبو سفيان صوته، وتحدثا في الأمر، قال له العباس: «والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، فإنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر».

نشعر هنا أن بعض الوقائع قد لا تكون مكتملة أمام الباحثين والمؤرخين، ربما لأن هذه الوقائع دُوِّنت بعد مرور أكثر من قرن على حدوثها، إذ لم تسجَّل ولا دُوِّنت وقتها. لا نظن أن خروج العباس راكبًا بغلة النبي ولقاء أبي سفيان كان مجرد مصادفة، ولا كانت مصادفة أن يخرج أبو سفيان في تلك الليلة تحديدًا للتنزه في الصحراء، ثم يتجه مصادفة نحو موقع تمركز جيش النبي الذي يتهيأ في النهار القادم لدخول مكة، وليس من المتوقع أن العباس أقدم على هذه المبادرة من تلقاء نفسه ومن دون استئذان النبي، إن لم تكن قد تمت بتكليف مباشر. كانت علاقة النبي بالمحيطين به قائمة على المحبة والمودة الخالصة، وعلى المكاشفة والمسؤولية، وفي الوقت نفسه على الصرامة الشديدة من النبي والانضباط التام منهم.

المهم، اصطحب العباس أبا سفيان خلفه على البغلة، وتركا بديل بن ورقاء، وذهبا إلى النبي، ووجدها عمر فرصة لقتل أبي سفيان العدو اللدود، فضلًا عن أن مدة عهد أو صلح الحديبية قد انقضت، ومن ثَمَّ فلا مخالفة ولا نقض للعهد أمام المكِّيين والمسلمين أن يُقتل، الأمر الذي عدَّه

العباس مساسًا به شخصيًّا. حدثت مشادة كلامية عند النبي بين العباس وعمر حول هذا الأمر، وصلت إلى حد قول العباس إن عمر يصر على قتل أبي سفيان لأنه من بني عبد مناف، لكن النبي لم يكن يميل إلى التوسع في إراقة الدماء، فالحفاظ على الحياة لديه أهم بكثير، فضلًا عن ذلك كان يريد من ابن حرب أمرًا أكبر، وهو فتح أبواب مكة أمامه، وتهيئة أهلها لتقبل الأمر بسلام، وقام أبو سفيان بالدور جيدًا. ومن أسف أن المؤرخين ينكرون أو لم يقرُّوا لأبي سفيان بذلك نكاية في الأمويين.

وإذا كانت هناك مشاعر سلبية تجاه أهل مكة بين فريق من المسلمين، فالأمر نفسه كان بين بعض المكِّيين تجاه المسلمين، فكان بينهم من تلقى أمرَ أو نصحَ أبي سفيان لهم بعدم اعتراض الفاتحين على مضض، ومنهم من لم ينسَ ما فات، فما جرى في موقعتَي بدر وأحد لم يُنْسَ بين البعض في مكة، خاصة ذوي القتلى وضحايا المعركتين من القرشيين، وفي يثرب كذلك. جويرية ابنة أبي جهل (عمرو بن هشام)، سمعت أذان بلال من الكعبة، فقالت: «أما الصلاة فسنقيمها، ولكن لن ننسى من قتل الأحِبَّة». تقصد قتل والدها في بدر، وقال المحيطون بها كلامًا أشد بكثير.

المشاعر السلبية يمكن طمرها أو تجاوزها في لحظات الود والسلام والزهو السائد، لكن مع لحظات الأزمة أو الضعف والهزيمة فإن المشاعر السلبية قد تطفو وتتضخم، وهذا ما جرى في المرحلة الأولى من معركة حنين، حين وقعت الصدمة الأولى في جيش النبي من الهجوم المفاجئ. يتحدث كُتَّاب السِّير والمؤرخون العرب عن المشاعر السلبية أو حالة الشماتة والتشفي التي انتابت بعض المكِّيين، حيث طفا على السطح ما كان في الأعماق. حاول بعض المؤرخين نسبة الفرار من المعركة إلى المكِّيين الذين انضموا لتوّهم إلى الجيش، على الرغم من أنهم لم يكونوا في مقدمة الصفوف، ولم يكونوا أغلبية في الجيش، وعلى الرغم من تأكيد بعض المؤرخين أن أول الفارين كانوا من الأنصار والمهاجرين، والدليل أن النبي حين طلب من العباس النداء كان خطابه إلى الأنصار أولًا، لكن جرى التركيز لدى بعض الرواة والمؤرخين على المكِّيين. يقول ابن إسحاق في «السيرة النبوية»: «لما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله من جفاة أهل مكة الهزيمة تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن». وهنا ينسب هؤلاء إلى أبي سفيان قوله: «والله لا تنتهي هزيمتهم دون البحر». يلفت الانتباه هنا التوقف فقط عند أبي سفيان وحده دون غيره من كل الأسماء الكبيرة، ونحن نشك في أن يكون قد قال ذلك، فقد كان أشد حصافة وذكاء، ولم تكن كلماته ومفرداته عدوانية واستعلائية تجاه الآخرين حتى يقول عن النبي ومَن حوله تلك الكلمات، فلم يقل مثل ذلك من قبل، حتى في ذروة العداء مع النبي والمسلمين. لنتذكر قوله عن النبي حين سُئل عنه من مسؤول رومي ـ ممثل هرقل ـ في الشام، حيث امتدحه ووصفه بالأمانة والصدق والكرم. فهو غير أبي لهب بذيء اللسان والكلمات، وغير أبي جهل الذي سيطرت عليه مشاعر الحقد الشخصي على النبي، ولم يكن هو من الغباء حتى يفوته أن الهزيمة في «حنين» هي في المقام الأول هزيمة

مكة، وتعني أن تفقد مكة مكانتها الدينية والتجارية في الجزيرة العربية كلها لصالح هوازن وثقيف والطائف، بما يعني أن يفقد هو وأسرته تمامًا مركزه والجاه الذي زاده النبي يوم الفتح ولم ينتقص منه، وهو الذي لعب دورًا كبيرًا ومهمًّا في أن تُفتح مكة بسلام وأمان حتى لا تضار ولا تفقد مكانتها، فهل كان يرحب أو يسعد بهزيمة النبي أمام هوازن وثقيف؟ وهل كان يقبل أن يُطاح بمكة نهائيًّا لصالح الطائف؟

لم يكن كل الكفار (المشركين) الذين خرجوا مع النبي في حنين، مثل صفوان بن أمية. صفوان هو نجل أمية بن خلف أحد كبار مكة، وقد قُتل في غزوة بدر، وصار مقتله على أيدي «ضعفاء مكة» يطارد نجله، ويطالبه بالثأر له، ونسي صفوان هذا الأمر تمامًا مع طي صفحة العداء والصراع مع المسلمين يوم الفتح، وخرج مخلصًا مع الجيش دفاعًا عن قريش ومكة، ولكن كان هناك من خرج مع الجيش لهدف آخر، بالتأكيد كان هناك من يقاتل امتثالًا لأمر النبي ورغبة في تأمين مكة، وكسب الآخرين إلى الدين الجديد تقليلًا من حدة العداء له في باقي الجزيرة العربية، وكان هناك من خرج للنصر ومن ثَمَّ تحقيق الغنائم وحل مشكلاته الاقتصادية، في ذلك الزمان كان المقاتلون المحترفون يتعيشون من غنائم المعارك، وكان هناك من يخرج لغرض خاص وشخصي جدًّا، مثل وَحْشِي في غزوة أحد الذي خرج لقتل حمزة بن عبد المطلب.

في «حنين» كان هناك من خرج لغرض خاص أيضًا، من هؤلاء شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، خرج للثأر من النبي نفسه. كان والده قد قُتل في غزوة أحد، قتله حمزة عم النبي، صحيح أن حمزة قُتل وانتهت المعركة بهزيمة جيش النبي، على النحو المعروف، لكن شيبة امتلأ كراهية للنبي، وازدادت تلك الكراهية بعد فتح مكة، فقد رأى أن النبي دخلها «عنوة»، ويبدو أن اندفاع الكثيرين نحو الإسلام وتركهم دين الآباء والأجداد استفزه، لذا قال: «لو لم يبقَ أحد من العرب والعجم إلا اتبع محمدًا ما اتبعته». نحن هنا أمام موقف نفسي وشخصاني أكثر منه موقفًا عامًّا أو موقفًا عقلانيًّا.

لم تمر سوى أيام ـ بعد الفتح ـ حتى بدأت عملية تجهيز الجيش للخروج إلى «حنين»، وعلى الرغم من ضخامة عدد المقاتلين فلم يمانع النبي في اشتراك المكِّيين، بغض النظر عما إذا كان المقاتل أسلم أو ظل على الكفر، وهكذا خرج شيبة. وتختلف المصادر الإسلامية في مستوى الثأر الذي أراده، ابن إسحاق ذهب، كما نقل عنه ابن هشام، إلى أنه أراد الثأر لوالده، لكن ابن سعد يذهب إلى أنه أراد الثأر لمكة وقريش كلها، وينقل عن شيبة قوله: «قلت أسير مع قريش فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأثأر منه، فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها». وهكذا دخل المعركة وعينه على النبي، ينتظر أن يحتدم القتال ويختلط الجيشان فيسهل عليه تنفيذ ما جاء من أجله. وقد حدث أكثر مما يتوقع، بدأت هوازن هجومًا مباغتًا وأخذ المسلمون في الفرار، وبقي النبي وحده، ليس معه سوى خمسة أو ستة هم: عمه العباس، وعلي بن أبي طالب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو بكر، وعمر. وفي رواية أخرى كان العباس وعلي وحدهما أمامه. في تلك اللحظة وجد شيبة فرصته وتحرك خلف النبي واقترب منه، وطبقًا لروايته في «الطبقات» لابن سعد: «دنوت أريد ما أريد منه، ورفعت سيفي حتى كدت أسوّره». وفي روايات أخرى لم

يكن قد رفع السيف بعد، اقترب فقط، هنا حدث أمران في وقت واحد، الأول: أن شيبًا غشى فؤاده فلم يعد يرى أمامه، حتى إنه لمس عينيه ليتأكد أنه ما زال مبصرًا، وقيل إنه شعر وكأن نارًا تقترب منه وتلتهمه، هنا يقول: «أدركت أنه ممنوع مني». سَمِّه ما شئت، تهيب اللحظة والموقف، مهابة النبي نفسه والكاريزما الخاصة به، أو قل هي النبوة والحماية الإلهية، وربما الاهتزاز النفسي من إدراكه العميق أنه يقوم بعملية غدر وخيانة ثقة وطعن من الخلف، وتلك كلها من دلائل العار والوضاعة في أخلاق العرب، بغض النظر عن الموقف والاختيار الديني. الثاني: أن النبي في تلك اللحظة، شعر به والتفت خلفه، كان يعرفه، وكان النبي مدرعًا، أي يلبس الدرع، نظر الرسول إليه ولعله أدرك ما في نفسه فناداه: «ادنُ مني يا شيبة»، فدنا منه، فوضع النبي يده على صدره ودعا: «اللهم أعذه من الشيطان»، ثم قال له: «اذهب وقاتل».

لنتأمل هذا الموقف بنفوس «مكفراتية» هذا الزمان، ومن يقال عنهم جهاديون، تجنبًا للتسمية الحقيقية «إرهابيون»، هذا رجل بملء فمه يقر بأنه كافر، وفي قلب المعركة يريد أن يقتل النبي غدرًا، ويتجه لتنفيذ جريمته، ويضبطه النبي نفسه، ومع ذلك يدرك أزمته ويتغاضى عن ذلك كله ويدفعه إلى الاندماج مع الباقين. لو أمر النبي بقتله ما لامه أحد، وكان معه عمر وعلي، وسيف كلٍّ منهما ينتظر أي تكليف من النبي، وهذا ميدان قتال، النبي هنا هو القائد الأعلى، لكن القتل بحد ذاته لم يكن هدفًا من أهداف النبي ولا غاية من غايات الدين الذي جاء به، الأحرى أنه جاء ودعا إلى تجنب القتل والعنف وإلى ألَّا يحاسَب الناس على لحظات ضعفهم وزلاتهم، ما دامت أنها لم تتحول إلى فعل يضر ويؤذي الآخرين، خاصة إذا مثَّل هذا الفعل جريمةً. أيضًا لم يكن النبي ليحاسب الناس على نياتهم وخلجات أنفسهم، هذا الأمر متروك لله، النبي نفسه قال في حديث معناه إن من انتوى فعلًا سيئًا، معصية أو خطأ، ولم يقدم عليه لا يحاسبه الله على ما انتوى. لكن في زماننا نجد من يقتلون الأبرياء بضمير مستريح وهم يعرفون أنهم أبرياء، ويرددون: هؤلاء يبعثون على نياتهم.

انتهت المعركة، وذهب شيبة بعدها ليقابل النبي، لعله أراد التيقن: هل أدرك ما كان مقدِمًا عليه؟ خاصة أنه لم يفاتح أحدًا بهذا الأمر من قبل، هل اطلع على سره الخفي وعلم به؟ يبدو أن الرسول أدرك تمامًا نيته واهتزازه النفسي، حين وضع يده على صدره ودعا له؛ الدعاء يؤكد ذلك، لكنه أراد التيقن. سمح له بالدخول، وكان النبي وحده، وفوجئ شيبة بالنبي يصارحه بما كان يفكر فيه، فارتبك ولعله حاول أن يفسر أو يبرر أو يعتذر، لكن النبي أعفاه من ذلك الحرج وأنهى الموقف سريعًا قائلًا: «الحمد لله أنه أراد بك خيرًا مما أردت بنفسك».

هنا تحول شيبة عن موقفه العدائي السابق، وشهد للنبي بالنبوة، واعتنق الإسلام، وعاش متندرًا بما قاله وحاول أن يقدم عليه ذات يوم. الآن من دراسات علم النفس نعرف أن الشخصيات الحادة والمتصلبة يكون من السهل أن تتحول من النقيض إلى النقيض. بعد هذا الموقف، قال إنه بمجرد أن

وضع النبي محمد يده على صدره، صار أحب إنسان لديه، وعاش عمره معتزًّا بذلك الحب.

بعض المؤرخين من عشاق نظرية المؤامرة حاولوا تصوير ما فكر فيه شيبة بأنه خطة ومؤامرة قرشية، وأن شيبة اتفق مع صفوان على ذلك قبل بدء المعركة، وهو قول لم يثبت ولم يقم عليه دليل، وحدث عكسه في المعركة، حين رفض صفوان قول من ذهب إليه: «أبشر أبا وهب، هُزم محمد وأصحابه»، فرد عليه بحدة: «فض فوك، إن ربًّا من قريش أحب إلى من رب من هوازن إن كنت مربوبًا».

فيما بعد، روى شيبة ما جرى بالتفصيل، لم يتهمه أحد، ولم ينظر إليه كبار الصحابة شَذرًا، ولم يتم التنمر به ولا المزايدة عليه، لا تشكيك ولا طعن فيه، في مثل هذا المناخ كان من الطبيعي ألَّا تكون هناك إسلاموفوبيا ولا نجد شبانًا صغارًا يهربون من الدين أو يحملون عداء أو ضغينة في نفوسهم تجاه الإيمان والدين عمومًا.

العباس بن مرداس، فارس وقائد متميز، وهو أيضًا شاعر من المعدودين بين شعراء عصره، أمه هي الخنساء شاعرة العرب المتميزة، عرفناها جميعًا من مقرر وزارة التربية والتعليم في الشعر وهي ترثي أخاها صخرًا، وتميزت عمومًا في الرثاء. العباس اتجه إلى الإسلام دون أن تصله دعوة إلى الدين الجديد من النبي أو أيٍّ من الصحابة الأوائل، لأنه لم يكن من مكة وأهلها؛ أول من وصلهم أمر الدين الجديد، ولم يكن من الطائف التي ذهب إليها النبي يدعو إلى ما كُلف به من الله، ولا من يثرب التي سعى أهلها إلى النبي. كان لدى ابن مرداس صنم ورثه عن والده، ثم راح يفقد ثقته به، واكتشف أنه لا جدوى منه، وشغلته قضية الألوهية، ولم يكن وحده في ذلك، كانت هناك عملية مراجعة للشأن الديني وكثير من العادات في الجزيرة العربية قبل ولحظة ظهور الإسلام مباشرة على النحو الذي تثبته كثير من المصادر العربية وأيضًا بعض الدراسات الحديثة، سواء العربية أو الأجنبية، وما إن ظهر الدين الجديد وأعلن سيدنا محمد عن نبوته، فكر في الأمر وذهب إلى يثرب وأعلن اعتناقه الإسلام هو ومعظم قومه بني سليم.

ولما قرر النبي الخروج بالجيش إلى مكة، دعا صلى الله عليه وسلم عددًا من القبائل للخروج معه، ولم يكن العباس وبني سليم من المدعوين، لكنه جاء مع قومه، على رأس تسعمائة فارس بأسلحتهم كافة، أي لم يكلِّفوا النبي شيئًا، لا في توفير السلاح ولا الخيول، وفُتحت مكة، ثم اتجه الجيش إلى هوازن، وتحقق النصر، ثم توجه الرسول مباشرة إلى الطائف، إلى أن توقف القتال. العباس وقومه بنو سليم شاركوا في هذه المعارك كلها، ثم حانت اللحظة المنتظرة، وهي توزيع الفيء أو الغنائم، وكان للعباس نصيب منها، ليس فقط لكونه مقاتلًا أو فارسًا، بل لكونه سيد قومه وكبيرهم، وجاء ما قدمه إليه النبي، أقل مما يتوقع. وجد العباس أن بعض القادة من أقرانه، ويرى نفسه أفرس وأكثر بطولة منهم، قد أعطاهم النبي أكثر منه، ليس هذا فقط، بل إن بينهم من كان لا يزال على الدين القديم. وللحق لم يكن هو يقيسها بالمعيار الديني، بل بمعيار البطولة والشجاعة في ميدان القتال، وكان يعنيه منهم عيينة بن بدر الفزاري وقد أعطاه النبي مائة من البعير، وأعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة أيضًا، وآخرون حصلوا على هذا العدد، أما هو فأُعطي أربعة فقط، على نحو ما يرد في معظم المصادر. غضب العباس مما حدث، ولم يتقبله، ولم يستطع أن يكتم شعوره ويحبس إحساسه، هو من أولئك الذين يمتلكون حرية التعبير والشجاعة الأدبية، شجاعة القول والمصارحة، ولأنه شاعر، اختار الشعر وسيلة لقول ما لديه، فدبج قصيدة يسجل فيها تظلمه وعتابه على النبي، أورد ابن هشام في «السيرة النبوية» العديد من أبياتها، جاء فيها:

فَأَصبَحَ نَهبِي وَنَهبُ العُبَيدِ بَيـنَ عُيَينـــةَ والأَقـــرَعِ

والعُبيد (بضم العين): اسم فرسه. ثم راح يتحدث عن بطولته في الميدان، بما لا يُقارن معه من أعطاهم النبي أكثر منه، وذكرهم بالاسم، وقال عما أعطاه النبي:

إِلَّا أَفَـائِـــلَ أُعطِيتُهَـــا عَدِيـدَ قَوَائِمِهَـا الأَربَـــعِ

الأفائل هي صغار الإبل. وفي مجال عتابه للنبي قال: «فَلَم أُعطَ شَيئًا وَلَم أُمنَع»، أي أن النبي لم يعطِه شيئًا وكذلك لم يمنعه، وهو يستوعب العطاء ويستوعب كذلك المنع، أما ما جرى معه، فغير مفهوم له. قال كذلك في عتاب المحب الصادق مخاطبًا النبي: «وَمَن تَضَعِ اليَومَ لَا يُرفَع»، أي أن النبي حطَّ من قدره وقيمته، ولن يرتفع هو أبدًا، لا في نظر قومه ولا بين العرب كلهم، الأمر لا يمسه هو وحده، بل يمس بالقدر نفسه قومه كلهم، خاصة أنهم جاءوا إلى القتال من دون استدعاء.

انتشر أمر القصيدة في محيط المشاركين في الجيش، مع ملاحظة أن مناوشة كلامية أقرب إلى المبارزة قبل نشوب القتال جرت بين العباس وأحدهم على مسمع من النبي، يضاف إلى ذلك رصانة ورُقي التعبير، وكانت القصيدة جديدة.

كان النبي والمسلمون اعتادوا قصائد الهجاء للنبي شخصيًّا ولما جاء به خاصة في السنوات الأولى للدين في مكة وبين أهلها تحديدًا، وفي المقابل قصائد الدفاع عن النبي والمسلمين، وكان أغلبها للشاعر حسان بن ثابت، أما الجديد فهو قصيدة ليست هجاءً وليست مدحًا، لا يقولها عدو بل محب عاتب مجروح، فذهب أبو بكر الصديق إلى النبي بالقصيدة وألقاها عليه، ولم يكن أبو بكر مجرد صحابي، كان مستشارًا للنبي، وكان على دراية جيدة بالشعر. حدث أن النبي طلب إلى شاعره حسان بن ثابت أن يعرض شعره في الدفاع عنه على أبي بكر قبل أن يذيعه في القوم. وأن يهتم أبو بكر بقصيدة ابن مرداس، يعني أنه متعاطف مع عتابه أو شكواه، ولم يكن مجرد إبلاغ النبي بواقعة حدثت، لو أنه لم يكن متعاطفًا لرد عن النبي وفنَّد ما ورد في القصيدة، وقد فعل ذلك من قبل في عدة مواقف، وربما لأنه وجد القصيدة تنتشر ويرددها الكثيرون.

طلب النبي العباس بن مرداس وسأله عن القصيدة وما جاء بها من عتاب، ثم قال لمن حوله: «اقطعوا عني لسانه». أصاب بعض المحيطين فزع شديد، وقالوا: «أمر النبي أن يمثل بالعباس»، ولم يكن قد صدر من قبل عن النبي أمر كهذا، ولا حدث في بيئتهم، لذا كان فزعهم متوقعًا. أما العباس نفسه فقد وجد بلال بن رباح يأخذه على الفور، بينما المسكين ينادي: «يا رسول الله، أيُقطع لساني؟ يا معشر المهاجرين، أيُقطع لساني؟»، وظل ينادي على هذا النحو وصوته يرتفع، فهدَّأ بلال من روعه قائلًا: «أمرني الرسول أن ألبسك حُلة أقطع بها لسانك». حكى بلال، فيما بعد، وكان مؤذن الرسول، أنه تلقى الأمر النبوي بأنه حين يسمع منه تلك الجملة: «اقطعوا عني لسانه»، يأخذه ويلبسه حُلة خاصة. وقيل أعطاه أيضًا خمسين من الإبل، أي أن المسألة تشريف، فيمنح حلة مهداة من النبي، وهذا ما لم يتحقق لمنافسيه ومن ذكرهم في قصيدته، فضلًا عن عدد

آخر من الإبل، وفي الوقت نفسه لا يكون تساوى معهم في عدد الإبل، لأن عطاء الإبل للقادة كان أمرًا متروكًا للنبي، لأمور يقدرها هو.

يعنينا هنا أن «قطع اللسان» مقصود به ليس القطع البدني بمعنى البتر، كما فهم العباس نفسه، وكما فهم البعض للوهلة الأولى، وليس كذلك بإصدار فرمان أو قرار يمنعه من قول الشعر ويلزمه الصمت، كما قد يتصور البعض، بل إزالة سبب الشكوى والعتاب، وزال بالفعل، وبقيت القصيدة وبقي الموقف كله نتذكره ونتدارسه. المهم أن العباس ظل مشاركًا في كل حروب النبي، على الرغم من أنه لم يكن من مكة ولا من المدينة ولم يقطن بأيٍّ منهما، كان مقيمًا في وادي البصرة وعاش أبناؤه في البصرة.

في وقت من الأوقات، أيام الإمبراطورية العثمانية، كانت عقوبة من يتكلم بما لا يرضي سلاطين آل عثمان أو ولاتهم وأَغَواتهم، هي قطع اللسان أو تخييط الفم بإبرة مخصوصة وتجريسه. لدى الجبرتي في «عجائب الآثار» نجد بعض حالات لأفراد عُوقبوا على هذا النحو. أما في زماننا فقد حدث في سوريا قطع لسان مطرب وشق حنجرته لأنه غنى، والغناء لدى بعض المتشددين محرم، وفي مصرنا قُتل فرج فودة لأنه نطق بما أحرج وأغضب نائب المرشد العام في مناظرة الموت سنة ١٩٩٢ بمعرض القاهرة الدولي للكتاب.

هكذا كان النبي، وهكذا يحدثنا التاريخ عنه، وهكذا المتشددون والإرهابيون. هكذا إسلام النبي ومن معه، وهكذا فهموا هم الإسلام.

لم تكن طرفة «قطع اللسان» مع العباس بن مرداس سوى الجزء الهين من قضية توزيع الفيء أو الغنائم على المقاتلين من جيش النبي في معركة حنين، لم يكن توزيع الفيء جديدًا على النبي ولا على المقاتلين معه، حدث ذلك في معظم الغزوات من قبل، لكن هذه المرَّة كان هناك الجديد، وتمثل ذلك في أمور ثلاثة، الأول: أن الفيء كان كبيرًا جدًّا، بما لا يقارن معه كل ما سبقه. نعرف أن مالك بن عوف قائد جيش هوازن دفع مقاتليه إلى الخروج ومعهم أسرهم وممتلكاتهم وأموالهم كافة، ولما دارت الحرب عليهم فرَّ من الميدان مع مقاتليه وتركوا نساءهم وأطفالهم وممتلكاتهم، وفي عُرف ذلك الزمان يصبح كل هذا من حق المنتصر وملكه، المال والأطفال والنساء وكل ما تركوه. وتباينت تقديرات تلك الثروات، يذكر ابن إسحاق في «السيرة النبوية» وعنه أخذ الطبري: «كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سبي هوازن من النساء والأطفال عدد كثير، ومن الإبل ستة آلاف بعير، ومن الشاء ما لا يُحصى». ويذكر الواقدي أنه «كانت مع رسول الله من السبي ستة آلاف، وكانت الإبل أربعة وعشرين ألف بعير، وكانت الغنم لا يُدرى عددها، قد قالوا أربعين ألفًا»، وعند التوزيع سوف نكتشف أن هناك ثروات أخرى لم ترد في تلك التقديرات. الثاني: دخول عناصر جديدة في الجيش، أقصد أهل مكة تحديدًا، وهؤلاء يضافون إلى قائمة التوزيع. لم يعد قوام الجيش، كما كان من قبل، المهاجرين والأنصار، وهذا يعني إضافة طرف ثالث في توزيع الفيء. الثالث: الأمر لا يقتصر على زيادة أعداد المقاتلين زيادة كبيرة، ولكن في أن هناك بين المقاتلين من هم ليسوا من المسلمين، وهذه سابقة لم تحدث، ولا يُعرف كيف سيتعامل النبي مع هؤلاء في توزيع الفيء، هل لهم نصيب فيه أم لا؟ وإن كان لهم نصيب، فبكم يُقدر؟ هل يتساوون مع المسلمين أم يقلُّون عنهم؟ ولا بُدَّ أن نتوقع من كثير من المقاتلين الأنصار، على الأقل، أن هؤلاء لا يمكن أن يتساووا معهم في الفيء، لكن في النهاية الأمر كله متروك لما يقرره رسول الله أو أن يتنزل به وحي.

كانت قواعد التوزيع معروفة، نزلت فيها آية قرآنية كريمة، رقم ٤١ من سورة «الأنفال»: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ»، وهناك معايير تنظيمية حددها النبي، وقد رصدها بدقة وتفصيل الفقيه أبو يوسف في كتابه «الخراج»، باب «في قسمة الغنائم»، ويفاجأ القارئ بالتنظيم الدقيق للمسألة، الفارس الذي يقاتل على حصان أو بعير له قدر يختلف عن الذي يقاتل مترجلًا، وللدابة سواء كانت حصانًا أم بعيرًا سهم، وهكذا.

كان الكل متعجلًا ومترقبًا، ولم يكن النبي متعجلًا، ولعله كان متحسبًا لما قد يحدث، لولا أن القوم راحوا ينادون: «الفيء يا رسول الله». وحدث بعض الهرج وقدر من التجاوز صدر عن بعضهم

في المطالبة.

الأنصار يترقبون، كانوا قلقين عمومًا، ليس بسبب الفيء وتوزيعه فقط، لكن قلقهم منذ فتح مكة، إذ تصوروا أن النبي سوف يغادرهم ويبقى مقيمًا في مكة موطنه الأول، ولا يعود ثانية إلى يثرب، وفي ذلك إضعاف لهم ولمكانتهم ومدينتهم بين العرب، لكن النبي طمأنهم أنه لن يتركهم أبدًا، ولن يغادر يثرب، والآن يتخوفون أن يستأثر المَكِّيون بالفيء.

وكان المهاجرون يترقبون، صحيح أنهم سعدوا بانضمام أهلهم من المكِّيين، لكن كان هناك من يتوجس من وجود قادة أو زعماء قريش، وأن يوضعوا معهم في كفة واحدة، وتعود الأمور بهم أمام هؤلاء الزعماء كما كانوا من قبل.

ولم ترصد لنا المصادر العربية هواجس المكِّيين وقد اضطروا إلى اعتناق الإسلام في اللحظة الأخيرة وبينهم من لم يعتنقه بعد، والمؤكد أن الذاكرة فيها العداء السابق والصراع مع النبي، لكن هل نسي هؤلاء أنهم كانوا كبار القوم؟ ماذا توقعوا أن يكون نصيبهم؟ لحظة التوزيع تكشف أنهم لم يكونوا على استعداد للتنازل عن مكانتهم، بل إنهم تعاملوا مع الإسلام ومصالحتهم مع النبي كدعم لهم ولمكانتهم في الظروف الجديدة.

الموقف الصعب جدًّا، هو موقف النبي نفسه، كان يعرف جيدًا حقيقة كل طرف أمامه، خبر صدق المهاجرين وتحملهم العنت من القرشيين، وفيهم من هاجر الهجرتين، أي إلى الحبشة ثم يثرب (المدينة المنورة)، وتركوا بيوتهم وأموالهم متحملين الغربة والفقر، فضلًا عن أنهم فارقوا الأهل مرغمين. رأى كذلك ولمس نبل الأنصار وكرمهم البالغ وتضحياتهم الجسيمة، حتى إنهم أشركوا المهاجرين معهم في بيوتهم وممتلكاتهم، فعلوا ذلك بأريحية شديدة وبإيمان عميق بالإسلام. فضلًا عن تحملهم الكثير من الضغوط والمتاعب، حتى إن القرشيين حاصروهم في موقعة «الخندق» بسبب وجود النبي بينهم، ولم يضعفوا، ولا تزحزحوا، ولا تخلوا عنه صلى الله عليه وسلم، ولا اهتز إيمانهم لحظة، وما تراجعوا ولا بدلوا. أما المكِّيون فكان نبي الله يود أن يكسبهم معه وألَّا يبقى داخلهم شعور بالهزيمة والانكسار تجاهه وتجاه الدين نفسه. وأخيرًا هناك أبناء هوازن أنفسهم، فلا يستقيم مع الدين الجديد وما يبشر به من قيم إنسانية إذلالهم إلى حد أن يوزَّع أطفالهم ونساؤهم كجوارٍ وعبيد، ولا أن يطول العداء معهم، حتى لا يخيف ذلك بقية العرب، فيتكتلوا ضده وضد ما جاء به، وتصبح معركتهم معه وجودية، مسألة حياة أو موت، كان يريد في النهاية أن يكسبهم، على الأقل لا يبقون أعداء، خاصة أهل الطائف جيدة التحصين والقوة.

سياسيًّا، لو بقي النبي والمسلمون في مكة والمدينة وسط محيط من العداء والرفض، فلن ينتشر الدين ولن يحدث التقدم في الحياة الذي ينادي به النبي.

بدأ التوزيع بالمكِّيين، وسوف يصبح اسمهم من هذه اللحظة «المؤلفة قلوبهم»، ولا نعرف هل قصد النبي إلى تلك البداية أم أن الأمور فرضت نفسها على هذا النحو، والذي حدث أن النبي جلس

وجِيء أمامه بكل شيء، كانت هناك كمية ضخمة من الفضة، وهي ذروة الثروة عند العرب وقتها، كانت لها الأولوية عن الذهب، الذي لم يكن متوفرًا، وقدرت الكمية بأربعة آلاف أوقية، أذهلت الفضة نظر أبي سفيان، فصاح: «يا رسول الله، أصبحت أكثر قريش مالًا»، هنا ما زال وعي أبي سفيان بن حرب مرتبطًا بقريش فقط، وبالمال، تبسم له الرسول، لكن أبا سفيان تقدم خطوة أخرى، لم يستطع أن يقاوم إغراء الفضة، وقال: «أعطني من هذا المال يا رسول الله»، فأمر بلال بن رباح وكان هو من يتولى التوزيع أن يزن له أربعين أوقية من الفضة وأن يُعطى مائة بعير، لم يكتفِ أبو سفيان بذلك فقال: «ابني يزيد، أعطه يا رسول الله»، فقرَّر ليزيد مثل الذي أعطى والده، مرَّة ثالثة يطلب أبو سفيان لابنه معاوية، فيلقى الأخير نصيب والده وأخيه، هنا قال أبو سفيان: «إنك لكريم، فداك أبي وأمي، لقد حاربتك فنعم المحارب كنت، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيرًا».

بعد أبي سفيان جاء دور بقية أعيان قريش وبيوتاتها، مائة من الإبل لكلٍّ منهم، ثم خمسون لبعضهم، هؤلاء الذين قال عنهم ابن إسحاق: «أشراف الأشراف في مكة».

في دائرة النبي، بين قدامى المسلمين، أدهش ذلك البعض، وأثار تساؤلات البعض الآخر، لكن هناك من شعر بالحنق والغضب وربما ما هو أكثر من ذلك.

شاعر النبي عاتبًا

لم يكن العباس بن مرداس وحده مَن كتب الشعر عتابًا للنبي لقلة نصيبه من الفيء وبالأحرى لشعوره أن هناك انتقاصًا من قدره. فعلها حسان بن ثابت أيضًا، لم يكن حسان فارسًا ولا مقاتلًا، هو «شاعر محترف» إن صحَّت التسمية، قضى حياته يكتب الشعر مدحًا أو هجاءً، اتصل بالغساسنة قبل الإسلام يمتدحهم ويهجو خصومهم، لم يكن ينافسه في ذلك سوى النابغة الذبياني، ثم اتجه إلى المناذرة، خصوم الغساسنة يمتدحهم، حتى أبعدوه، ولما دعا النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام، اتجه إليه حسان واعتنق الإسلام، وعرض على النبي أن يكون شاعره، يهجو خصومه ومنتقديه، وقبل النبي منه ذلك، وصار شاعره.

حسان أنصاري من يثرب ينتمي إلى الخزرج، وعلى الرغم مما عُرفوا به من الشجاعة في القتال، فإنه كان يجبن عن القتال، لذا على الرغم من أنه اعتنق الإسلام مبكرًا ولازم النبي فلم يخرج معه في أي غزوة، ولم يؤخذ عليه ذلك الأمر، بل تفهم الجميع حاله، لكن حين انتهت غزوة حنين وجرى توزيع الفيء، لم يقدم النبي للأنصار منه مثل ما قدم للمكِّيين، فآلمهم ذلك، بتعبير ابن إسحاق: «وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم»، أي شعروا بالوجد والألم النفسي، ليس هذا فقط، بل راحوا يتحدثون معًا في هذا الأمر ـ استبعاد النبي لهم من الفيء ـ بصوت مرتفع، «كثرت منهم القالة، حتى قال قائلهم: لقد لقي رسول الله قومه».

باختصار، عاودهم الهاجس الذي لم يكن قد فارقهم تمامًا، بأن مصالحة النبي مع أهل مكة سوف تقود إلى تجاهلهم واستبعادهم، بل التخلي عنهم، وها هو الدليل أمامهم. هنا انحاز شاعر النبي إلى قومه، وتبنَّى وجْدهم، فكتب قصيدة مُعاتبًا ومُذكِّرًا بدور الأنصار وسجلهم في نصرة النبي والإسلام، جاء فيها:

وأْتِ الرَّسُولَ فَقُل يَا خَيرَ مُؤتَمَنٍ

لِلمُؤمِنِينَ إذَا مَا عُدِّدَ البَشَرُ

عَلَامَ تُدعَى سُلَيمٌ وَهيَ نَازِحَةٌ

قُدَّامَ قَومٍ هُم أَوَوا وَهُم نَصَرُوا

والمؤكد أن أمر الأنصار برمته وصل النبي، ولكن لم يفاتح حسان أو غيره فيه، لم يكن في القصيدة شيء شخصي يتعلق بحسان، ولكن أن تأتي القصيدة من شاعر النبي الذي يدافع عنه ويهجو خصومه، فهذا يعني أن ما أصاب الأنصار بالألم ليس هيِّنًا لديهم. حتى ذهب كبير الخزرج، سعد بن عبادة، يفاتح النبي: «يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت»، ثم واصل سعد الشكوى: «قسَّمتَ في قومك، وأعطيتَ

عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكُ في هذا الحي من الأنصار منها شيء». انتهى سعد، وكان واضحًا أنه يتحدث بلسان القوم ويعبّر عنهم هم، وليس عما بداخله وشعوره هو بشكل مباشر، فبادره النبي يسأله عنه وموقفه هو: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟»، أجاب: «يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي». ليس واضحًا أمامنا من كل المرويات هل ذهب سعد إلى النبي من نفسه أم مُكلَّفا من قومه، وأنهم طلبوا منه مفاتحة نبي الله، غير أن رده الأخير على النبي يوحي بأنه تحدث معهم وتحدثوا إليه في الأمر، هنا قال له النبي: «اجمع لي قومك في هذه الحظيرة». وهنا يطرأ التساؤل: لماذا لم يطلب الرسول جمعهم في المسجد كما هي العادة؟ ولماذا لم ينتظر الرسول حتى أداء الصلاة، ثم مناقشة الأمر معهم كما هو مُتَّبع؟

قد يقول البعض إن رسول الله لم يكن في المدينة المنورة وقتها، كانوا في منطقة تسمى «الجعرانة»، قريبة من الطائف، لكن كان بها مسجد يصلون به، أي أنه كان ممكنًا أن يعقد الاجتماع داخل المسجد، لكن رسول الله أراده بعيدًا عن المسجد. يبدو أن النبي أراده حديثًا خاصًّا مع الأنصار، وحدهم، لكن المسجد للجميع، فضلًا عن أن النقاش سيأتي على ذكر قبائل العرب والمكِّيين، بما قد يؤدي إلى تباغض وفُرقة، أو إثارة بعض الحساسية على أساس قَبَلي وجغرافي، والنبي كان حريصًا على تجنب الفُرقة والإحن القبَلية، هو يريد أن يسمع منهم وأن يفسر لهم لماذا قدم «عطايا عظامًا» ـ بتعبير سعد بن عبادة ـ للمكِّيين، ولماذا لم يقدم لهم شيئًا؟ من حقهم عليه أن يكشف ويفسر لهم ما غمض عليهم، ومن واجبه أن يحرص على ودهم.

سارع سعد إلى استدعائهم، وحضر بعض المهاجرين، فسمح لهم بالدخول ورفض دخول غيرهم.

بدأ النبي الكلام: «يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم، جِدة وجدتموها عليَّ في أنفسكم»، ثم قال: «ألم آتِكم ضُلَّالًا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألَّف الله بين قلوبكم؟»، هم لا ينكرون شيئًا من ذلك، بل يقرُّون بكل ما طرحه النبي: «بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضل». ثم قال لهم، بتحديد أشد: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟»، «بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لرسوله المَنُّ والفضل»، هنا رد هو عنهم بالوجه الآخر، أي فضْلهم هم الذي يتحرجون من ذكره، تواضعًا وتأدُّبًا، لكنه يرفع الحرج عنهم، حتى لا يبدو الأمر مَنًّا منهم، فقال: «أما والله لو شئتم لقلتم، فلصَدَقتم وصُدِّقتم: آتيتَنا مُكذَّبًا فصدَّقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك».

هذا الإقرار بفضل النبي والإسلام عليهم، ثم فضْلهم هم كذلك عليه، كان يعني إغلاق أي باب للمخاوف والهواجس لديهم، ويؤكد أن جانبي الصورة واضحان، لا بخس ولا إنكار لدورهم وفضلهم، كما أنه اعتراف وإقرار بما أفادهم وجود النبي بينهم. ويحصر المشكلة في نطاقها المادي، وفي إطار الواقعة المقصودة، ثم دخل في صلب الموضوع: «أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعة من الدنيا تألَّفت بها قومًا ليُسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟» (اللعاعة في

«لسان العرب» هي: الشيء البسيط الهين)، ثم قال لهم: «ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟»، ثم استرسل النبي في حديثه عن حبه وتقديره للأنصار: «لولا الهجرة لكنت من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلك الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار». كان حديثًا ودودًا يفيض إنسانية ومحبة، وأخذ يدعو للأنصار وأبنائهم وأحفادهم بالرحمة. ومن فرط تأثرهم بدعاء رسول الله لهم وحبه إياهم، انخرطوا في بكاء حاد، وقالوا: «رضينا برسول الله قسْمًا وحظًّا».

انتهى الاجتماع بتلك الحالة من القبول والرضا، النفوس صافية تمامًا، زال الوجد وتبدد العتاب، الصدق الديني والإنساني لديهم كما هو، لم يكن عندهم شك ولا ارتياب، كما قد يُفهم من بعض أبيات حسان، الطريف أننا لم نلحظ حضورًا لحسان في ذلك اللقاء، لم يرد أي ذكر له بين الحضور ولا في أثناء الاجتماع، كأن دوره إلقاء الشعر فقط، بما يحمله من رسائل. المهم، خرج النبي راضيًا وهم كذلك، لكن نفوس البعض لم تصفُ تجاه قريش والقرشيين، وتكوَّن لديهم ما يمكن أن نعدَّه رفضًا لهم، وسوف نكتشف ذلك لحظة وفاة النبي، حيث سارع سعد بن عبادة وجماعته إلى سقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة للنبي من بعده يكون منهم، وليس قرشيًّا ولا مكيًّا، واستقروا على أن يكون سعدًا، وراحوا يبايعونه، فبلغ الخبر أبا بكر وعمر وأبا عبيدة، مَن أبلغهم لم يكن يريد أن يذهب الأمر إلى سعد والخزرج تحديدًا، فسارعوا لإجهاض تلك المحاولة. يومها ظهرت حنكة أبي بكر وصرامته، واستطاع أن يحول هذا الجمع عما كانوا قد شرعوا فيه، فتراجع أنصار سعد خطوة، وقالوا: «منَّا أمير ومنكم أمير»، لم يقبل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، وحدث أن تخوَّف الأوسيون ـ قبيلة الأوس ـ من تسيُّد الخزرج عليهم للعداء القديم الذي كان قائمًا بينهم، وقد نجح النبي بمجرد الهجرة في تبديد ذلك العداء، لكن تبين في ذلك الموقف أن الماضي لا يُمحَى، يمكن أن نتناساه ونتجاهله، لكنه يظل كامنًا في الأعماق حتى يأتي موقف ما فيطفو على السطح، وهذا ما حدث، فقد انطلق الأنصار من الأوس يدعمون وجهة نظر أبي بكر ويفندون مبررات الخزرج، وكان أن انصرف أنصار سعد عنه في اللحظة نفسها إلى المهاجرين، وجرت بيعة أبي بكر، ونسوا سعدًا تمامًا، وفي الزحام والتدافع كادوا يطأون سعدًا بأقدامهم، وصاح عمر فيهم أن اقتلوه، إنه مصدر فتنة، وأقسم سعد ألَّا يبايع قرشيًّا أبدًا، والتزم بما أقسم عليه حتى مات مقتولًا في عهد عمر، قُتل بالشام، وكان قد انتقل للعيش هناك، بعد فتحها.

لم يكن قلق الأنصار ولا عتبهم نابعًا من أن رسول الله ميَّز أهل مكة في توزيع الفيء، سواء منهم من لم يعتنق الإسلام بعد أو من اعتنقه حديثًا جدًّا. كان أهل يثرب من ذوي الثراء أو من أصحاب اليسر المادي، وما كانوا يعولون كثيرًا على ما يرد إليهم من الفيء، لكن موضوع الفيء فجَّر الكثير من المخاوف المكتومة داخلهم، ولعل النبي كان أكثر من يدرك ذلك، وحرصه على الاجتماع بهم، ومخاطبتهم على النحو الذي ورد، يكشف أنه كان مدركًا تمامًا لأسباب وكوامن القلق العميق لديهم.

كان لدى الأنصار قلق من أولئك المكِّيين الذين وفدوا على الإسلام متأخرًا، ومن أولئك الذين لم يفدوا عليه بعد لكنهم انخرطوا في جموع المسلمين وشاركوهم الحرب، فلم تكن النفوس صافية بين الطرفين، وبوضوح أخير كان الود مفقودًا بين الأنصار وأولئك المكِّيين، لأسباب تاريخية مضت وما زال بعضها مستمرًا وفاعلًا، ولم يكن من السهل على العرب من أبناء القبائل نسيان الماضي بسهولة.

الهزيمة الحقيقية لقريش أمام النبي والإسلام لم تكن يوم «بدر» كما يتصور بعضنا، ولا حتى يوم فتح مكة، لكنها كانت يوم أن احتضن أهل يثرب (الأنصار) الإسلامَ والنبي، لقد ظل رسول الله في مكة يدعو الناس لمدة ١٣ سنة، وطوال هذه المدة لم يظفر إلا بأقل من مائة مسلم، وكانت أساليب الحصار حوله قوية من سادات قريش، ولمزيد من التأكيد لم يكن الهاشميون أقل رفضًا للدين الجديد من غيرهم، ولما حاول رسول الله أن يخرج من هذا الحصار، وذهب إلى الطائف يعرض الأمر عليهم، كانت النتيجة سلبية تمامًا، اختار الطائف لأنها كانت موازية من حيث الأهمية لمكة وأهلها، مدينة زراعية، متقدمة ومحصنة، ولديها بيت ديني لإلههم «اللات» يقال إنه كان في نفس أهمية «الكعبة»، لذا رفضوا بحدة دعوة النبي، وتعرض للإيذاء البدني منهم، وفي لحظة بدا أن الأمر يسير بالنبي في طريق مسدود، لكن وسط هذا كله تأتي الانفراجة الكبرى من يثرب، هكذا دون أن يتوجه إليهم أو يدعوهم، جاء إليه عدد منهم سمعوا بالدين الجديد وتفهموا بعض ما وصل إليهم عنه، وهكذا جاءوا إلى النبي ليتحققوا ويتأكدوا مما سمعوا ويزدادوا إيمانًا، وكانت النتيجة أن زاد اقتناعهم وآمنوا بالدين الجديد، ثم ذهبوا لينشروا ويبشروهم بذلك الدين داخل مدينتهم، ثم تطورت الأمور على النحو المعروف، من هجرة بعض المسلمين من مكة إلى يثرب، ثم كانت هجرة النبي إليهم ومعه أبو بكر الصديق، فانتقل الدين الجديد ونبي الله إليهم، كان الخروج من مكة هو الانتفاء التام لفكرة قريش في القضاء على الدين الجديد وفي التخلص من النبي بأي طريقة كانت، قبل الهجرة كان من الممكن في تصورهم القضاء نهائيًّا على النبي، حتى لو وصل الأمر إلى القتل، وقد طلبوا ذلك من آل عبد المطلب أن يسلموا إليهم محمدًا يقتلونه ويسلموا لهم أي شاب

آخر من قريش يريدونه يكون ابنًا بديلًا لآل عبد المطلب، وكان ميسورًا لهم اضطهاد المسلمين ومطاردة كل من يريد الانضمام إلى الدين الجديد، أما في يثرب فقد خرج الأمر نهائيًّا من يدهم، وأكثر من ذلك أن طريق تجارة مكة إلى الشام ذهابًا وعودة يمر قريبًا من يثرب، وهنا يمكن للنبي وللمسلمين اعتراض قوافلهم وتهديد تجارتهم، وتلك كانت الهزيمة الأولى الكبرى لهم أمام الإسلام والنبي.

وقد تباينت آراء المؤرخين والمستشرقين في فهم دوافع أهل يثرب في الاحتفاء بالنبي والدين الجديد والمسلمين، قالوا إنهم شعروا بالضعف في يثرب بإزاء اليهود الموجودين قريبًا منهم في تجمعات سكانية قوية وثرية، فأرادوا الاستقواء بالنبي وبالدين الجديد، وقالوا إنهم أرادوا أن تبرز مدينتهم في الجزيرة العربية وتصبح موازية في الأهمية والقوة الروحية لمكة، غير أن حوادث التاريخ أثبتت أنهم تحركوا بدافع الإيمان الحقيقي والصادق بالدين الجديد، وأنهم كانوا الأكثر إخلاصًا وصدقًا في التعامل مع هذا الدين واحترام قيمه وسلوكه، مثلًا عقب وفاة النبي ارتدت العرب، كانت مكة من أكثر المواقع ارتدادًا، لكن يثرب ظلت على صلابتها وتمسكها بالدين.

وكان أهل يثرب يدركون حرج الموقف، موقفهم هم مع مكة وأهلها، لذا ناصروا النبي واعتنقوا الدين، لكنهم حاولوا أن يتجنبوا منطقة النزاع بين النبي والمسلمين من جانب وأهل مكة من جانب آخر، لذا حين تهيأ الرسول للخروج إلى غزوة بدر الكبرى، لم يخرج الأنصار معه إلى القتال، وخرج المهاجرون فقط، وهذا ما يفسر قلة عدد المقاتلين المسلمين في تلك المعركة، كانت حجتهم في عدم الخروج أنهم اشترطوا أن يدافعوا عن النبي إذا هوجم، لكن في «بدر» كان المسلمون هم الذين في طريقهم للهجوم، وتفهم رسول الله ذلك الموقف، لذا لم تجد عقابًا ولا انتقادًا من الوحي لهذا الموقف، ولا عاتبهم الرسول قبل المعركة ولا بعدها، في غزوة أحد اختلف الأمر، كانت قريش هي التي قررت الهجوم على المسلمين وعلى النبي انتقامًا لقتلاهم في «بدر»، وهكذا كان الرسول في حالة الدفاع، لذا خرجوا إلى القتال معه، وكانوا أغلبية في الجيش، كان جيش قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب، وحين تواجه الجيشان، وقبل بدء القتال، وقف أبو سفيان يخاطب الأنصار وحدهم قائلًا لهم: «يا معشر الأوس والخزرج، خلوا بيننا وبين بني عمنا وننصرف عنكم»، وهكذا دعوة مباشرة لهم أن يتخلوا عن النبي وعن المهاجرين، وألَّا ينظروا إلى الأمر على أنه دين واعتقاد، بل مسألة القبيلة والأهل، «بني عمنا»، أي أننا أولاد عمومة، اخرجوا أنتم من الأمر كله، فرفضوا هذا بالمرة. وطبقًا للرواية السابقة، كما وردت في «السيرة الحلبية»: «شتموه أقبح شتم، ولعنوه أشد اللعن»، والباقي معروف، لقد خاضوا المعركة وقاتلوا ببسالة، وجاء رد قريش عليهم، ومحاولة الانتقام، طبعًا أغرى قريشًا بذلك انتصارهم السريع في «أحد»، فتصوروا أنهم سيواصلون للقضاء نهائيًّا على النبي وعلى من حوله. إذ تواصلوا مع بعض القبائل في منطقة الجزيرة العربية، وكوَّنوا تحالفًا ضخمًا، وقرروا حصار المدينة نفسها، أي إسقاط مدينتهم

وتدميرها، طبعًا المستهدف في المقام الأول هو الرسول والمسلمون، وهم كانوا من المسلمين، لكن الحصار الأكبر ضد مدينتهم، لذا ففي أثناء هذا الحصار كان رسول الله قد تفاوض مع بعض رموز الحصار كي ينصرفوا عن المدينة مقابل بعض الامتيازات الاقتصادية والمادية يمنحها لهم، وعرف الأنصار بالأمر، كان النبي يريد إنهاء الحصار حول المدينة وتجنب خوض الحرب وإراقة الدماء، خاصة أن القتال إذا حدث هذه المرة، فسوف يمتد ـ على الأغلب ـ إلى داخل المدينة، وكان النبي يتجنب حرب المدن، «بدر» وقعت في الصحراء وكذلك «أحد»، وحتى الغزوات الصغيرة، كلها جرت في الخلاء وخارج التجمعات السكانية، وعرف الأنصار بالأمر، فذهبوا إلى رسول الله يعترضون على هذا الاتفاق، الذي كان المحاصرون من الأحزاب قد وافقوا عليه، كانت حجة الأنصار أن موقفهم أقوى وأنهم قادرون على الصمود ومواجهة الخصوم، بإزاء هذا الإصرار أدرك أطراف الحصار أن حصارهم قد يطول ولا يحققون شيئًا، أما إذا بادروا بالقتال، فإنهم على أرض غير أرضهم، والمدد بعيد عنهم، لذا فإنهم خاسرون في الحالتين، أدى ذلك إلى تفسخ التحالف الذي شكلته قريش، وانتهى الحصار سلمًا ودون أن يتحمل المسلمون شيئًا.

انتهى الحصار بهزيمة جديدة ومجانية لقريش، لكن كان معنى الحصار أن العداء صار مع المدينة ذاتها ومع أهلها، ولم تعد قضية مكية أو قرشية خاصة، لا الأنصار نسوا ما حدث ولا القرشيون تناسوا هزائمهم المتكررة أمام الأنصار، خاصة وأن في كل الحروب كان معروفًا أن الأنصار هم الأكثر عددًا في المعارك التي خاضها النبي وهم كذلك الأشد استبسالًا في الدفاع عن النبي وعن الإسلام والمسلمين، وكان آخرها غزوة حنين، فحين أرتج الأمر على المسلمين في بداية المعركة بعد الهجوم المباغت الذي تعرضوا له في الوادي من مقاتلي مالك بن عوف طلب الرسول من عمه العباس أن ينادي تحديدًا على الأنصار وعلى مقاتلي الخزرج تحديدًا، وهنا ثبتت فروسيتهم وبطولتهم في القتال.

كان لدى رسول الله علم مؤكد بشأن مشاعر الأنصار تجاه القرشيين والعكس أيضًا، وضح ذلك يوم أن توجه النبي بجيشه إلى مكة ليفتحها، كان هدف النبي أن يدخلها دون قتال، وأن يتجنب سفك الدماء، ليكسب قريشًا ومكة في النهاية، لكن بلغته مقولة سعد بن عبادة سيد الخزرج وقائدهم وكان على رأس مقاتليه: «اليوم تستباح الحرمة»، وهذا يعني أنه كان يريدها مذبحة داخل مكة، وانتقامًا من كل ما سبق، ولذا قام النبي بعزله عن القيادة، ثم جاء توزيع الفيء، بعد حنين، ليطرح على الأنصار سؤالَ المستقبل، الآن انتهت الأزمة بين النبي وقريش وصالح مكة وصالحته، ثم هو يسترضيهم بالفيء والعطاء الضخم، بالرغم من أن بينهم من لم يعتنق الإسلام أو اعتنقه قبل أسبوعين فقط، فماذا عنهم؟ ما مصيرهم؟ وما مستقبلهم على ضوء ما جرى؟ وكان هناك احتمال أن يغادر نبي الله المدينة ويعود ثانية إلى مكة، وهذا يعني أن تفرغ المدينة من مجدها، ويبقى للأنصار فقط ميراث الكراهية والحقد من المكِّيين «المهزومين» مرارًا أمامهم، ومن غيرهم بين

القبائل العربية، وصل هذا كله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لذا طلب اجتماعًا خاصًّا معهم، هو الذي طلبهم ولم يسمح لغيرهم بالحضور، باستثناء عدد محدود من المهاجرين، ولو عدنا إلى حديث رسول الله معهم، فإنه كان يتجاوز مسألة الفيء، ليتحدث عما قدمه الأنصار للنبي وللدين كله، وماذا أفادهم الإسلام، وكان آخر ما قاله لهم في هذا اللقاء مطمئنًا إياهم: «أنا من الأنصار والأنصار مني»، ودعا لهم ولأولادهم من بعدهم.

هدأت مخاوفهم، وكان الضمان لهم وجود رسول الله بينهم ومعهم، هو يكفيهم، لذا فإن لحظة وفاة الرسول جددت مخاوفهم وزادتها، وجعلتهم يبحثون في مصيرهم ومستقبلهم مع المسلمين، وهكذا راحوا يبايعون سعد بن عبادة، ثم تحول الأمر نحو أبي بكر الصديق، في البداية طرح الأنصار منا أمير ومنكم أمير، لكن أبا بكر وعمر رفضا الاقتراح تمامًا، وكان الرأي أن الأمير يجب أن يكون من قريش، وطرح الصدِّيق نظرية أو مقولة: «منا الأمراء ومنكم الوزراء»، فقبلوا ذلك بحب وطيبة حقيقية. قد يرى البعض أنه لم يكن أمام أهل المدينة بديل آخر، فقد أبدى أبو بكر وعمر وأبو عبيدة تماسكًا وإصرارًا شديدين، فضلًا عن أنهم الصحابة الأقربون إلى رسول الله، ومن خلفهم المهاجرون والقرشيون، وهكذا لم يعد هناك سوى سعد بن عبادة والمقربين منه، وما كان ممكنًا أن يبادر الخزرجيون لحظة وفاة رسول الله إلى إحداث فتنة أو شق للصفوف، فيبدون وكأنهم لم يعتنقوا الإسلام، بل أيدوا شخص النبي فقط، وهنا ينطبق عليهم قول أبي بكر الصديق: «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، وما كان لهم أن يظهروا بهذا المظهر أيًّا كان الأمر، يحسب لهم أنهم لم يحدثوا فتنة ولا انشقاقًا. إنهم لم يطالبوا حتى بأن يكون الوزراء منهم، كما وعدهم أبو بكر الصديق. كان عزاؤهم أن السلطة صارت داخل المدينة، سواء في وجود رسول الله، ثم في الخلفاء من بعده، حتى عصر عثمان بن عفان، بعدها خرج الأمر من الجزيرة العربية كلها، وصار مقر الخلافة بين الكوفة في العراق حيث علي بن أبي طالب، أو دمشق حيث معاوية بن أبي سفيان، وتراجعت أهمية المدينة سياسيًّا، وإن ظلت لها القيمة الروحية والتاريخية إلى يومنا هذا.

يوم وفاة الرسول ولحظة ثقيفة بني ساعدة، رفض سعد بن عبادة الخزرجي أن يبايع الخليفة الأول أبا بكر الصديق، وقال: «لن أبايع قرشيًّا أبدًا»، وعدَّه يومها عمر بن الخطاب رمزًا للفتنة، كان هذا التعبير كاشفًا عن أن في النفس رفض عميق تجاه قريش والقرشيين، وقد التزم سعد بما تعهد به، وهكذا لم يبايع الصدِّيق طوال خلافته، كما لم يبايع عمر بن الخطاب عقب وفاة الصدِّيق، وغادر الجزيرة العربية كلها، وعاش في الشام، وهناك وُجد مقتولًا، وتكتفي كتب التاريخ بالقول إن الجن قتله، أي لا يوجد قاتل!

كان الضمان لأهل يثرب وجود نبي الله بينهم، وقد دفعوا ثمن حبهم وإخلاصهم للنبي ولأهل بيته بعد ذلك، حيث نالهم عقاب وغبن بعض الخلفاء، لكن، إلى يومنا هذا تعيش المدينة على مجد

استضافتهم للنبي وإقامته بينهم، هو والمسلمين الأوائل من المهاجرين، ويذكر لهم التاريخ ذلك بإجلال وتقدير.

لم يكن الأنصار، ومجموعة سعد بن عبادة «الخزرجي» وحسان بن ثابت، وحدهم العاتبين، كان هناك عتاب آخر على النبي، ربما أشد، بين المهاجرين، ولكن صامت ومكتوم، حبًّا وكرامةً لرسول الله، فضلًا عن أنهم يعتبرون أنفسهم خاصَّةَ النبي وآله، بحكم أنهم أول من استمع إليه وصدقوا دعوته وآمنوا بالدين الجديد، لكن أصحاب النبي ما اعتادوا أن يخفوا عنه أمرًا أو يكتموا عنه شيئًا، وما اعتادوا أن يتركوا تصرفًا يصدر عن الرسول دون استفسار أو تساؤل، حتى لو تعلق الأمر بخصوصيات النبي في حياته وأموره الشخصية، بحث ذلك العتاب عن عنوان يحدده واسم يشخصه، فكان جعيل بن سراقة هو العنوان والموضوع، حمل العتاب بهدوء إلى النبي سعد بن أبي وقاص الصحابي الجليل، المقرب إلى النبي وأحد الذين يضع ثقته بهم، لم يكن لدى سعد مطلب خاص ولا أمر شخصي، هو واحد من أولئك الذين شعروا بغصة من ضخامة المنح النبوي إلى أعيان مكة ووجهائها.

أما جعيل بن سراقة فهو واحد من عموم الناس، يرد اسمه في بعض المصادر العربية والإسلامية باسم «جعال»، اعتنق الإسلام مبكرًا، وشهد مع النبي غزوة أحد، وما تلاها من معارك وغزوات، حين تهيأ لموقعة أحد، قال له بعض المسلمين: سوف تُقتل غدًا. لا ندري هل كان ذلك تحريضًا له على عدم خوض المعركة أم استصغارًا لجهده ودوره في القتال. فذهب إلى النبي شاكيًا، لم يكن النبي مطلعًا على الغيب، ولا يعرف مسبقًا نتيجة المعركة، مع ذلك هدَّأ من روعه قائلًا: «أليس الدهر كله غدًا يا جعيل؟»، والمعنى أن الغد لا يعني بالضرورة اليوم التالي مباشرة، بل هو مفتوح، إنه المستقبل كله وقادم الأيام، وفي النهاية الموت حتم على كل إنسان، بل على كل كائن حي.

والواضح أن جعيل كان محبوبًا بين المسلمين، تركوا اسمه جعال وصغروه إلى جعيل، ليس انتقاصًا منه، بل تحببًا وتفكهًا. وحدث في أثناء حفر الخندق حول يثرب أن رآه النبي وهو يحفر بإخلاص والتراب يعفر وجهه وزملاؤه ينادونه جعيلًا ويمرحون، فقال لهم النبي: «اسمه عمرو»، وراح يناديه به ليرفع عنه الحرج، لكنهم ظلوا مُصرين على جعيل، وارتجزوا في ذلك بيتًا من الشعر:

سَمَّاهُ مِنْ بَعْدِ جُعَيْلٍ عَمْـرًا وَكَانَ لِلْبَائِسِ يَوْمًـا ظَهْـرًا

وفوجئوا أنه يردد معهم ذلك البيت، بينما ظل النبي يقول إنه متمسك بالاسم الذي اختاره له، باختصار لم يزعجه الاسم وتقبل بأريحية ومحبة تفكُّه زملائه، إلى هذا الحدِّ كان متسامحًا ومتصالحًا مع الآخرين ومع واقعه كذلك. ولا تكتمل صورة جعيل دون الرجوع إلى ما ورد عنه

في كتب التراجم، سوف نلاحظ عبارات أو جملًا ثلاثًا تتكرر بنصها، وهي أنه كان «رجلًا صالحًا»، وأنه أيضًا كان من «فقراء المهاجرين»، ثم إنه كان «دميمًا وقبيح الشكل». وفي كتب التراجم والأنساب العربية نلاحظ تركيزًا على عدة عناصر، أصل الإنسان، بمعنى حسبه ونسبه، وهنا نلمس الدقة الشديدة في التسلسل، اسم الأب والجد إلى النهاية، والأم والجدة، والخالات والعمات، والأعمام وأبناء العمومة، خريطة أو شجرة نسب متكاملة، تسمح لنا بتفهم الخريطة الاجتماعية والقبلية بتفاصيلها الدقيقة، على طريقة صفحات الوفيات في بعض صحفنا الآن، ثم يأتي عنصر الثروة، قدرها ومصادرها، وما قيل في الحصول عليها وتكوينها، يرد بعد ذلك الشكل والملامح الجسدية، لا يُخفى عيب خلقي، ولم تكن العيوب الجسدية تُذكر للتنمر ولا للمعايرة، كما يحلو لبعض محدودي الخُلق والتربية الآن، بل من باب إقرار أمر واقع وما يترتب عليه، فإن كان ضريرًا أو أعرجَ فلا تتوقع منه أن يكون فارسًا، وهكذا. كان الجاحظ دميمًا وكان يتفكه بدمامته، وكان المعرّي كفيفًا وإن أصابه ذلك بانصراف عن الناس وضجرًا بهم، ومن اللافت أن الجاحظ وضع لنا كتابًا مُهمًا أقرب إلى «قاموس» عن العميان والعرجان والبرصان من الشخصيات المعروفة في التاريخ العربي.

المهم أن جعيلًا كان متصالحًا مع نفسه وظروفه، متقبلًا وراضيًا بما ارتآه البعض مآخذ عليه، لذا لم يصبح اسمه ولا دمامته موضعًا لمضايقته، بل صارت مع فقره دافعًا لتقديره واحترامه وفوق ذلك أنه مخلص في قضية مجتمعه، ويبدو أن هناك من توقع أن يمنحه النبي من الفيء الكبير في «حنين» ما يخفف من فقره، لكن لم يتحقق توقعهم، وهكذا ذهب سعد بن أبي وقاص إلى النبي: «يا رسول الله، أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وأشباههم مائة مائة من الإبل وتركت جعيل بن سراقة».

يبدو أمام المتابع أن سعدًا تحدث في هذا الأمر مع بعض الصحابة، وأن تلك الملاحظة أو ذلك العتب كان تعبيرًا عن رأي عام بين المهاجرين وكبار الصحابة، لذا لم يكن غريبًا أن ابن إسحاق في «السيرة النبوية»، لم ينسب هذا العتاب إلى سعد بن أبي وقاص، بل تركه مفتوحًا ومنسوبًا إلى الصحابة، إذ ذكر أن «قائلًا قال لرسول الله من الصحابة».

جوهر العتاب أن جعيلًا ليس وحده الفقير بين المهاجرين، الحق أن معظمهم كانوا فقراء جدًّا، هؤلاء أناس تركوا بلدهم وبيوتهم وكل ما يملكون وخرج كل منهم مجردًا واغتربوا وعاشوا في ضنك وفقر، يشاركون أهل يثرب في الزراعة ويساكنونهم بيوتهم، بعضهم أقاموا دورًا بسيطة وضيقة تأويهم، قلة منهم من استطاع أن ينهض اقتصاديًّا مثل عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، ويبدو أن أهل مكة استولوا على ممتلكات من هاجر إلى يثرب، حتى أن النبي حين دخل مكة بعد الفتح، اقترح عليه بعضهم أن يعود إلى داره هناك، فقال متأثرًا: «وهل ترك عقيل لنا دارًا». كان عقيل بن أبي طالب، باع دار النبي في مكة، باختصار كان سعد أو غيره الذي فاتح

النبي، كان يريد أن يشير إلى فقر هؤلاء، بينما أعيان مكة لم يكونوا فقراء، كانوا أثرياء ولم يكن لديهم احتياج مادي. كان ثراؤهم في البداية مستفزًا ومصدرًا لتسيدهم وتسلطهم على فقراء المسلمين، والآن بعد هذا العطاء الكريم يزداد ثراء بعضهم، بل يتضاعف، وهكذا ما بين ازدياد الثراء وتضخمه مقابل اشتداد فقر الفقراء.

سوف نلاحظ تعبير سعد بن أبي وقاص عن هؤلاء الأثرياء «وأشباههم» بما يحمل معنى التأفف أو عدم الشعور بالراحة أو التقدير إزاءهم.

ويبدو أن الموقف لدى هؤلاء الصحابة كان أبعد من مسألة الفيء ومئات من البعير والشاء مُنحت إلى أعيان مكة، لم يكن الصحابة في وجود النبي يحفلون كثيرًا بالأموال، لكن كان هناك القلق من ظهور هؤلاء عمومًا في المشهد، صفوان بن أمية وعيينة و... و... هم مهزومون وثبت فشلهم وضعفهم أمام المسلمين في فتح مكة، إذ استسلموا بلا قتال بمجرد أن ظهر لهم جيش جرار، لكن النبي يعاملهم بحنو وتقدير وكأنهم منتصرون ولم يهزموا أو يناصبوا النبي ومن معه العداء، وكأن وضعهم الاجتماعي لم يُمس ولم ينحدر، بل بدا وكأنه يزداد رسوخًا، هل ننسى أن عُمر استل سيفه ليلة الفتح وطلب الإذن من النبي في قتل أبي سفيان، وكانت كل شروط القتل تنطبق عليه، لولا أن العباس عم الرسول تدخل وأجار أبا سفيان؟! عمومًا هذا القلق سوف يتكشف أكثر في السنوات القادمة ويملأ صفحات التاريخ.

النبي كان ثابتًا وواضحًا، رد على سعد بما يشبه رده على الأنصار، قال: «والذي نفس محمد بيده، لجعيل بن سراقة خير من طِلاع الأرض كلها مثل عيينة والأقرع، ولكني تألفتهما ليسلما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه».

عتاب المهاجرين كعتاب الأنصار، انطلق من الأمور الحياتية والدنيوية، قضايا الاجتماع والسياسة والثروة وغيرها، بينما كان رسول الله يتجه في ذلك إلى تثبيت الدين أكثر ونصرته باجتذاب هؤلاء «الكبار» إلى ساحته، فإذا لم يدخلوا، ضمن حيادهم أو عدم العداء، كانت تلك نظرة مستقبلية بعيدة، والحق أنها لم تبتعد أيضًا عن المعاني الحياتية، يكفي أن نتذكر ما قامت به الدولة الأموية دينيًّا وحضاريًّا وثقافيًّا.

وينتهي الموقف عند هذه العبارة البسيطة والواضحة، وهي أن النبي يرى في جعيل الأفضلية ويقدره أكثر، وأنه أفضل عنده من كل هؤلاء، فقط رسول الله لديه اعتبار آخر، وهو أن يكف ضرر هؤلاء عن المجتمع الجديد فلا يصبحون شوكة في الحلق إن لم يسلموا.

وأن يتوقف الحديث معناه أن الأمور اتضحت لديهم وعرفوا تقدير النبي للأمر، عمومًا هذا العتاب صدر من المحبين، الذين في داخلهم ودٌّ وتقدير كبير للنبي، سواء كان عتاب ابن مرداس وحسان بن ثابت وسعد بن أبي وقاص، لكن كان هناك فريق آخر، ما كانوا عاتبين، بل ناقمين، وما كانت لديهم رغبة في الفهم أو الاستماع من النبي، كانوا دخلوا منطقة الرفض والكراهية ولم يكونوا

من خارج البيت، بل من داخله أقصد كانوا من المسلمين.

بينما كان النبي يوزع الفيء وإلى جواره بلال بن رباح يحمل الفضة، اقترب منه أحد المسلمين من بني تميم، اسمه «ذو الخويصرة»، تحدث التميمي إلى النبي هكذا: «يا محمد، قد رأيت ما صنعت اليوم؟»، شعر النبي أنه بإزاء رجل ما جاء شاكيًا ولا عاتبًا، أي ليس لديه مطلب ولا مشكلة خاصة، هو فقط يريد أن يتكلم ولديه ما يود أن يقوله، فمد له حبل الكلام وأعطاه الفرصة قائلًا: «أجل، فكيف رأيت؟»، هنا ردَّ على النبي: «لم أركَ عدلت». قالها ببساطة وسهولة، وبنفس السرعة قال له النبي: «ويحك، إن لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟».

وتختزل رواية أخرى الموقف في أن التميمي، قال: «اعدل يا محمد فإنك لم تعدل»، وكان رد النبي: «إن لم أعدل أنا فمن يعدل؟».

لا نظن أن النبي دهش كثيرًا من هذا الخطاب أو فوجئ به، فقد سمع الكثير بسبب فيء معركة حنين، هو اعتاد من المسلمين أن يعاتبوه، وكان يتقبل ذلك بصدر رحب ويتعامل مع العاتبين بودٍّ حقيقي وأحيانًا بسعادة، ذلك أن العتاب اختراع إنساني للحفاظ على الود وصيانة التواصل بين البشر، وقد يكون العتاب بين شخصين عابرين، صدر عن أحدهما ما ضايق الآخر، حتى لو عن غير قصد، والهدف ألَّا يتحول موقف عابر إلى عراك أو شجار، فما بالنا إذا وقع ما يمكن أن يعكر الصفو بين الأصدقاء والمتحابين، هنا يكون العتاب ضروريًّا لمزيد من الشرح والتفسير وصولًا إلى تلطيف المشاعر وتطييب الخواطر، فلا تتراكم المواقف وتدخل باب العداء أو الكراهية، العتاب عبارة عن نقد مهذب لطيف أو إبداء ملاحظة حول موقف شعر معه العاتب بألم ما أو تصرف ضايقه، عسى ألَّا يتكرر أو يسمع كلمة طيبة تمسح الألم، ولذا كان النبي طوال حياته يعطي متسعًا للعتاب ويتجاوب معه، عاتبته امرأة عجوز بعد أن قال لها البعض إن النبي ذكر أن الجنة لن يدخلها مسنون، فشرح المعنى الذي قصده.

واعتاد النبي أيضا الانتقاد والهجوم، بل العداء والكراهية، وقد واجه ذلك كله، خاصة في مكة حين أعلن لأهلها أنه نبي الله إليهم، وتحمل ذلك كله، كما اعتاد أيضًا بعض المضايقات والسخافات من بعض المسلمين، حادثة الإفك نموذجًا، حين اعتدى بعضهم بلسانه على عرض السيدة عائشة أم المؤمنين، وتحمل صلى الله عليه وسلم صابرًا الإيذاء المعنوي، وأبدى ثقته بزوجته، حتى جاء الوحي مبرئًا لها من كل الترهات والبذاءات التي قِيلت.

لكن أين يقع قول ذي الخويصرة من ذلك كله؟ النبي صلى الله عليه وسلم أنهى الموقف برده الحاسم، لكن المحيطين بالنبي فوجئوا، وربما صُعقوا، من ذلك الخطاب، لم يكن من المتعارف عليه أن يخاطب المسلم نبي الله بنداء «يا محمد»، المعتاد منهم قول: يا نبي الله، أو: يا رسول الله.

في بداية الإسلام كان غير المسلم ينادي: يا محمد، تأسيسًا على أنه لا يعترف بنبوته ولا

بالرسالة، ولم يكن النبي يضيق بذلك، كان متفهمًا، حدث عند توقيع صلح الحديبية أن طلب النبي من علي بن أبي طالب أن يكتب بالنص: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، سهيل بن عمرو»، ورفض سهيل ذلك قائلًا:« لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، بل اكتب اسمك واسم أبيك»، كانت ملاحظة سهيل منطقية، وافق الرسول وأخذ بها دون مراجعة، وأملى النص (الوثيقة) التي بين أيدينا إلى اليوم: «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو...»، لذا فوجئ أصحاب النبي بكلمة «يا محمد» من مسلم شديد التدين، لكن النبي نفسه لم يفاجأ ولم يندهش وإلا لراجعه فيها.

ولم يكن واردًا بين المسلمين أن يخاطب أحدهم النبي بفعل الأمر افعل أو لا تفعل، تأدبًا واحترامًا، لكن التميمي فعلها: «اعدل»، ولا أن يجابهه بما يشبه الاتهام، بل هو اتهام فعلي: «إنك لم تعدل». الأمر يأتي إلى النبي من الله عبر ملك الوحي جبريل، ويبلغ النبي الناس عن الله، وكانت العادة أن يطلب منه المسلم أو يستأذنه، لكن لا يوجه إليه أمرًا ولا يلقي نحوه باتهام على هذا النحو.

تقاليد التعامل مع النبي لم يفرضها هو عليهم ولا هم اخترعوها، بل حددها القرآن الكريم في سورة «الحجرات»، وهي سورة مدنية، في الآية الثانية نقرأ قول الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ»، السورة تقدم للمؤمنين ما يمكن أن نعتبره «بروتوكولًا» وآدابَ التعامل مع النبي.

ألم يكن ذو الخويصرة يعلم هذا؟ بالتأكيد يعرف، يذكر مؤرخو وكُتَّاب السيرة النبوية أنه كان من أكثر المسلمين إقبالًا على الصلاة، ومن أكثرهم صيامًا وقراءةً للقرآن، وبالمعنى النصي والفهم الحرفي، هو لم يرفع صوته على النبي، ولم يجهر له بالقول، لم تحدثنا المصادر عن نبرات صوته وهل كان خفيضًا أو مرتفعًا، ويبدو أنه لم يكن عالي الصوت، بدليل أنه ذهب إلى النبي منفردًا واقترب منه. الذي عاتب النبي في قصيدة شعرية أذاعها بين الناس جعل العتاب قضية عامة، أو كما نقول نحن اليوم قضية رأي عام، والحق أن ذا الخويصرة لم يفعل ذلك، كانت لديه الشجاعة الأدبية أن يذهب إلى النبي ويقول ما شعر به، حتى لو كانت كلمات حادة وقاسية تحمل اتهامًا، ثم مضى.

هو بالتأكيد سمع من النبي كثيرًا أنه إنسان، بشر مثل كل الناس: «ما أنا إلا ابن امرأة تأكل القديد»، وغير ذلك كثير، هو كذلك قرأ سورة «الأحزاب»، الآية ٤٠ منها، تقول: «مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ»، وفي القرآن الكريم عدة آيات تحمل عتابًا من الله تعالى للنبي، الآيات الأولى من سورة «عبس»، نموذجًا، بعض المفسرين ذهبوا إلى أن الوحي قدم ما هو أقسى من العتاب، هذا العتاب الإلهي المتكرر يؤكد المعنى المهم، وهو أن النبي إنسان، فضَّله الله بالنبوة لسمات شخصية وصفات خاصة حميدة، لكنه خارج منطقة نزول الوحي عليه، يبقى في نطاق الحيز الإنساني.

على الأغلب ارتأى التميمي أو اقتنع تمامًا أن توزيع الفيء، على هذا النحو بعد «حنين» أمر يتعلق بشؤون الدنيا وليس من صميم النبوة والتكليف الإلهي، وإلا اختلف الأمر، لذا كان من الطبيعي ـ بالنسبة إليه ـ أن يدلي برأيه وبطريقته التي يعرفها ويجيدها.

رغم حرص التميمي على أن يكون حديثه للنبي مباشرًا، وجهًا لوجه، دون أي وسيط آخر أو طرف ثالث، ليمنع أي تداخل من الآخرين، وقع الغضب بين من استمعوا إلى ما فاه به لرسول الله، كان كبيرًا وصعبًا عليهم، فوجدنا عمر بن الخطاب يطلب من النبي أن يأذن له في قتله، لكن جُوبِه طلبه بالرفض الفوري، كان الرد حرفيًّا: «دعه يا عمر».

أن يطلب عمر قتله، يعني أنه اعتبره كافرًا ومشركًا، ورفْض النبي يعني أنه لم يجد فيما صدر عن ذي الخويصرة كفرًا ولا شركًا، ولم يكن من المعقول أن النبي وقد قَبِلَ كفارًا في جيشه وأجزل لهم العطاء أن يسمح بقتل مسلم لمجرد رأي قاله، حتى لو تجاوز، ولم يكن واردًا والنبي يتبنى قاعدة «ألفة القلوب» ويؤسس لها، أن ينفِّر الناس ويثير الخوف فيهم بالموافقة على قتل مسلم لديه تصور ورأي مختلف في توزيع الفيء أو الغنائم أو لم يقبل بما قام به الرسول.

ولو أنه رأى في قول ذي الخويصرة ذنبًا أو معصية لاستتابه أو أمر بتعزيره، أما أن يتركه فهذا يعني أنه لم يجد فيما قاله ما يؤاخذ عليه، ناهيك بأن يعد جُرمًا يستوجب المحاسبة والعقاب.

ولماذا ننسى السماء هنا؟ لو أن الموقف فيه ما يستوجب المحاسبة أو المؤاخذة لنزل وحي بذلك، وقتها لم يكن الوحي قد توقف أو انقطع، ولم تكن الرسالة قد اكتملت بعد. وإذا كان التميمي تجاوز في التعبير فإن مطلب عمر كان ينطلق من الغضب والانفعال.

فهم النبي الأمر على أنه تجاوز أو تعبير غير لائق من ذي الخويصرة، ورد عليه في حينه «ويحك» وهي كلمة صارمة أنهت الموقف مؤقتًا، كان النبي في لحظة «تصفير» المشكلات، مع العاتبين والحانقين، كان يؤسس لمجتمع جديد، أراد له أن يكون متآلفًا ومتحابًا، فضلًا عن أن النبي كان يعرف حالة ذي الخويصرة جيدًا، حين طلب عمر بن الخطاب قتله.

كان عمر يراه حالة فردية، أو مسلمًا أساء وتجاوز، لكن الأمر بالنسبة إلى النبي كان أكبر وأعمق من ذلك.

كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم أن ذا الخويصرة ليس مجرد فرد أو إنسان مسلم اعترض على موقف أو تصرف ما، لو كان الأمر كذلك لتعامل معه بطريقة مختلفة، كأن يشرح له ما غمض عليه، كما فعل مع سعد بن أبي وقاص في الموقف ذاته، أو اتخذ خطوة عملية كما كان مع ابن مرداس، حين أبلغه أبو بكر الصديق بقصيدته، أو كما جرى مع الأنصار إثر كلمات سعد بن عبادة وقصيدة حسان بن ثابت، كلمات ذي الخويصرة لم يكن فيها ما ينم عن رغبة في الاستيضاح أو المعرفة، بل كان يعلن للنبي أن لديه موقفًا وفكرة مكتملة استقرت في ذهنه، وليس لديه استعداد للنقاش حولها أو إعادة النظر فيها، وليس التراجع عنها، بل هو الذي يريد من النبي أن يتراجع ويعيد النظر في التوزيع، ولن تلبث تلك الفكرة في غضون سنوات ليست طويلة أن تصبح أيديولوجيا لها أتباع، وتشق المجتمع كله، ربما إلى يومنا هذا.

كان النبي متأكدًا أن ذا الخويصرة، ليس وحده، بل هو تعبير عن تيار أو مجموعة قائمة بين المسلمين، هو ليس سوى رأس الحربة أو قمة الجبل الطافية وقاعدته غاطسة، لذا قال النبي لعمر بن الخطاب حين طلب الإذن بقتله: «دعه يا عمر، إن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرأون القرآن فلا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»، كان القول لعمر وبحضور كبار الصحابة، ومن بينهم علي بن أبي طالب الذي سيقوم برواية الحديث فيما بعد.

كان النبي يلفت انتباههم إلى ما يدور، وإلى المخاطر المحدقة في قادم السنوات من هؤلاء الذين يحقر عمر وعلي وغيرهما من كبار الصحابة صلواتهم وصيامهم إلى جوار صلاة وصيام ذي الخويصرة ومن معه، إشارة النبي صلاة الله عليه وسلامه هذه تتأكد وتزداد يقينًا، ونحن نقرأ ما يرويه عبد الله بن مسعود: «سمعت رجلًا من المنافقين يومئذ ورسول الله يقدم العطايا، يقول: هذه العطايا ما يُراد بها وجه الله»، وقد أكد الواقدي في «المغازي والسير» أن صاحب هذه المقولة هو معتب بن قشير، وكان مثل ذي الخويصرة صحابيًّا، ولعل ابن مسعود لم يقصد رمي معتب بالنفاق بمعناه المباشر، ذلك أن المنافق، حرفيًّا، هو من يخاطب رسول الله بكلمات طيبة، ثم يقول نقيضها مع أقاربه ورفاقه، معتب لم يكن كذلك، بل قال كلامًا قاسيًا، ولا نعرف أنه قال عكسه، هو أيضًا من الذين شاركوا في غزوة بدر، وكذلك غزوة أحد، أي من الذين أسلموا مبكرًا، الحق هو من أولئك الذين شخَّص النبي حالتهم بدقة في حديثه إلى عمر بن الخطاب.

يكمل عبد الله بن مسعود أنه صمم على أن يبلغ النبي بما سمعه من معتب، وما إن ذكر له الأمر حتى تألم النبي، يقول عبد الله: «تغير لونه، حتى ندمت على ما صنعته، فوددت أني لم أخبره». المهم لدينا كيف كان تعامل النبي مع هذا الذي نقل إليه صدقًا؟ يقول ابن مسعود إن النبي تحدث:

«رحم الله أخي موسى، فقد أوذي أكثر من هذا».

الإشارة النبوية هنا إلى نبي الله موسى وما ناله من أتباعه، عدَّ النبي قول معتب إيذاءً، لكنه متوقع، وتقبله بصبر وتسام وتسامح.

كانت العادة في الدائرة المحيطة بالنبي أنه إذا صدر من أحدهم قول أو فعلٌ ما يتصور أنه ليس موضع رضا النبي أن يهرع إليه، فيما يشبه الاعتذار، مفسرًا وموضحًا تصرفه أو ما صدر عنه من كلمات، أما ذو الخويصرة ومعتب فقد مضى كل منهما وكأن شيئًا لم يحدث، كأن كلًّا منهما لم يقل شيئًا، لم ينزعج أيٌّ منهما من أنه أحدث إيذاءً نفسيًّا للنبي وللمحيطين به.

كان النبي قد استقبل من قَبْل بعض المسلمين على هذه الشاكلة، أرادوا التزيد في الدين، عرضوا أن يصوموا طوال السنة وطوال العمر، وليس شهر رمضان فقط، وأن يقضوا الليل كله صلاة، فنهاهم عن ذلك تمامًا، لأن دين الله أعمق وأجلُّ، وليس صلاة وصيامًا ولا قراءة القرآن فقط، هناك أدوار أخرى في الحياة، العمل والكد، ولكن يبدو أنهم لم يتفهموا معنى التوجيه النبوي، وكانت كلمات ذي الخويصرة ومعتب كاشفة ومؤكدة. في قادم السنوات سيكون ذو الخويصرة من رؤوس الخوارج قتلةِ عثمان وعلي والذين حاولوا قتل معاوية بن أبي سفيان فأصابوه إصابة ليست قاتلة.

وعمومًا في أي مجتمع، إذا وجد إنسان نفسه في مشكلة أو استشعر ظلمًا أو غبنًا وقع عليه، ثم أعلن قضيته وأعلم الآخرين بها، أو حاول جعلها قضية «رأي عام» فهذا يعني أنه يريد حلًّا أو ترضية ما، بل ينتظر ما نسميه نحن، في مصر، جبر الخاطر، في العصر النبوي وما قبله كانت القصيدة الشعرية وسيلة الإعلام الأوسع انتشارًا. أما إذا لم يعلن الأزمة أو المشكلة وراح يتداولها همسًا مع مجموعة المقربين أو المشايعين له، فهذا يعني أنه يعد لأمر آخر أو يشكِّل جماعة سرية تذهب إلى الانتقام أو التدمير والهدم من الداخل، على الأقل تتجنب المجموع وتتمرد عليهم. هذا ما جرى حرفيًّا من ذي الخويصرة ومن معه، في لحظة معينة من التاريخ طفوا على سطح الأحداث باسم الخوارج، يقتلون ويدمرون بلا رادع ولا ضمير.

يهمنا هنا عدة أمور:

أولًا: أن نبي الله خوطب بكلام غير لائق وحاد، ومع ذلك لم يكفِّر أصحاب ذلك الكلام، ولم يسمح باتخاذ إجراء عقابي بحقهم، ولا موقف عدائي منهم، لكنه طلب من المقربين له الانتباه، حتى لا يتحول الكلام إلى فعل، ولما صار فعلًا جرت مقاتلتهم من علي بن أبي طالب، ثم معاوية بن أبي سفيان ومن خلفه من أمراء بني أمية، والمعنى هنا أن نبي الله له كل الحب والاحترام، لكن القداسة لله وحده سبحانه وتعالى.

ثانيًا: صحابة رسول الله لم يكونوا نمطًا وحدًا، ولا كانوا كما يتصور البعض نسخة واحدة مكررة، كان داخلهم التعدد وفيهم التنوع، وقد أثبت التاريخ ذلك، لم يكن الصديق رضي الله عنه وعمر بن الخطاب نسخة واحدة، كل منهما له تميزه وتفرده، وهكذا الحال بالنسبة إلى سائر

الصحابة رضوان الله عليهم جميعًا، الممارسة السياسية لابن الخطاب ليست هي نفس ممارسة عثمان بن عفان. وبالتعريف، فإن ذا الخويصرة التميمي يعد صحابيًّا، إذ صاحب رسول الله، وكذلك معتب بن قشير، وقد سمح رسول الله بهذا التعدد والتنوع، ليس هذا فقط، بل قَبِل به ولم يرفضه، وهذا يعني أن الدين نفسه لا يرفض، التعدد والتباين ضرورة اجتماعية وإنسانية، فضلًا عن أنها ضرورة دينية أيضًا. رفض رسول الله اتخاذ أي إجراء عقابي ضد التميمي ومعتب، ويؤكد إقراره وإيمانه بالتعدد والتباين، لكنه حذر من أن يتحول ذلك إلى انشقاق واستقطاب.

ثالثًا: إن الدين ليس عبادات فقط، ولا طقوسًا مقدسة تستغرقنا بذاتها ولذاتها، إنما الدين المعاملة، وكم من أناس يحقر عمر بن الخطاب صلاته وصيامه إلى جوارهم، ويقرأون القرآن لا يجاوز حلوقهم، أي لا يمس شغاف الروح ولا يهذب النفس، ولعلنا سمعنا بيان فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب من مسجد الروضة في «بئر العبد» بعد مذبحة المصلين التي نفذها فلول الإخوان في صيف سنة ٢٠١٨، حيث استشهد فضيلته بواقعة ذي الخويصرة وحديث النبي صلى الله عليه وسلم إلى عمر بن الخطاب، أي أن ما عاناه المسلمون الأوائل نعانيه نحن اليوم. باختصار نحن في مواجهة مع أحفاد ذي الخويصرة.

رابعًا: يضعنا ذلك مباشرة، فيما بات يطلق عليه اليوم كثير من العلماء والباحثين التدين المغشوش أو الزائف والشكلي، أولئك الذين حصروا دين الله في صيام السنن (الإثنين والخميس)، أو ترك العمل وتعطيل مصالح الآخرين بادعاء إقامة الصلاة، أو أداء العمرة سنويًّا، كل هذا طيب لكن على أن يترافق معه تجنب الغش والكذب والرشا والفساد وإيذاء الآخرين. في قضايا الفساد، هناك عدة قضايا بعضها فصل فيها القضاء، وبعضها ما زال أمام القضاء، كانت رشاوى لتمرير أشياء بالمخالفة للقانون، وكانت الرشوة «عمرة» مدفوعة بالكامل والإقامة في فندق خمس نجوم بالأراضي المقدسة والعودة بهدايا للأصدقاء والأقارب من الراشين، ونسي هؤلاء أن الله طيب لا يقبل إلا كل ما هو طيب.

خامسًا: أن باب المزايدة الدينية بلا سقف، إذا فُتح فلا آخر له، ولا أحد يتوقف عنده، معتب بن قشير بدأ المزايدة على رسول الله متهمًا إياه بأنه لم يقصد وجه الله في التوزيع! والآخر اتهمه، صلوات الله عليه، بعدم العدل! ترى كيف يكون أي مسلم آخر عندهم وفي نظرهم؟ لذا لا يجب أن نندهش من أن أشباههم وأتباعهم هم من قتلوا عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، هذا باب يجب أن يغلق، لأنه ينتهي، كما نبهنا رسول الله، بالمروق من الدين أو العنف والإرهاب، وهو أيضًا مروق من الدين والإنسانية، لذا لا يجب أن نندهش من أن بعضهم حاليًا انتهى إرهابيًّا مرتزقًا لدى من يدفع ويموّل، أو يكفِّر الآخرين.

قد لا يتوقف القارئ المعاصر، أمام مسألة توزيع فيء حنين في «الجعرانة» فقط، مما يلفت الانتباه أن أولئك الذين عتبوا أو امتعضوا من بعض جوانب التوزيع، وهم من الأنصار والمهاجرين وغيرهم، لم يتوقفوا بالمرة أمام اشتراك أعداء الأمس وبعض الذين لم يعتنقوا الإسلام في المعركة، لم نجد عتابًا يصدر عنهم ولا غضبًا أن كافرًا يقاتل معهم وإلى جوارهم في الجيش نفسه، إنهم تعاملوا وكأن الأمر عادي جدًّا لا غضاضة فيه، لو شعروا بأي غضاضة أو استعصى فهم الأمر عليهم لذهبوا إلى النبي يصارحونه، أما وإن ذلك لم يحدث، يصبح الأمر عاديًّا تمامًا لديهم؛ اشتراك «كفار» في جيش يقوده رسول الله واشتراك عدد من الذين لم يكن مضى بهم سوى عدة أيام على اعتناق الدين.

كثير من الجيوش النظامية «الحديثة» تضع شروطًا للانضمام إليها والالتحاق بها، تتعلق بالمواطنة ودرجة الانتماء وألَّا يكون في تاريخ أو سجل ذلك المتقدم ما يمس الانتماء للوطن الذي يمثله الجيش ويعبر عنه أو يقوم على حمايته، دعنا الآن من الشروط الطبية أو الصحية للمتقدم، فهذه مسألة مفروغ منها. في غير الجيوش النظامية فإن الجماعات أو الأحزاب التي تشكل فِرقًا من المقاتلين أو المجاهدين، تضع شرطًا لازمًا، وهو أن يؤمن الفرد إيمانًا مطلقًا بالفكرة أو الأيديولوجيا التي تعتنقها الجماعة أو التنظيم أو الحزب، وربما يخضع لامتحان بُغية التأكد من إيمانه بالفكرة أو الأيديولوجيا، فضلًا عن الالتزام بمظاهرها كافة. وحتى الشركات أو المجموعات التي تكوّن مقاتلين يحاربون بالوكالة لصالح حكومة بعينها أو شركة ما صاحبة مصلحة، ويكون المقاتل «مرتزقًا» بالمعنى المباشر، فإن هناك شروطًا وكفاءات لا بُدَّ من توافرها فيمن يعملون لديها، رأينا جماعة «بلاك ووتر» في العراق وما قامت به من جرائم بشعة هناك، وجماعة «فاجنر» الروسية في بعض مناطق ليبيا، فضلًا عن عدد من بلدان أفريقيا.

الأمر لم يكن كذلك في العصور القديمة وحتى بدايات القرن السابع الميلادي «الأول الهجري» حين وقعت الحروب في بدايات الإسلام، زمن النبي، كان المطلوب من المقاتل أن يكون فارسًا مقدامًا في المقام الأول، فإذا لم يكن كذلك سيكون عبئًا على الجيش الذي ينخرط فيه، وكانت الحروب مختلفة تمامًا، وكذلك كانت طبيعة الجيوش، لم تكن جيوشًا نظامية ولا محترفة، كان الجيش يتكون مع النداء لمعركة ما، ثم ينفَضُّ ويعود الفرسان إلى حياتهم المعتادة، فور انتهاء المعركة.

وهكذا لم يكن هناك جيش نظامي، فحين كان يستعد النبي أو يتأهب لخوض معركة ما كان الفرسان والمقاتلون يتقدمون، وكان هو صلى الله عليه وسلم يمكن أن يوجه الدعوة إلى مقاتلين معينين للمشاركة، ويصبح ذلك أقرب إلى تكليف يُلتزم به، ما لم يكن هناك عذر شديد، وقد اعتاد

المسلمون الذين أحاطوا بالنبي، منه أنه في كثير من الأمور، مهما كانت دقيقة وعامة، ينحاز إلى الكفاءة في المقام الأول، وليس إلى ديانة من يقوم بالعمل، نعرف جميعًا قصة الدليل الذي قاد رسول الله في الهجرة من مكة إلى يثرب، عبر طريق آمنة تمامًا، هذا الدليل هو عبد الله بن أريقط الليثي، ولم يكن مسلمًا، وقد سلمه رسول الله راحلته وراحلة رفيق الرحلة أبي بكر الصديق، وواعداه في مكان قريبٍ من غار ثور، وجاءهما بعد ثلاث ليالٍ، وسار بهما في طريق ساحلي، بعيدًا عن الطريق الذي يعرفه ويسلكه أهل مكة، وتوقعوا أن يسلكه النبي، كان ابن أريقط كفئًا وذكيًّا، وكان كذلك أمينًا ونزيهًا، أي احترم تقاليد عمله ومهنته، وكذلك التزم بالشروط التي طلبها منه النبي، وأهمها السرية المطلقة والكتمان التام، كان لدى بعض المقربين مخاوف من أن الدليل ليس مسلمًا، ومن ثَم قد يسلِّم رسول الله إلى قريش، لكنه لم يأخذ بتلك المخاوف، وربما لو توقف عندها ما تمت الهجرة. ولم تكن تلك هي الواقعة الوحيدة في السيرة النبوية، هناك وقائع أخرى عديدة.

ويعرف المهاجرون والأنصار كذلك أن نبي الله، في أي عمل أو مهنة، يحترم ويقدر الإنجاز، فالحياة عمل وإنجاز. وفي أثناء حفر خندق حول المدينة للحيلولة دون أن تقتحمها قريش ومن انضم إلى القرشيين، كان رسول الله يتابع بانتظام هذه العملية، في بعض الحالات كان يشارك فيها، وذات يوم رأى فريقًا يحفرون بدأب واجتهاد، وقريبًا منهم البعض ينام، وكان الأمر لافتًا أن يترك هؤلاء العمل وينامون، بالرغم من أن الظرف تقتضي تكاتف الجميع وسرعة الانتهاء من الحفر، فسأل عنهم، قيل له يا رسول الله هؤلاء ناموا لأنهم صائمون، وكان تعليقه صلى الله عليه وسلم: «ذهب المفطرون بالأجر»، أي أن الأجر لمن يعملون وينجزون حتى لو أفطروا، أما الذي يصوم ويترك العمل ويعطل الإنتاج أو يعوق الإنجاز لا أجر له.

ومن يتابع كل الغزوات أو المعارك والحروب التي خاضها النبي، لا يمكنه القول إنها كانت حروبًا دينية، لأسباب تتعلق بطبيعة الدين ذاته ودور النبي، الذي حدده له الله، دوره لم يكن أن يكره الناس على اعتناق الدين والإيمان به، فقط عليه أن يبلغهم بالنص القرآني: «فذكِّر إنما أنت مذكِّر (21) لستَ عليهم بمسيطر»، وقوله تعالى: « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ»، وهكذا إذا كان النبي ليس له أن يُكره أحدًا ولا أن يضغط على إنسان، ولا عليه إن آمن أحد أم لم يؤمن، هذه أمور متروكة لله تعالى ولاختيار الأفراد، في هذه الحالة لا معنى لخوض حرب دينية، ولا يمكن الزعم أن هناك حربًا دينية يجب أن تقوم لنشر الدين أو فرضه على الناس، هذه قضية محسومة نهائيًّا.

بل إن الذين ارتدوا عن الدين زمن رسول الله واتجهوا إلى دين آخر أو عادوا إلى ما كانوا عليه من قبل، لم يحاربهم الرسول ولا عاتب أحدًا منهم، لم يتدخل في هذا الأمر. وحين ادَّعى مسيلمة أنه نبي كان رد رسول الله عليه أن أسماه «الكذاب»، ولذا حين استفحل أمرهم بعد وفاة النبي، وهَمَّ أبو

بكر ليحاربهم اعترض عمر بن الخطاب، متأسيًا بمواقف رسول الله. لكن أبا بكر، وكان رجلَ الدولة، دخل الحرب لأنهم توقفوا عن دفع الضرائب «الزكاة».

وبالعودة إلى وقائع الغزوات وتفاصيل كل غزوة، لن نجد أيًّا منها يمكن أن نعدها غزوة أو معركة دينية، فمعركة بدر الكبرى كانت لسبب اقتصادي ومادي، وذلك أن المهاجرين الذين غادروا ديارهم من مكة إلى يثرب خلفوا وراءهم أموالهم وممتلكاتهم التي آلت إلى قريش واستولت عليها، وقامت بتوظيفها في التجارة، وهكذا كان أبو سفيان عائدًا من رحلة تجارية بالشام إلى مكة، فتحرك المسلمون كي يحصلوا على حقهم في تلك القافلة ويستردوه، ولما استشعر أبو سفيان الأمر، أرسل إلى قريش ليهبوا لنجدته وحماية القافلة، لكنه نجح بدهاء شديد في أن يبتعد عن الطريق الذي كان مقررًا أن يسلكه وذهب إلى طريق آخر. في الصحراء الطرق عديدة، وبالمعنى المصري «المدقات» كثيرة، وما إن شعر أبو سفيان أنه في أمان حتى عاود الإرسال إلى قريش يطالبهم بالرجوع، لكن أبا جهل (عمرو بن هشام) صمم على مواصلة السير ومواجهة النبي لتأديب الذين خرجوا عن طوع قريش. وهكذا وقعت غزوة بدر، وكانت نتائجها، كما نعرف، حلت الهزيمة بقريش. وسوف نلاحظ أن أسرى قريش في تلك الغزوة ظلوا فترة في يثرب، ولم يحدث أن أجبر أحدًا منهم على اعتناق الدين الجديد ولا طلب منه ذلك، وجرى التفاوض للإفراج عنهم وتسليمهم إلى ذويهم، كان الشرط هو دفع الفدية لإطلاق سراحهم، وهو ما تحقق، بمن فيهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله، الذي تصور أن قرابته من النبي سوف تعفيه من الفدية، لكن ما جرى مع الآخرين جرى معه.

ونعرف جميعًا أن غزوة أحد التي تلت «بدرًا» كانت هجومًا من قريش لمحاولة الثأر والانتقام لقتلاهم في «بدر»، وتحقق لهم الانتصار على المسلمين، وهذه المرة كانوا بقيادة خالد بن الوليد. الانتصار في «أحد» أغرى قريشًا بأن تباغت المسلمين حيث هم، ويقوموا باقتحام يثرب عليهم، وكان ما كان، وهكذا لسنا بإزاء حروب دينية، لكنها حروب خاضها النبي دفاعًا وردًا للهجوم. باختصار لأسباب اقتصادية أو اجتماعية وسياسية وقعت الغزوات.

خاضت قريش حروبها ضد نبي الله باعتبارها معركة وجودية، أي إما قريش وإما المسلمون، لكن رسول الله لم يخض حروبًا وجودية، لذا كانت وصاياه دائمًا للمحاربين بعدم إتلاف المزروعات ولا هدم دور العبادة، ولا قتل طفل أو سيدة أو شيخ طاعن في السن، ولا تقاتل إلا من قاتلك أو بدأ القتال معك. باختصار لا تقوم الحرب على سياسة الأرض المحروقة، كما أراد أبو جهل مثلًا بهذا المعنى، فإن الحرب تقتضي بقاء الطرف الآخر وعدم إبادته. الحروب الدينية تقوم على تصور إلغاء وجود طرف نهائيًّا.

في ضوء ذلك كله، لا يصبح غريبًا أن يكون هناك مسلم وغير مسلم، مؤمن وكافر، حيث إن الحرب ليست دينية، والمعيار للكفاءة وللإنجاز، لذا لم يشعر المسلمون الأوائل «المهاجرون

والأنصار» بأي مفاجأة لانضمام صفوان بن أمية بن خلف أحد سادات قريش إلى جيش المسلمين في غزوة حنين وهو ما يزال على كفره وعدم اعتناق الإسلام، لذا لم يتساءلوا ولم يثيروا هذه المسألة لدى نبي الله، اشتركوا جميعًا في المعركة، لكن وقع التساؤل بعد الانتصار، والسبب هو أن هؤلاء نالوا من الفيء القدر الأكبر، ولعلهم تصوروا أن يتساووا معهم.

في كثير من الدراسات العربية ودراسات المستشرقين حول نشأة الفرق الإسلامية، يبرز اسم ذي الخويصرة باعتباره بداية التفرق والتحزب في التاريخ الإسلامي، ويرى كثيرون أن «الخوارج» جاءوا من عباءته، ثم تبعتهم في الظهور بقية فرق الشيعة، ثم المرجئة والمعتزلة والأشاعرة وغيرها، وصولًا إلى أهل السنة والجماعة، لذا نجد الشهرستاني في «الملل والنحل» يسميه «اللعين»، ويعده ابن تيمية من المنافقين، وهناك من عدَّه مرتدًّا لانتقاصه النبي، وتقدم ابن تيمية خطوة وقال حول كلمات ذي الخويصرة للنبي: «مثل هذا الكلام لا ريب أنه يوجب القتل لو قاله اليوم أحد». المؤكد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعدَّه مرتدًّا، ولم يصدر عنه ما يفهم أن ذا الخويصرة مرتد أو أنه كان يبطن الكفر ويعلن الإسلام، وفي زمن الخليفة الأول أبي بكر الصديق، حين انتشر الارتداد، لم يرتد هو، بل شارك في محاربة المرتدين.

الغريب أن أحدًا لم يسأله ولا هو تحدث عن مفهومه للعدل الذي طالب ببنيانه، وما هي جوانب عدم العدل التي رآها في تصرف النبي، هل ساءه أن النبي منح من شاركوا في القتال من المشركين؟ هل انزعجوا من عطاء الرسول لأبي سفيان بن حرب؟ هل توقعوا أن يميز الله قدامى المسلمين في العطاء، تحديدًا المهاجرين والأنصار؟ أم أنهم انتظروا أن يساوي النبي بين الجميع؟ وفي العموم العدل مفهوم نسبي، والتصور السائد بين العرب للعدل حينها قد يكون مختلفًا كثيرًا عن فهمنا الآن وعن تصورات وأفكار زماننا وعصرنا.

بعد النبي حدد المسلمون العدل كأحد الشروط لاختيار أمير المؤمنين أو الخليفة، وعرَّفوا العدل بأن يكون «صاحب استقامة في السيرة، وأن يكون متجنبًا للمعاصي»، مثلًا كان وما زال يطلب من الشاهد، سواء أمام القضاء أو أي مجلس آخر، أن يكون «عدلًا»، والمقصود أن يكون نزيهًا وأمينًا في شهادته، لا يكتم شيئًا منها ولا يخفي جانبًا من جوانبها.

ويبدو أن الأمر عنده لم يكن متعلقًا بالعدل في توزيع الفيء فقط، لكن المسألة كانت أكبر وأخطر من هذا الأمر.

أخطر ما عبَّر عنه ذو الخويصرة أنه قدم اعتراضًا على أحد أدوار النبي والنبوة عمومًا.

يحمل النبي رسالة من الله إلى قومه أولًا، ويكلَّف بإبلاغها، ليس على طريقة حامل رسالة يسلمها إلى من تقصدهم ثم يمضي هو إلى طريقه ويتركهم إلى طريقهم، عليه أن يبلغ الرسالة ويكون مقتنعًا ومؤمنًا بها، وأن يحاول أن يقنعهم بها، ولذا يلقى غالبًا العنت والاضطهاد منهم، كما حدث لأبي الأنبياء إبراهيم، حيث حكم عليه قومه بالإعدام حرقًا، وألقوه في النار فعلًا ونجاه الله منها، إذ أمرها ـ كما ورد في القرآن الكريم ـ أن تكون بردًا وسلامًا عليه، وما جرى للسيد المسيح معروف لنا، وما يتفق عليه الجميع أن المسيح حكم عليه بالصلب وعُلِّق فعلًا على الخشبة، وفي الرؤية

المسيحية أنه صُلِب فداءً للبشر، ويذهب القرآن الكريم إلى أن الله رفعه إليه وأنه لم يصلب ولكن شُبِّه ذلك للقوم، أما النبي محمد فقد تعرض لأكثر من محاولة اغتيال.

هذا عن الخصوم، أمَّا الأنصار أو الأتباع فيكون على النبي أن يقدم لهم نموذجًا عمليًّا للدين في حياته وسلوكه، وفي سبيل ذلك يتعرض لعنت من نوع آخر، وجدنا ذلك مع نبي الله موسى، الذي أرهقه أتباعه بمطالبهم العديدة والصغيرة من الله، السيد المسيح تعرض للخيانة من «يهوذا» وكان من حوارييه، حيث سلمه للخصوم، ولم يكن سيدنا محمد مختلفًا عن أنبياء الله، تعرض لكثير من العنت والمضايقات من بعض أتباعه، وصل الأمر إلى حد المساس بعرض زوجته أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك، ولم يكفوا عن الخوض في هذا الأمر إلا حين برأها الله في القرآن الكريم.

ما قام به ذو الخويصرة ومن معه أنهم يعلنون عدم قبولهم بما قام به النبي في موقف أو إجراء بعينه، هم لم يغيروا إيمانهم، لكنهم يرون أن دور النبي، الذي لا يقبل نقاشًا ولا اعتراضًا يتوقف بالنسبة إليهم عند إبلاغهم بالرسالة وإيمانهم بها، هم يريدون أن ينطلقوا بالدين، بعد ذلك، كما فهموه، بعيدًا عن أفعال النبي أو ما يُسمى «السُّنة الفعلية» أو العملية، بالتأكيد ضاق هؤلاء بموقف النبي في تأليف القلوب وتعامله مع الكفار، حيث لم يجبرهم على اعتناق الإسلام ولا رفع السيف عليهم كي يسلموا، بل دعاهم للمشاركة في الجيش دفاعًا عن مكة، أي ما نسميه اليوم الرابطة الوطنية والمواطنة.

هل يجوز لنا أن نتساءل: هل بدأ بعض المسلمين يضيقون بوجود النبي بينهم، وأن وجوده يمنعهم أو يحول بينهم أن يأخذوا دين الله حيث يريدون هم؟ ويزيد من ضرورة السؤال ما جرى في غزوة تبوك، حيث تشير بعض المصادر الإسلامية أنه صلى الله عليه وسلم تعرض لمحاولة اغتيال في طريق العودة من بعض المنافقين الذين كانوا معه في الحملة، وفشلت المحاولة، كانوا ملثمين، وبالرغم من ذلك عرفهم الرسول، وجه أحدهم تكشَّف وملامح خيولهم عُرفت، لكن الرسول أمر بعدم إعلان أسمائهم، وعدم الإعلان هذا أدى فيما بعد إلى تعدد الاتهامات بين الفرقاء زمن الفتنة الكبرى.

وسوف نلاحظ في التاريخ الإسلامي أن الفِرق والجماعات التي تسمى «راديكالية»، كان جانب من عملها يقوم على محاولة تغييب دور النبي صلى الله عليه وسلم وحصره في أنه أبلغ الرسالة. تغييب دور النبي أو إضعافه دون إلغائه، أي يصبح وجوده رمزيًّا فقط.

يُغيب مرة لصالح نظرية الإمام الغائب أو الإمام المعصوم، وفي ذلك وجدنا العجب أو ما يجاوز حدود الجنون، فبعضهم زعم أن الوحي اتجه إلى النبي خطأ وأنه لم يكن هو المقصود به، وأن إمامهم كان هو المقصود.

ويُغيب حتى يتسنى تكفير الآخرين وقتلهم، بدءًا من المسلمين وليس انتهاء بالمسيحيين. استحدث

الخوارج تكفيرَ المسلم وقتله، وانتهى الحال بذي الخويصرة في صفوف الخوارج.

ويُغيب في عصرنا وفي مجتمعنا كي يتسنى تمرير أكذوبة «الإمام الشهيد» أو فضيلة المرشد العام، وغير ذلك من الألقاب والمسميات.

ونلاحظ أن بعض المتحدثين من تلك الجماعات يستهلون أحاديثهم بقول مأثور لإمامهم أو أحد أئمتهم أو مرشدهم العام مع تجاهل أي ذكر لنبي الله، ليس إنكارًا، ولكن تغييبًا أو تهميشًا.

يمكن أن نلاحظ كذلك أن هذه الفرق والجماعات تتجاهل سيرة النبي وحياته، بينما ينهمكون في إصدار عشرات الكتب والدراسات حول أئمتهم ومرشديهم، سواء كان المرشد العام أو المرشد الأعلى. جماعة الإخوان طوال أكثر من تسعين عامًا لم تصدر كتابًا معتبرًا عن النبي، بينما أصدرت أكثر من مائة كتاب عن حسن البنا، الذي يلقبونه بالإمام الشهيد، وجعلوا قراءة رسائل البنا فريضة على عضو الجماعة، وهكذا الحال بالنسبة إلى سائر الجماعات في زماننا، والحال كذلك بالنسبة إلى بعض الفرق الإسلامية قديمًا، والسبب الخفي أن حياة النبي وسيرته العطرة فيها ما ينسف الكثير من توجهاتهم ومزاعمهم، وفيها ما يصمهم بالإرهاب والإجرام، لن تقرهم السيرة النبوية على قتل الأبرياء ولا على سرقة محال المسيحيين ولا تفجير كنائسهم، هم يريدون كذلك أن يرفعوا أئمتهم ومرشديهم إلى مصاف ومقام النبوة، دون أن يقولوا ذلك مباشرةً، لذا حين يريد القارئ أن يراجع شيئًا عن حياة وسيرة النبي فإنه يرجع إلى سيرة ابن هشام وغيرها من كتب السيرة النبوية، أو أن يعتمد على كتابات المحدثين مثل الدكتور محمد حسين هيكل وأحمد أمين والعقاد والشرقاوي، أولئك الذين يرميهم المتأسلمون، كلهم أو بعضهم، بالمروق.

كانت كلمات ذي الخويصرة واتهامه للنبي بعدم العدل بداية التمرد ولم تكن آخره ولا أشدَّه، هو ومن معه فتحوا الباب لتمرد آخر، كان تمرد ذي الخويصرة بغية التشدد والقسوة في التعامل مع الغير، خاصة من داخل الدين ذاته، أو خلق حالة من الأفضلية والتمييز في التعامل لصالح مجموعة وضد مجموعة أخرى، أقصد ضد المسلمين الجدد وغير المسلمين. التمرد الآخر جاء من الذين دخلوا الدين حديثًا وأرادوا أن يشكلوه وفق مصالح قبائلهم في المقام الأول وأهوائهم، فضلًا عن طموح بعض الأفراد. جاء هذا التمرد من بعض المسلمين خارج مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهو ما سيعرف في التاريخ الإسلامي باسم «المتنبئين» أو أدعياء النبوة، وبعد وفاة رسول الله سيصبح الاسم الأشهر إلى يومنا هذا حركة الرِّدة أو الارتداد.

هل هناك صلة ما بين التمرد في الحالتين؟ نعم، بالرغم ممَّا يبدو مِن تعارض وتباين بينهما في الظاهر، الصلة أن كلًّا منهما لديه طموح وتطلع سياسي ما، يحاول أن يغلفه بالدين والعدل، ذو الخويصرة وسائر الخوارج رفضوا أن تختص قريش وأهلها بالجزء الأكبر من الفيء والغنائم، ثم أن تستأثر بالخلافة دون بقية المسلمين، حيث سادت مقولة: «الأئمة من قريش»، مسيلمة ومن على شاكلته رفضوا أن تستأثر قريش بالنبوة، لذا سعى مسيلمة ومن سار في طريقه أن ينصِّب كل منهم نفسه نبيًّا في قبيلته، وأن يكون لدى كل قبيلة نبيها، ومن ثم لا يجوز أن يكون نبي قريش نبيًّا لهم.

بدأ الأمر من «اليمامة»، ومن الحنفية تحديدًا، والذي حدث أن جاء وفد من اليمامة وفيهم مسيلمة بن حبيب الحنفي، قابلوا النبي كي يعلنوا أمامه الإسلام، جاءوا طوعًا بعد أن سطع نجم المسلمين حول مكة والمدينة، لم يرسل إليهم النبي داعية ولا بعث إليهم مندوبين يبشرونهم بالدين الجديد، وقيل إن مسيلمة لم يذهب معهم عند النبي، إذ تركوه بجوار أشيائهم يحرسها، بايعوا النبي وأكرمهم وأخبروه برفيقهم الذي تركوه مع أشيائهم، كانت العادة أن يتركوا طفلًا أو صبيًّا بجوار الأشياء فيما يشبه حراستها، أو يتركوا شخصًا منهم إذا كان وجوده في اللقاء لن يكون مجديًا ولا مشرِّفًا، أو أن يكون سليط اللسان أو دميم الوجه ممن يثير التشاؤم لدى الآخرين وربما النفور، وكان نبي الله يدرك ذلك جيدًا، لكنه أراد أن يهون عليهم وعلى ذلك الذي تركوه بالخارج فقال لهم: «هو ليس بِشرِّكم»، وأرسل معهم له هدية كالتي قدمها لكل منهم، وسوف يسيء مسيلمة استغلال تلك الهدية التي أرسلها له النبي. وعادوا من حيث جاءوا، ولما وصلوا اليمامة قال لهم مسيلمة، وكان اسمه بين أهله «مسلمة»، إنه أُشرِكَ في النبوة مع النبي محمد، وراح يردد حكاية النبوة تلك، وكانت لديه قدرة على السجع والتأليف، فراح يؤلف لهم مقطوعات يقلد فيها بعض قصار السور في القرآن مثل: «والليل الأطحم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أسيد من محرم»، وتحفل كتب التراث بالكثير من هذا السجع الركيك، والكلمات المرصوصة فقيرة المعنى عديمة الأفكار.

لم يقف مسيلمة عند هذا الحد، بل بعث رسالة مع اثنين من أتباعه إلى نبي الله محمد بن عبد الله، ويبدو أنه كتب تلك الرسالة تحت ضغط أتباعه ليتأكدوا من صدق ادعائه، فقد زعم لقومه أن محمدًا يقر له أنه شريك له في النبوة، لذا بدأ رسالته هكذا: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: سلام عليك، أما بعد فإني قد أُشركت في الأمر معك، وإنا لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قوم يعتدون»، قرأ النبي الرسالة وسألهما: «فما تقولان أنتما؟»، يريد أن يتأكد هل هما من أتباع مسيلمة يرددان أقواله أم أنهما يحملان الرسالة فقط، وكان ردهما: نقول كما قال. وكان رد النبي: «أما والله لولا أن الرسل لا تُقتل لضربت أعناقكما».

وأرسل النبي معهما الرد التالي: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

كان ذلك في العام العاشر للهجرة بعد حجة الوداع، وقبل أن يدخل النبي في مرضه الأخير مباشرة، ومن يومها صار «الكذاب» اسم مسيلمة في التاريخ، وتذهب دراسة حديثة أن اسمه «مسلمة»، وأن الرسول سماه «مسيلمة» للتصغير وللتهكم، ويبدو أن النبي أرجع الأمر إلى عدم تعمق أهل اليمامة في الدين، فأرسل إليهم من يفقههم، وهو الرَّجال بن عنفوة، وكان قارئًا للقرآن الكريم، فقيهًا في أمور الدين، يثق به النبي، لكنه ذهب إليهم وشهد أمامهم أن النبي أشرك معه مسيلمة في النبوة، ولذا صدَّق الكثيرون من أهل اليمامة مسيلمة، وازدادوا ثقة به واتبعوه بعد أن انضم إليه موفد النبي وصار الرَّجال متحكمًا في مسيلمة، وصار أخطر منه في التأثير على أهل اليمامة.

كان مسيلمة يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وهذا ما جعل أهل اليمامة يتقبلون ما يقول به، لكنه كان يرى أن النبي من قريش ويجب أن يكون نبي قريش فقط، أما قبيلته «اليمامة» هو نبيها مرسل إليهم، يضاف إلى ذلك أنه خفف عنهم بعض القيود والالتزامات الدينية، حيث أباح لهم شرب الخمر وتخفيف الصلاة لتصبح ثلاث مرات في اليوم بدلًا من خمس، وهكذا.

تذهب بعض الدراسات إلى أن ادعاء مسيلمة النبوة كان منذ سنوات، ربما قبل البعثة والنبوة المحمدية، لكن لم يثبت ذلك على وجه اليقين، وذهب بعض المؤرخين المسلمين مثل ابن خلدون إلى أن مسيلمة أعلن التنبؤ قبل هجرة رسول الله من مكة.

في الوقت ذاته ظهر متنبئ آخر في اليمن هو الأسود العنسي، كان كاهنًا قديمًا، ادَّعى النبوة وطرد عمال النبي، خاصة معاذ بن جبل، وصاح في أهل اليمن أنه لا يجب أن تحكمهم قريش، واستفحل أمره، حتى وصل منطقة نجران. اعتمد الأسود على تأثيره المعنوي في الناس، وبنى قوةً عسكرية قوامها سبعمائة فارس، فأرسل معاذ إلى النبي يخبره بأمر تلك القوة أو الجيش، سبعمائة فارس لم يكن رقمًا هينًا، طالب النبي معاذًا بالتصدي له «غيلة أو مصادمة» والاعتماد على

المسلمين، أي لم يرسل إليه مددًا، ورأى أنها مشكلة داخلية عليهم القيام بها ومواجهتها.

كان الأسود يعتمد على دولة الفُرس، وكانوا يدعمونه في مواجهة المسلمين، عن تصور ساذج أن قريشًا مدعومة من الرومان، ثم انقلبوا عليه لما ازداد عتوًّا وبغيًا عليهم، واكتشفوا سوء تقديرهم لنبي الإسلام، فقتلوه بالاتفاق مع معاذ بن جبل، وعاد الأمر إلى المسلمين، دون الدخول في حرب نظامية.

مناطق اليمن لها طابع مختلف عن بقية الجزيرة العربية، فقد عرفت اليهودية والمسيحية التي كانت أكثر قوة وانتشارًا في بعض مناطقها، وعرفت كذلك الديانة الفارسية القديمة، وديانات عرب الجزيرة قبل الإسلام، ثم الإسلام، باختصار منطقة اضطراب وصراعات دينية ومذهبية، وكل ديانة تقف خلفها قوى اجتماعية وسياسية، ولها الكثير من الأتباع. وقد يفاجأ كثيرون بأن صعود الأسود العنسي وسقوطه استغرق شهرين لا أكثر، وذلك يكشف مدى القلق والاضطراب، فضلًا عن سرعة الحركة، والحال التي كانت عليها تلك المنطقة.

ظهر كذلك طليحة بن خويلد من بني أسد، وتبعه قومه والمناطق المحيطة بها مثل غطفان.

سوف نلاحظ أن معظم المتنبئين في حياة النبي كانوا كُهانًا، والحياة العربية قبل الإسلام عرفت الكهانة والكهان، كما عرفت العرافة والعرافين، كان العرافون يكشفون ألغاز الماضي وأسراره، والكهان يتنبأون لهم بالغيب لذا كان الناس يثقون بهم، إذ كانوا يتنبأون لهم بالمستقبل وما ينتظرهم من خير أو شر، وبتعبير باحث معاصر في هذا الجانب: «كان العرب يعتقدون أن للكاهن القدرة على كل شيء»، ويقول أيضًا: «كانت منزلة الكاهن عندهم في أعلى المراتب... الكهان عندهم هم أهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين».

سوف نلاحظ كذلك أن هؤلاء ظهروا في القبائل والمناطق التي كانت لفترة طويلة تحت تأثير الحكم الفارسي، وهذا ما جعل بعض الباحثين العرب المعاصرين، وكذلك بعض المستشرقين، يذهبون إلى أن الفرس كانوا وراء هؤلاء أو معظمهم لإضعاف الدولة التي كانت قيد التأسيس والإنشاء، خاصة أن دور هؤلاء المتنبئين تركز على رفض سلطة قريش عليهم ورفض مركزية حكم المدينة المنورة، أما في مجال الدين لم يكن لديهم شيء يستحق، ولا قدموا أي جديد.

نلاحظ كذلك أن النبي محمد لم ينزعج كثيرًا من تلك الظواهر، ذكر ابن إسحاق في «السيرة النبوية»، نقلًا عن أبي سعيد الخدري أنه قال: سمعت رسول الله وهو يخطب على منبره وهو يقول: «أيها الناس إني قد رأيت ليلة القدر، ثم أُنسيتها، ورأيت أن في ذراعي سوارين من ذهب، فكرهتهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما هذين الكذابين: صاحب اليمن، وصاحب اليمامة».

من ذلك الحديث ومن الرسالة السابقة إلى مسيلمة، نجد أن النبي استعمل وصف الكذاب والكذابين، ولم يستعمل مصطلح الرِّدة أو المرتدين، وإلى وفاته صلى الله عليه وسلم كانوا مجرد مجموعة من الكَذَبة، طبعًا لا يصح التساؤل ماذا لو امتد العمر بالنبي، كيف كان سيتعامل معهم وما

مصير أولئك جميعا؟ عمومًا في زمن أبي بكر الخليفة الأول سوف يعلنون عن أنفسهم أكثر، ويصبحون تيارًا يريد أن يكتسح المجتمع كله ويهدد الدولة الناشئة، ولذا سوف يخاطبهم الصديق بمسمى «من رجع منكم عن دينه» ويتعامل معهم على النحو المعروف تاريخيًّا ويقضي عليهم جميعًا.

في عام ٢٠٠٦، أصدرت الهيئة المصرية العامة للكتاب، ضمن سلسلة الألف كتاب الثاني، كتاب «المخابرات تحكم العالم»، تأليف إنجيلو كود نيلا، ترجمة محمد صبري الصاوي، لم يجد الكتاب في مصر اهتمامًا كبيرًا على الرغم من عمقه وكثافة المعلومات التي قدمها المؤلف الأمريكي، وكان في الأصل رجل مخابرات عمل في جهاز المخابرات الأمريكية «CIA»، ثم انتقل للتدريس بالجامعة، وهكذا جاء الكتاب من رجل جمع بين الخبرة العملية والبحث العلمي والأكاديمي. خصص المؤلف عدة صفحات بالكتاب للحديث عن العناصر النائمة أو الميتة، التي تجندها أجهزة المخابرات في بلد أو منطقة ما، وفي لحظة يحددها الجهاز أو الدولة التي تقف خلفه يطلب من العنصر التحرك والقيام بما يكلف به من عمليات قد تكون اغتيالًا وقتلًا أو تخريبًا أو إحداث فوضى وقلاقل في الوسط المحيط به، وذهب إلى أن هناك عنصرًا قد ينجح ويؤدي دوره وقد يفشل. دلل الأكاديمي ورجل المخابرات الأمريكي، على النموذج الأشهر في عالم المخابرات للعناصر النائمة باسم «مسيلمة الكذاب»، الذي جندته مخابرات الإمبراطورية الرومانية وسط جزيرة العرب، وفي لحظةٍ دُفع إلى التحرك لإفساد مشروع توحيد الجزيرة مع النبي صلى الله عليه وسلم، وكاد أن ينجح مسيلمة، لكن انتهى أمر مسيلمة ومشروعه على يد أبي بكر الصديق، رضى الله عنه، كما هو معروف تاريخيًّا.

اعتمد الباحث الأمريكي في ذلك على الوثائق والمصادر الرومانية، وأشار إلى أن المعلومة دارجة بين المتخصصين في علوم ومجالات المخابرات.

المصادر الإسلامية والعربية تتحدث عن مسيلمة بوصفه متنبئًا وكاذبًا، ولا نجد لديهم إشارة إلى الدور الروماني في ظاهرة مسيلمة وربما غيره من المتنبئين.

وهناك عدة شواهد تدعونا إلى قبول ما قال به الباحث الأمريكي، ليس فقط لخبرته العملية والعلمية، بل لأننا نعلم جيدًا أن الإمبراطورية الرومانية كانت تتابع بدقة ما يجري داخل الجزيرة العربية، ولديهم إلمام واسع بمجريات الأمور، وجدناهم يستدعون أبا سفيان بن حرب حين كان في تجارة لقريش بغزة إلى ما يمكن أن نعده جلسة استماع هو ومن معه، حول النبي، في بداية الأمر سألوه في كثير من التفاصيل حول شخصية محمد ومكانته الاجتماعية والأسرية، وتساءلوا عن من يتبعونه وبماذا يُنادى بينهم، هذا يعني أنهم كانوا يعرفون ومشغولين بأمر ما يجري في الجزيرة، وإذا كانوا على هذه الدرجة من الاهتمام بينما كان النبي وأتباعه ما زالوا في مرحلة الضعف والمعاناة، فكيف يصبحون وقد فتح الله عليه مكة وبدا أن الطائف في طريقها إلى الإسلام. أما مسيلمة نفسه فإنه لم يعلن تنبؤه بإلحاح وينشط إلا بعد فتح مكة، أي بعد أن أمكن للنبي توحيد مكة والمدينة وصارا معًا قوة واحدة للمرة الأولى، وكان واضحًا أن القبائل والمناطق المحيطة اتجهت

نحو اللحاق بالقوة الصاعدة، وركز مسيلمة جهده في أمرين، الأول: هو الحيلولة دون اكتمال مشروع الوحدة واتساع حدوده بإعادته إلى الحدود المحلية وقصره عليها، والمعنى البعيد هو ألا تتحرك القوة الناشئة إلى خارج الجزيرة العربية، ومن ثَم مزاحمة الدولة الرومانية، خاصة في مناطق نفوذها شمال الجزيرة وفي الشام. الثاني: هو جعل الدين الجديد دينًا محليًّا ضيقًا في حدود قريش، أي في نطاق النبي والمجموعات المحيطة به، لا يتجاوز حدود مكة والمدينة على الأكثر، والاعتراف بدين آخر موازٍ ومنافس للإسلام وهو ما يقدمه مسيلمة نفسه. تحرك مسيلمة نحو هذا الهدف واستمال سجاح المتنبئة واجتذب قومها إليه، ومن لم يجتذبهم سيطر عليهم بالحرب، سوف نلاحظ كذلك أنه لم يبادر نبيَّ الإسلام بالعداء، بل اعترف به نبيًّا وبالإسلام، وطلب اعترافًا مقابلًا من النبي صلى الله عليه وسلم، أي نبي بإزاء نبي ودين أمام دين، نبي لكل منطقة أو قرية، رسول الله لم يعطه وزنًا كبيرًا، ونعته بالكذاب، فلزمه ذلك النعت إلى يومنا هذا، عدم وضوح الأصابع الرومانية في عملية مسيلمة ومحاولة توظيفها لصالحهم جعل بعض الباحثين الغربيين يتعاطفون مع مسيلمة، ويندون بقرار الخليفة الأول أبي بكر الصديق مواجهته عسكريًّا، وقد وجدنا بعض الباحثين العرب يتأثرون بذلك التعاطف، ولنا أن نتساءل: ماذا لو نجحت عملية «الكذاب»؟ بالتأكيد كانت الإمبراطورية الرومانية ستبقى مسيطرة، ومع ضعفها وترهلها الشديد كانت المنطقة ستتجه نحو مزيد من الانهيار.

سوف نجد تحركًا رومانيًّا آخر في التوقيت نفسه، فقد وصل إلى المدينة المنورة بعض الأنباط، سكان شمال الجزيرة العربية، حاليًا محافظة العلا بالمملكة العربية السعودية، ونقلوا إلى المسلمين أن الرومان أرسلوا قوات إلى منطقتهم، ولما تواترت المعلومات على هذا النحو نادى النبي بالتجهز للخروج بالجيش وعدم الانتظار حتى يبلغ الرومان المدينة المنورة أو مكة المكرمة، وكانت غزوة تبوك، وقد تخوف بعض المسلمين من مواجهة الرومان ولم يخرجوا مع النبي، وفضلوا البقاء بالمدينة والاستمتاع بفيء «حنين»، فضلًا عن أن الوقت كان صيفًا قائظًا، وقد نزل الوحي يلومهم بشدة في سورة «التوبة»، المهم أن جيش المسلمين حين تحرك إلى هناك تبين أن الرومان لم يدفعوا قواتهم نحو منطقة الأنباط ولا اجتازوا حدود الجزيرة العربية، ونعرف الآن أن الجيش الروماني تعرض لوباء وكان في حالة شديدة من الضعف لا تسمح له بالانتقال إلى داخل حدود الجزيرة، يبدو لنا أنه تم دس تلك المعلومات لتخويف العرب والمسلمين وهزهم معنويًّا، فضلًا عن استنزاف جيش المسلمين في تحرك طويل ومرهق في الصحراء خلال الصيف، وما يترتب على ذلك من توتر واضطراب بين المقاتلين، ما حدث يشبه حكاية الحشود الإسرائيلية على سوريا في مايو ٦٧، فبلعت القيادة المصرية الطعم، مع فارق القياس بين الحالتين. يلفت النظر أن النبي حين وصل تبوك وتخطاها، لم يقابله أي مقاتلين رومان، ولما وصل تخوم الشام لم يتعرض لجيشه أحد، الأمر الذي دفع كلًّا من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب أن يناشدا رسول الله

العودة ثانية، تخوفًا من أن يكون هدف الرومان استدراجهم إلى العمق الشامي، حيث الجيش الروماني بكل قواته وعتاده، بينما كان جيش النبي محدود العدد والعتاد إلى جوار جيش الرومان الإمبراطوري، وفعلًا عاد الجيش وقد حقق مكسبًا معنويًّا مهمًّا، وهو كسر حاجز الخوف والمهابة في نفوس العرب والمسلمين تجاه الرومان أو «بني الأصفر»، كما كان يطلق العرب عليهم، هذه الثقة هي التي جعلت أولئك الذين أصابهم الفزع من مجرد فكرة مواجهة الرومان، يشعرون بالخجل الشديد ويذهبون إلى رسول الله معتذرين وتائبين، وسوف يبني المسلمون على ذلك، خاصةً في زمن أبي بكر وعمر بن الخطاب، حيث تمكنوا من سحق الجيش الروماني وطردهم نهائيًّا من الشام ثم من مصر.

والواضح أن الرومان قرروا مواجهة النبي بالطرق المخابراتية وإحداث الأزمات الداخلية، وهنا نجد نبي الله يتعرض في طريق العودة من تبوك لمحاولة اغتيال غامضة، طلب رسول الله عدم البوح باسم أي من الذين تورطوا فيها، وكان صلى الله عليه وسلم متسامحًا كريمًا، لم يحاسب ولم يعاقب أحدًا، وترك الأمر لله تعالى، وحافظ بذلك على وحدة المجتمع الناشئ، ولم يسمح بظهور ثغرة شك أو ريبة بين المسلمين بعضهم بعضًا، أي لم يتم شق المجتمع وخلخلته، وهنا من واجبنا أن نتساءل: هل كان الرومان بعيدين عن تلك المحاولة وبرآء منها؟ العملية ـ كما وردت بعض تفاصيلها في عدد من المصادر الإسلامية ـ تجعلنا نرى بصماتهم هناك، مكان التنفيذ والطريقة تعني أن هناك مَنْ درس جغرافيا المكان جيدًا؛ مكان شاهق بالجبل وعند منحدر، يُجرى التخطيط لإلقائه صلى الله عليه وسلم من هناك إلى السفح، ولا نظن أن الأفراد، سواء كانوا من مكة أو المدينة، كانت لديهم تلك الخبرة بالموقع، هذا يعني أن هناك من يعرف المكان جيدًا، درس وخطط، ثم أوكل التنفيذ إلى هؤلاء؛ عدد من المنافقين، حتى تبدو العملية وكأنها صراع أو تمرد داخلي، لكن عناية الله تحفظ نبيه وتحميه كما حمته صلى الله عليه وسلم من محاولات اغتيال سابقة، وكما حمت أنبياء الله جميعًا أيضًا. في ذلك الزمن البعيد، وليس في زمننا فقط، لم تكن أصابع الخارج تتوقف عن محاولة العبث والتدمير من الداخل.

اعتبر كثير من المؤرخين والدارسين كلمات ذي الخويصرة التميمي إلى رسول الله، بداية نشأة جماعة الخوارج وظهور الفرق الإسلامية، يبدو ذلك واضحًا لدى الشهرستاني في كتابه «المِلل والنِّحَل»، ما استوقف الشهرستاني ليس فقط قول ذي الخويصرة للنبي: «اعدل يا محمد فإنك لم تعدل»، فقد رد عليه الرسول: «إن لم أعدل فمن يعدل؟»، وكان ممكنا أن ينتهي الأمر ويُغلق النقاش عند هذا الرد، بالمعنى العاميِّ «كلمة ورد غطاها»؛ الواضح أن ذا الخويصرة لم يقتنع بهذا الرد، ولم يتقبله، وزاد في الاعتراض قائلًا: «هذه قسمة ما أريدَ بها وجه الله تعالى»، هنا نحن بإزاء اتهام صريح ومباشر، لذا أطلق عليه الشهرستاني وصف «اللعين»، وتوقف عند قول رسول الله لمن حوله منبهًا وربما محذرًا: «سيخرج من ضِئْضِئ هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

وقد وجدنا فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب يستشهد بهذه الواقعة في بيانه يوم الجمعة عقب الصلاة من مسجد الروضة في بئر العبد، إثر المجزرة التي قام بها إرهابيون داخل المسجد لحظة صلاة الجمعة، قتلوا فيها نحو ٣٠٠ مصلٍّ.

موقف ذي الخويصرة وغيره يوم توزيع الغنائم يثير العديد من القضايا والأمور إضافةً إلى ما توقف عنده الشهرستاني وغيره، وهو أن النبي واجه طوال عهده بالنبوة والرسالة (٢٣ سنة) فريقين أو جانبين من الأفراد والمجموعات الراغبين باستمرار في إثارة الشغب والشقاق:

الفريق الأول: وهو متوقع، ويتمثل في أولئك الذين رفضوا النبوة من اللحظة الأولى ورفضوا ما جاء به النبي، وهؤلاء هم سادة قريش في المقام الأول، وسادة الطائف حين توجه إليهم مبكرًا بدعوته لعله يجد بينهم استقبالًا طيبًا يختلف عن استقبال المكِّيين، هؤلاء جميعًا كان موقفهم واضحًا من البداية، وهو الرفض التام، كل لأسبابه ودوافعه، وقد اختلف تعاملهم معه، وتدرج من محاولة الاحتواء في البداية، ثم السعي إلى الدخول مع النبي في حلول وسطى أو في منتصف الطريق، وقد نزل النص القرآني في رفض ذلك كله، ثم دخلوا في حالة من العداء مع النبي ومع المسلمين بعد أن فشلوا في الإغراء والاحتواء، ثم فشلوا كذلك في محاولات الترهيب، ولمَّا لم يتحقق لهم ما أرادوا أعلنوا الحرب صريحة ومباشرة. هذا موقف واضح، معروف أوله وآخره، وقد انتهى ذلك الموقف بفتح مكة على النحو المعروف تاريخيًّا. ولا يظن أحد أن رسول الله فوجئ كثيرًا بهذا الموقف، لقد أنبأه ورقة بن نوفل من البداية أن أهله سوف يعادونه ويحاربونه ويخرجونه من دياره، وأنبأه كذلك أنه ما من نبي سبقه إلا وتعرض لشيء مشابه، ثم جاء الوحي بقصص الأنبياء وما تعرضوا له؛ أبو الأنبياء إبراهيم ألقاه قومه في النار، عيسى المسيح حُكم عليه بالإعدام صلبًا، وهكذا سائر الأنبياء، ومن ثَم فإن العداء الذي قُوبل به الإسلام يمكن تفهمه وتوقعه، لم يكن ممكنًا

لسادة قريش أن يرحبوا بدين ينتقد آلهتهم ويهدد ما يتكسبونه ماديًّا واجتماعيًّا من زوار الكعبة، لكن مع الوقت تبخر كل ذلك، وبات في ذمة التاريخ.

الفريق الثاني: الذي كان مصدر مشكلات وأزمات دائمة جاء من بين المسلمين أنفسهم، هي أزمات من داخل البيت إن صح التعبير، وهذا النوع من المشكلات لا تَعرف متى يبدأ ومن يُبدأ به؟ ولا إلى ماذا ينتهي؟ ولا متى يتوقف؟ ثم إنه لم يكن قاصرًا على أفراد بعينهم محدودين، بل مع كل موقف يختلف أصحابه، وتباينت المشكلات والأزمات، بعضها تعلق بأمور جوهرية في الدين ذاته، وبعضها يتعلق بمواقف خاصة برسول الله شخصيًّا، وبعضها تعلق بحياة الرسول وأشد خصوصياته. وحيث إنه نبي الله إليهم فقد عد بعضهم أن كل ما يقوم به يجب أن يكون موضع ملاحظة واستفسار، وأحيانًا مؤاخذة أو انتقاد ومساءلة، وربما هجوم حاد.

أول مشهد نراه في هذا الجانب مع حادثة الإسراء، فقد أُسري برسول الله من مكة إلى القدس، وكان اسمها وقتها «إيلياء» من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعاد في الليلة ذاتها، وفي الصباح أخبر أصحابه وقريشًا بما كان. للوهلة الأولى، كما ورد في سيرة ابن هشام دهش القرشيون: «قال أكثر الناس: هذا والله الأمر البين، والله إن العير لتطرد شهرًا من مكة إلى الشام مدبرة، وشهرًا مقبلة، أيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة». طبقًا لظواهر الأمور وأدوات الملاحظة والقياس العادية، كان من الطبيعي ألَّا يستوعب غير المسلمين في مكة ذلك الأمر، لكن ماذا عن المسلمين؟ المفترض أنهم يؤمنون بنبوة النبي ويؤمنون بقدرة الله غير المحدودة، والتي تتجاوز قدرة البشر وأدوات قياسهم وملاحظاتهم، وينقل ابن هشام عن الحسن في حديثه: «فارتد كثير ممن كان أسلم». ويقول أيضًا: «إن هؤلاء الذين ارتدوا نزلت فيهم الآية القرآنية الكريمة «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ».

أهل مكة من غير المسلمين قدموا الاعتراض العقلي، لكنهم راحوا يستفسرون ويتحققون، فذهبوا إلى أبي بكر بن قحافة يسألونه فيما قال «صاحبه»، وكان ما كان من الحوار الطويل بينه وبينهم، وذهب بهم إلى رسول الله، وراح يطلب منه أن يصف المشاهد التي رآها، خاصة أن ابن قحافة، كان زار مدينة إيلياء من قبل ويعرفها، ثم راح نبي الله يقدم للقرشيين بعض مشاهد ما رآه في طريق الرحلة، باختصار اندهشوا، وراحوا يستفسرون ويتحققون بالأدلة والشواهد، أما بين المسلمين فكان الأمر مختلفًا، هناك من رفض الموقف مبدئيًّا، ورفض النبوة والدين كله وعادوا إلى ما كانوا عليه من قبل، بالطبع كان هناك نقاش آخر بين المسلمين حول: هل كانت الرحلة أو الإسراء بالروح أم بالجسد؟ استند القائلون بالروح والنفس إلى حديث السيدة عائشة عن تلك الليلة، واستندوا كذلك إلى التعبير القرآني «الرؤيا» في وصف الإسراء.

حديث السيدة عائشة لم يصدر من فراغ، بالتأكيد أنها سمعت الكثير من التساؤلات والاستفسارات، وربما الاندهاش أو الاستنكار، لذا قالت، كما ورد في سيرة ابن هشام: «ما فُقِدَ

جسد رسول الله، ولكن الله أسرى بروحه».

ولم تكن حادثة الإسراء والمعراج هي الوحيدة ولا استثنائية، كان هناك مشهد آخر أشد قوة في غزوة أحد، في العام الثالث من الهجرة على أغلب الأقوال، والرابع في قول آخر.

والذي حدث في غزوة أحد، أن جيش المسلمين حقق انتصارًا سريعًا في بداية المعركة واهتزت صفوف قريش، وبدأوا في الفرار، ربما تذكروا ما جرى لهم من قبل في «بدر». هنا وجدها المقاتلون فرصة في جمع الغنائم، فتركوا مواقعهم واستحكاماتهم وراحوا يجمعون الغنائم، رأى خالد بن الوليد قائد قريش المشهد على هذا النحو، هو وعكرمة بن أبي جهل، فاستدارا بفرسانهما وعاودوا الهجوم، فتماسك جيش قريش وتضعضع جيش المسلمين، هنا نادى ابن قَمِئة وكان من فرسان قريش: «إن محمدًا قد قُتل»، على ما يذكر صاحب «السيرة الحلبية»، وهكذا اختلَّت صفوف المسلمين، وصار يضرب بعضهم بعضًا من غير ستار. وهنا بدلًا من أن يلتف المقاتلون حول قائدهم رسول الله يحمونه، بالتأكيد هو المستهدف، إذا بأعداد غفيرة منهم تهرب من الميدان، وذهب قوم منهم إلى المدينة، لكن لم يدخلوها خوفًا من أن ينقض عليهم الخصوم من اليهود وغيرهم، وذهب نفر منهم ناحية مكة. قال رجال من المسلمين حيث قتل رسول الله: «ارجعوا إلى قومكم يؤمنوكم»، وقال آخرون: «إذا كان رسول الله قد قتل أفلا تقاتلون على دين نبيكم، وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله شهداء»، وجماعة أخرى من المسلمين قالوا: «ليت لنا رسولًا إلى عبد الله بن أُبي ليأخذ لنا أمانًا من أبي سفيان»، وقالوا أيضًا: «يا قوم إن محمدًا قد قُتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم».

لم يكن أبو سفيان معنيًّا ولا مهمومًا بعودة هؤلاء ثانية إلى مكة، ولا كان يسعده ذلك، فلن يضيفوا إليه كثيرًا، مثلما أن خروجهم لم يهز المجتمع أيضًا. كان هناك أمر آخر يهمه هو وسادة قريش، ألا وهو الخبر الذي ذاع بمقتل النبي، ومقتل أبي بكر وعمر، وراح ينادي على النبي ثم على أبي بكر ثم عمر أكثر من مرة، ولم يجبه أحد، وتصور أنهم قُتلوا، وبذلك يكون تخلص من الدين الجديد وما يمثله. وهنا أمر الرسول عمر بن الخطاب أن يخرج إليه، وأعلمه عمر بالحقيقة، هنا أدرك أبو سفيان ومن معه أن النصر الكامل لم يتحقق، وأنها مجرد معركة في طريق ممتد وطويل بينهما.

الواضح أن معظم الذين فروا وأرادوا العودة إلى قريش والبحث عن واسطة إلى عبد الله بن أُبي، كانوا من المهاجرين، الأنصار لن يتجهوا أبدًا نحو قريش ومكة، سوف يعودون إلى موطنهم. لم يقتصر موقف هؤلاء على الفرار من الميدان لحظة الهزيمة والتخلي عن النبي، لكنهم راحوا يوظفون بعض آيات من القرآن الكريم في عملية الفرار تلك، فقد قالوا: «هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ»، وقالوا أيضًا: «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا»، وقالوا كذلك: « لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا»، أي أننا لسنا بإزاء فرار من الميدان، بل كذلك تطويع للدين ولآيات القرآن الكريم لتدعم موقفهم ذلك بالهروب والتخلي عن كل شيء.

كان على رسول الله أن يتجاوز ويحتمل ذلك كله، يحتمل هزيمة الجيش، الذي لم يلتزم بتعليماته ومقتل عمه حمزة بن عبد المطلب والتمثيل بجثمانه، ثم انفضاض عدد غير قليل من المهاجرين عنه على هذا النحو.

يمتد الأمر إلى أن بعض المسلمين لم يتورعوا عن التدخل في حياة النبي الخاصة وأدق أموره الشخصية، وجدنا ذلك في حادثة الإفك، حيث اعتدوا بألسنتهم على شرف النبي وعرضه الخاص، من خلال اللغط والخوض في عرض زوجته أم المؤمنين السيدة عائشة، بالرغم من أنه في البيئة العربية قبل الإسلام لم يكن معتادًا ولا مقبولًا أو مسموحًا به الخوض في أعراض حرائر النساء، والسيدة عائشة هي ابنة أبي بكر الصديق، وأخت أسماء التي لعبت دورًا بطوليًّا في هجرة النبي إلى المدينة، وتحملت عنف وسخف الباحثين عن النبي والذين طاردوه لإعادته ثانية إلى مكة، حتى أن أحدهم لطمها لطمة قاسية.

ما قاموا به من التقول على السيدة عائشة كان مؤذيًا للنبي نفسه ولأبي بكر والدها، وكان جارحًا ومؤذيًا لأم المؤمنين وأسرتها كافة، لكنهم لم يبالوا ولم يهتموا بكل ذلك، يضاف إلى هذا أن ذلك التقول كان يعني المجافاة للأخلاق الإسلامية التي ترفض رمي المحصنات وترفض النميمة وترفض عدم التيقن والتحقق مما يقال. وكان على النبي أن يتحمل كل ذلك العنف والإيذاء ويصبر، وأن يتحمل معه أهل بيته. المهم أن هذا الإيذاء صدر عن فرد ورددده أفراد «مسلمون»، وأخيرًا نزل الوحي يبرئ السيدة عائشة مما رميت به.

وفي غزوة حنين، رأينا تهجم بعضهم على رسول الله حين أبطأ في توزيع الفيء، ثم ختمت بكلمات ذي الخويصرة.

ولم يكن بوسع نبي الله سوى أن يتحمل ويصبر ويصابر ويتذكر ما جرى من قبل لنبي الله موسى من أتباعه، ونعرفه جميعًا، حدثنا القرآن الكريم عنه بالتفصيل.

وقد يرى البعض أن هذه الوقائع كلها، كانت عارضة في قصة ظهور واستتباب الإسلام وفي السيرة النبوية، وكان يمكن أن تكون كذلك، غير أنها لعبت دورًا في التاريخ الإسلامي أو في حركة المسلمين في التاريخ، ظهور الفرق الإسلامية ارتبط إلى حد كبير بهذه الوقائع، بعضها أو كلها، كل واقعة لم تنتهِ بنهاية الموقف الذي جرت فيه، لكن بقيت يتم استدعاء بعضٍ منها في مختلف المواقف إلى يوم الناس هذا، تأسيسًا على أن حياة نبي الله وسيرته هي جزء رئيسي في السنة النبوية، وبعض هذه الوقائع توظَّف سياسيًّا لدى بعض جماعات الإرهاب إلى اليوم، فضلًا عن دعاة المذهبية والصراع المذهبي في العالم الإسلامي الذي يريد البعض تأجيجه.

هناك ـ إلى اليوم ـ من لا يزالون على رأيهم البذيء والسيئ في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ويرددون على الملأ نفس الأكاذيب والطعن في العرض والشرف، ومع تأجيج بعض الصراعات السياسية في المنطقة أو النزاعات والإحن المذهبية والطائفية يعيدون اجترار تلك

الأكاذيب والمغالاة في ترديدها.

ومن عقلية ونفسية ذي الخويصرة التميمي ومن معه ظهر الخوارج، أولئك الذين أشعلوا نيران الفتنة والتكفير بين المسلمين، وما زال لهم بعض الأتباع إلى يومنا هذا، كان الخوارج يقولون بكفر مرتكب الكبيرة، والواقع أنهم كفَّروا من أرادوا، إلى حد أنهم كفَّروا الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكفَّروا معاوية بن أبي سفيان، ونعرف قصة قتل عبد الرحمن بن ملجم للإمام علي، ومحاولة خارجي آخر قتْل معاوية. وأتباعهم إلى اليوم يكفِّرون كل من يختلف معهم ولا يتبع أهواءهم.

ومن يتابع التاريخ الإسلامي يجد أن كل غزوات رسول الله مات فيها شهداء من المسلمين وقتلى من غيرهم، أي الكفار والمشركين، نجدهم على الجانبين أقل من ألف مقاتل، كل هذا الضجيج التاريخي حول غزوات النبي ومئات الكتب تصدر بمختلف اللغات حول معارك كل ضحاياها على الجانبين أقل من ألف، بينما نجد معركة صفين، وكان طرفا القتال مسلمين، سقط فيها نحو ٩٠ ألفًا، وبعض التقديرات تهبط بالرقم إلى ٧٠ ألفًا، وسواء كان الرقم ٩٠ ألفًا أو ٧٠ ألفًا فإنه رقم ضخم بكل المقاييس في ذلك العصر.

وإذا تابعنا موجات الإرهاب التي تشنها تنظيمات وجماعات من المتأسلمين، فإن الإحصائيات والأرقام تقول إن أكثر من ٩٠٪ من ضحايا الإرهاب حول العالم هم من المسلمين والمسلمات، باختصار هناك من اللحظة الأولى ومن داخل الصف الإسلامي من اعتبروا أن الجهاد والقتال هو ضد المسلمين في المقام الأول، والمحزن أن هؤلاء بدأوا من زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وبعضهم حاول البدء به هو شخصيًّا صلوات الله عليه.

والواقع أن نبي الله كان ديمقراطيًّا إلى حد بعيد في تعامله مع المسلمين ومع غيرهم أيضًا. يأخذهم بالرفق واللين، يستمع إليهم جيدًا ويتقبل كل ما عندهم، وكان عليه أن يعلمهم ويشرح لهم الدين، فضلًا عن أن بقايا ورواسب حياة القبيلة كانت لا تزال داخلهم، وكان عليه أن يُعيد تشكيلهم برفق، ما لم يكن هناك وحي وأمر إلهي مباشر، ولم يكن رسول الله طليقًا في تصرفاته وما يقوم به كله، إذ كان محكومًا بالوحي الإلهي الذي كان يحمل التكاليف والتوجيهات إلى رسول الله، ليس ذلك فقط، بل كان الوحي يراجع بعض التصرفات والأفعال أو الأقوال التي يمكن أن تصدر عن النبي سواء مع المسلمين أو مع المشركين والكفار، ولعلنا نتذكر ونقرأ سورة «عبس»، فقد نزلت الآيات الأولى منها عتابًا إلى رسول الله لما انصرف قليلًا عن عبد الله بن أم مكتوم، ولم يكن تجاهلًا ولا استكبارًا، بل كان انصرافًا مؤقتًا لأنه كان منشغلًا مع بعض كبار القوم لعله يكسبهم إلى صف الدين الجديد، وهكذا بدأت الآيات بقول الله تعالى: «عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (1) أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ (2) وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (3)»، بعض المفسرين ذهبوا إلى أن الآيات تحمل ما هو أكثر من التوجيه ومن العتاب، لم يكن ذلك الموقف الوحيد، بل هناك غيره الكثير من المواقف التي نزلت فيها آيات

تحمل تكليفًا أو توجيهًا وربما أمرًا، فضلًا عن العتاب، ولم يكن ذلك بخصوص المسلمين، بل كذلك بخصوص المشركين والخصوم أيضًا، هناك الواقعة الشهيرة التي رُويت على أكثر من وجه، إحدى الروايات تقول إن أبا جهل (عمرو بن هشام)، ذهب إلى النبي يطلب منه أن يكف عن سب آلهتهم اللات والعزى والتهوين من شأنها، حتى لا يردُّون بالمثل، رواية أخرى تذهب إلى أنه لم يكن أبو جهل وحده، بل هو وعدد من كبار القوم ذهبوا إلى عم الرسول أبي طالب ونقلوا إليه ذلك الطلب ليحمله إلى ابن أخيه، أيًّا كان الأمر، نزل الوحي مؤيدًا هذا الطلب، في الآية ١٠٨ من سورة «الأنعام»: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ».

ولما وقعت غزوة أحد وهُزم المسلمون، بدأ البحث عن المفقودين وجثث الشهداء، واكتشف المسلمون ما جرى من تمثيل بجثة حمزة بن عبد المطلب عم الرسول، الذي أصابه الحزن والجزع لما حدث مع عمه، فقال لحظتها: «لئن أظفرنا الله تعالى بهم يومًا من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب». كان التمثيل بجثث القتلى في المعارك معروفًا بين العرب، لكن هل يفعلها المسلمون؟ الله يرفض ذلك، وهكذا نزل قوله تعالى في سورة «النحل»: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (126)وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ»، وطبقًا لرواية ابن عباس فإن الآيتين نزلتا تعقيبًا على توعد رسول الله للكفار، وكان أن عفا رسول الله، وكان ذلك العفو يوم فتح مكة، لم يعاقب ولم ينتقم، وصبر وصابر ونهى عن التمثيل بالجثث تمامًا.

هذه المراجعات أو الملاحظات من الوحي على بعض كلمات أو مواقف رسول الله تحمل معنى بالغ الأهمية، وهو «إنسانية» النبي، نبي الله في النهاية هو إنسان بكل ما تحمله الكلمة من معنى، اصطفاه الله واختاره ليحمل رسالته، وهذا لا يمنحه درجة فوق الإنسانية أو أعلى منها، هو إنسان حظي بعناية الله واصطفائه، ولكن يبقى الاعتبار البشري ملازمًا له، لا قداسةً ولا تأليهًا له، وآية الإنسان أن تصرفاته يمكن أن تُراجع وأن يُعاد النظر فيها، وأن الكلمات تخضع لتقييم الوحي الإلهي وإبداء الملاحظات عليها نهيًا أو تصويبًا، كما في مسألة التمثيل بالجثث، أو اعتزام التمثيل بها مستقبلًا من باب الانتقام، وأن العفو والصفح أفضل عند الله، وبالنسبة إلى المكلوم والمحزون فالصبر أفضل.

هذا النزوع الإنساني في النبوة والوحي كان سيدنا محمد أكثر من يدركه جيدًا ويلتزم به مع أصحابه والمحيطين به، بل كل من يتعامل معهم، حتى الخصوم والأعداء الألداء. لذا لم نجده يومًا متجبرًا ولا متسلطًا، يستمع إلى آراء الآخرين ويستشيرهم، والاستشارة لم تكن للوجاهة ولا ديكورًا، بل كان يأخذ بالكثير منها، والسيرة النبوية ممتلئة بمثل هذه النماذج والمواقف.

هذه الإنسانية، تعني أنسنة الدين ذاته، وقد تحول ذلك بالفعل إلى علاقة بين النبي وأصحابه، امتلأت بالحب والإكبار، وفيها قدر من الحنو والوفاء والتقدير، غير أن البعض أساءوا الفهم، منهم من تجاوز واشتط إلى حد توجيه الاتهام: «إنك لم تعدل»، ولو أن رسول الله كان كذلك لنزل

الوحي يراجعه ويصحح، غير أن الوحي في هذا الموقف نزل مؤيدًا المسلك النبوي في توزيع الغنائم بعد حنين، مؤسسًا بذلك نظرية أو قاعدة «ألفة القلوب» لا تنافرها، لكن قصار النظر والفهم قاسوها بمعيار آخر، انتهى بهم إلى أن أغلظوا القول والتصرف مع نبي الله، ولم يشأ أن يعاقبهم، ولا سمح للقريبين منه باتخاذ أي إجراء تأديب بحقهم.

ومع وجود رسول الله بين المسلمين ومع تواصل الوحي، كانت هناك مرجعية يمكن أن يتوقف عندها هؤلاء حتى لو صدر عن أيٍّ منهم بعض التجاوز، في النهاية ما يراه ويقول به رسول الله سوف يكون نافذًا، ومع وجود كبار الصحابة حول النبي أمكن احتواء هؤلاء، وظلوا في حيز محدود، لا يمكنهم تجاوزه ولا تخطيه، غير أن رسول الله كان يرى أبعد من ذلك، لذا حذر من هؤلاء ومن سيخرج من أصلابهم في قادم السنوات والمستقبل البعيد، وقد تحقق ما حذر منه، بل حدث ما هو أكثر وأخطر.

بعد انتقال رسول الله إلى العالم الآخر وانقطاع الوحي، برزت الاعتراضات أكثر، وأخذ البعض يعتبرون أنفسهم وفهمهم للدين وللنص القرآني هو المرجعية، مرجعيتهم فهمهم هم ورؤيتهم هم، وهكذا أطل بكامل موقفه مسيلمة «الكذاب»، بل إن هناك من ارتدَّ مع لحظة إعلان وفاة النبي، متصورين أن الدين ارتبط بوجود النبي بينهم، وقد أمكن للخليفة الأول أن يحسم هذه الأمور، وعلى هذا النحو سار من بعده عمر بن الخطاب، لكن مع نهاية حكم الخليفة الثالث عثمان بن عفان أطلت الاعتراضات، وغلبت الإحن والمواقف الخاصة، وكل صاحب رأي يعتبر أنه على الحق ومن عداه على الباطل، وفي مواقف وحالات كثيرة رُفعت السيوف وجُهزت الجيوش، فكان مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان على أيدي مجموعة كانوا يوصفون بأنهم القرَّاء، أي قراء القرآن الكريم، ثم جرت موقعة الجمل وبعدها موقعة صفين، ثم مقتل علي بن أبي طالب على يد واحد من هؤلاء وهو عبد الرحمن بن ملجم، الذي اتهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالكفر، وما زال بيننا إلى يومنا هذا من لا يتوقف عن تكفير المسلمين والاعتداء عليهم إرهابًا وقتلًا.

كانت العادة في كل الغزوات والحروب أن توزَّع الغنائم فور انتهاء القتال، ربما في أرض المعركة. خسر المسلمون معركة أحد لأنهم تركوا مواقعهم القتالية تعجلًا للحصول على الغنائم قبل انتهاء القتال، مخالفين بذلك تعليمات قائدهم نبي الله.

وفي غزوة حنين تعمد النبي الإبطاء في توزيع الفيء حتى انقضى أكثر من عشرة أيام على انتهاء القتال، وكان هناك نحو ثمانين من الكفار شاركوا جيش المسلمين، وهم يتحرقون لنَيْل نصيبهم. كان النبي قد أمر بنقل كل الفيء بعيدًا عن ميدان القتال إلى منطقة تسمى «الجعرانة»، ولما استبطأ المسلمون التوزيع راحوا يطالبون ويضغطون، وحدثت منهم تجاوزات شديدة في حق النبي، حتى أنهم جذبوه صلى الله عليه وسلم من ردائه، وأوشكوا على خلعه عنه، حتى ناداهم: «ردوا عليَّ ردائي»، ويبدو أنهم تصوروا أنه لن يعطيهم حقهم في الفيء، لذا وجدناه يتحدث إليهم عن أمانته صلى الله عليه وسلم.

شواهد الأمور تقول إنه أبطأ التوزيع مراعاة للطرف المهزوم، ثقيف وهوازن، لعلهم يأتون إليه ويطلبون الصلح، فلا تكون عودة ثانية إلى القتال أو يصيرون حلفاء لمكة والمدينة، فلم يكن يود أن يدوم العداء والتربص، كان يريد أن يجعل من الجزيرة العربية منطقة متناغمة، خاصة المناطق المتاخمة لمكة والمدينة، لكنهم لم يأتوا، وليس واضحًا هل كان ذلك لأنهم لم يكونوا قد استوعبوا بعد ما جرى لهم، أم ربما توقعوا هجومًا من المسلمين عليهم وجولة قتال جديدة، خاصة بعد أن تكشَّف ضعفهم، أم لعلهم انتظروا أن يذهب إليهم الرسول يعرض هو أو يطلب منهم أن يبدأوا صفحة جديدة أو أن يعرض عليهم الإسلام. ولمَّا لم يأتوا ولم يصدر عنهم أي موقف، وازداد ضغط المسلمين ومطلبهم في توزيع الفيء، بدأ النبي في التوزيع.

لم تكن المشكلة الكبرى أمام النبي في هذا الموقف تتعلق بالأموال، بل بالسبايا، وقد قارب عددهم ستة آلاف، وكان بعض القرشيين لديهم تطلع خاص إلى نساء هوازن لما عُرفن به من إنجاب الرجال الأشداء، فضلًا عما يتصوره هؤلاء عن جمالهن وأنوثتهن الفياضة، وهكذا راح كل منهم يُمني نفسه.

أما النبي فقد كان لديه احترام خاص لهؤلاء النساء، فمنهن السيدة حليمة السعدية أمه في الرضاعة، وقد تسلمته وهو طفل صغير يتيم الأب، وفقير، وكانت المرضعات يبحثن عن الطفل ابن الأغنياء لما يعود عليهن بسببه من المال والعائد، فضلًا عما ينتظرنه منه حين يكبر، لأنه بالرضاع يصير ابنًا لمرضعته ولا ينساها، في المقابل كانت المرضعات ينفرن من الطفل الفقير، حيث لن يعود عليهن منه شيء حاضرًا ولا مستقبلًا، لكن حليمة تقبَّلته رضيعًا بالرغم من رفض معظم المرضعات، وعاملته بأمومة صادقة، فكانت له نبعَ حنان، وعومل منها معاملة الابن،

وتربى بينهم كواحد من أبنائهم بلا تمييز ولا تفرقة.

ولما انتهى توزيع الفيء جاءه وفد من هوازن، يبدو أنهم أدركوا أنه لا فائدة تُرجى من الانتظار، فضلًا عن أن موقفهم ذلك قد يجعلهم هدفًا لغزوة أخرى. جاءوا يتقدمهم عمه في الرضاعة، يناشده: «يا رسول الله، إنما في هذه الحظائر مَن كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك». ويسترسل في حديث طويل عن النبي في طفولته، إلى أن يقول: «نحن أهلك وعشيرتك، فامْنُن علينا مَنَّ الله عليك». وكان رد النبي: «قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون، وقد قُسِّم السبي وجرت فيه السُّهْمان».

كان النبي صادقًا فيما قال، لكنه لم يكن متقبلًا مسألة السبايا ولا طريقة التعامل معهن في الحروب، وفي غزواته السابقة لم تكن الجيوش المعادية يصطحبون معهم نساءهم وأطفالهم وكل ممتلكاتهم، كما فعل الأحمق مالك بن عوف. غاية ما كان يحدث من قبل أن يقع بعض الأسرى، ويتم فداؤهم أو ردهم مقابل مبلغ أو فدية تُدفع، حدث ذلك بعد غزوة بدر مثلًا، لكن هذه المرة كان وجود سبايا على هذا النحو جديدًا، لذا أمر النبي بأن يوضعن في مكان ظليل أو الحظيرة حتى يُجنِّبهن الشمس الحارقة، ثم أمر بُسر بن سفيان الخزاعي بأن يذهب إلى مكة فيشتري لهن ملابس تسترهن. كانت السبايا في ذلك الزمان يُعرضن عاريات تمامًا حتى تتضح تفاصيل أجسادهن أمام مَن يشتريهن أو يقعن في حصته، وأنهى النبي ذلك، واشترى بُسر لهن قباطي مصرية، ولا يجب أن تندهش، كانت العلاقة بين الجزيرة العربية ومصر قائمة طوال التاريخ، وكانت المنتجات المصرية تصل إلى هناك. كانت القباطي تصل إلى مكة بانتظام، وتحظى بشهرة كبيرة جدًّا في ذلك الزمان، كانت أجود وأفخر المنسوجات.

وكان النبي قد وهب عبد الرحمن بن عوف جارية منهن في «حنين» وصارت مِلْكه، ويذكر الواقدي أنه قام بوطئها، وأعطى أيضًا جارية لعثمان بن عفان فوطئها وكرهته، وقدم كذلك إلى علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وصفوان بن أمية وعمر بن الخطاب، عمر بدوره أعطاها لابنه عبد الله، فأرسلها إلى أخواله في مكة، «ليصلحوا منها حتى يطوف بالبيت، ثم يأتيهم»، وكذا أبو عبيدة بن الجراح، وتحفل بعض المصادر الإسلامية بأسمائهم، وكيف تصرف كل منهم مع جاريته. ولم يكن من السهل على عرب هوازن قبول هذا المصير لنسائهم، ولم تكن لديهم قوة حربية لتحريرهن، هكذا كانت قواعد الحروب ونتائجها، لذا لم يكن أمامهم سوى السعي والتفاوض مع المنتصر، فذهب وفد آخر من هوازن يتكون من ١٤ رجلًا، طبقًا لبعض المصادر، يتقدمهم جميعًا زهير بن صرد، وكان لبقًا وذكيًّا، كرر ما سبق أن قاله عم النبي في الرضاعة، وأضاف: «يا رسول الله، قد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك»، وأضاف مستنجدًا بالتقاليد والقيم العربية المتعارف عليها: «لو أنَّا ملحنا للحارث بن أبي شَمِر وللنعمان بن المنذر، ثم نزلا منَّا بمثل الذي نزلتَ به رجونا عطفهما وعائدتهما، وأنت خير المكفولين».

قال زهير كلامًا كثيرًا مؤثرًا، وألقى قصيدة، جاء فيها:

امْنُنْ عَلَيْنَا رَسُولَ اللهِ فِي كَرَمٍ

فَإِنَّكَ الْمَرْءُ نَرْجُوهُ وَنَدَّخِرُ

امْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ عَاقَهَا قَدَرُ

مُمَزَّقٌ شَمْلُهَا فِي دَهْرِهَا غِيَرُ

لم يكن ممكنًا ألَّا يستجيب النبي، بعد أن ذكر زهيرٌ الحارث والنعمان، أي من يُعرفان بأنهما من أعداء عرب الجزيرة، والأقرب إلى الفرس والروم.

ورَدَّ النبي بما يكشف أنه كان مهمومًا أكثر بهذه الجزئية، ويريد حلًّا لها، فقال لهم: «إن أحسن الحديث أصدقه، وعندي مَن ترون من المسلمين، فأبناؤكم ونساؤكم أحَب إليكم أم أموالكم؟».

الرسالة واضحة، وهي أن المسلمين المنتصرين لن يقبلوا تسليم أو التنازل عن كل شيء، الأموال والجواري، لكن يمكن أن يتدخل هو لينزع المال أو الجواري.

حين طرح عليهم هذا السؤال كان يعرف الإجابة مسبقًا، هم لم يخاطبوه في المال ولا في الممتلكات، بل في نسائهم، القصيدة التي ألقاها زهير تتحدث معظم أبياتها عن النساء. عمُّه في الرضاعة لم يذكر الأموال، بل النساء فقط، فقْدُ المال ليس نهاية العالم، والفقر ليس عارًا، والمال يمكن استرداده والحصول عليه مرة جديدة، فالحياة لا تتوقف. أما الشرف فلا، إذا تبدد لا يعود ويبقى سبة تلازمهم أبدًا، ونساء العرب شرفهم، لذا كان الرد: «يا رسول الله، ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا، فرد علينا أبناءنا ونساءنا»، وجاءهم الرد كريمًا وفوريًّا، قال صلى الله عليه وسلم: «أما ما لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وأسأل لكم الناس».

كان توزيع الفيء محكومًا بقواعد محددة، على رأسها أن الخُمس لله ولرسوله، وهذا هو الجزء الذي يمكن للنبي أن يتصرف فيه، أما الباقي فلا يملك أن يأمر الناس، بل يسألهم أو يطلب إليهم ويُرغِّبهم في أن يعيدوا النساء إلى ذويهن، خاصة أن هذا الأمر معقد، فقد مارس بعض المسلمين الذين تسلموا حصتهم من السبايا (النساء) حياة أو علاقة كاملة معهن. وهذا يعني أنه وارد ألَّا يفرط البعض في جاريته بسهولة، أو أن يكون فيهن مَن حملت منه بالفعل، وإن لم يتضح ذلك لحظة مثول الوفد بين يدي النبي الذي كان قد قرر أن يغلق هذا الملف نهائيًّا ويعيد إلى هوازن نساءها وبنيها، وهو بذلك كان يمزق ميراثًا ثقافيًّا طويلًا من التاريخ القديم، ويُرْسِي قواعد جديدة، تجعل للإنسان قيمة في حد ذاته، منتصرًا أو منهزمًا، مسلمًا أو غير مسلم.

ولأن النبي لا يتخذ قرارًا بعيدًا عن أصحابه، ما لم يكن قد تلقى به وحيًا، فإنه طلب إلى وفد هوازن أن يأتوه في الغد بالمسجد بعد صلاة الظهر وسط أصحابه، ويطلبوا إليه ما طلبوه في لقائه الخاص مع الوفد، بل إنه أملى عليهم صيغة الطلب: «قولوا: إنا لنستشفع برسول الله إلى المسلمين،

وبالمسلمين إلى رسول الله».

هنا أراد النبي أن يصل الأمر إلى المسلمين بوصفه رجاء إليهم، وأن أهل هوازن يتشفعون برسول الله نفسه لديهم ويتشفعون بهم لدى رسول الله، هنا مطلب إنساني وموقف أخلاقي نبيل مطلوب منهم أن يتخذوه، وليس فرضًا عليهم أو قهرًا لهم، فما الذي جرى؟

في صلاة الظهر بالمسجد، لاحظ المسلمون دخول وفد هوازن ومعهم عدد غير قليل من أفراد القبيلة المسجد، كان المسجد مفتوحًا للجميع، طبعًا كانت الأسواق محلًا للقاء والاجتماع، لكن عادة لا يذهب الجميع إلى السوق، لم تكن البرلمانات ولا النوادي اخترعت وقتها في البيئة العربية. كان الوفد قد شُوهد في المدينة قبلها بيوم، وبات معروفًا أنهم التقوا النبي للتباحث معه في أمورهم ومحاولة استرداد بعض مما خسروه في المعركة، وكان معنى حضورهم إلى المسجد أنهم لم يتوصلوا إلى اتفاق نهائي مع النبي وجاءوا ليعيدوا طرح مطالبهم أمام جموع المسلمين، علهم يصلون إلى حل، أو أنهم اتفقوا وجاءوا هنا كي يعلن النبي الأمر ويكون ملزمًا للجميع، وبتعبير زماننا يدخل حيز التنفيذ، وربما كان الأقرب إلى تصورهم أن لا شيء كبيرًا سوف يحدث، الأموال وُزعت والسبايا قُسمت، وجاء وفد من قبل ثم عاد بلا اتفاق، فماذا عساه أن يفعل هذا الوفد؟

وما إن انتهت صلاة الظهر حتى تكلم كبيرهم بما كانوا اتفقوا عليه مع النبي في اليوم السابق، ورد عليهم النبي بما وعدهم به، قال صلى الله عليه وسلم: «ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم». لم يكن عدد بني عبد المطلب كبيرًا، العباس وأولاده، علي بن أبي طالب وأخوه عقيل، أبناء الحارث بن عبد المطلب، وكذلك ابنا أبي لهب.

أما وإن النبي تنازل عما يخصه وكذلك أقاربه، فقد اقتدى به المهاجرون، قال قائلهم: «ما كان لنا فهو لرسول الله»، وبالمثل رد الأنصار، لكن المجتمع لم يعد فقط المهاجرين والأنصار، هناك مسلمون كثر غيرهم، وهناك غير المسلمين ممن ظلوا على ديانتهم القديمة، ولم تكن ديانة سماوية، وهكذا وجدنا العباس بن مرداس يبادر بالقول: «أما أنا وبنو سليم فلا».

العباس سبق له أن عاتب النبي في قصيدة مطولة بسبب عدد من الإبل، فما بالنا بالسبايا؟ وإذا تنازل فلماذا كان عتابه السابق؟ لكن المفاجأة أن قومه خالفوه ورفضوا رده، فضلًا عن أن يتخذ قرارًا باسمهم دون التفاهم معهم، وهتفوا: «ما كان لنا فهو لرسول الله»، فصاح فيهم: «وهنتموني»، أي أضعفوه، وما كان له أن يخالف قومه وإلا فقد الزعامة عليهم وانتهى أمره بينهم.

الأقرع بن حابس وقف قائلًا: «أما أنا وبنو تميم فلا». وبالمثل وقف عيينة بن حصن: «أما أنا وفزارة فلا»، وهذا يعني أن ما قبل به وفد هوازن لن يتحقق كاملًا، وسيبقى جزء من نسائهم وأبنائهم جواريَ وعبيدًا لدى بني تميم وفزارة، وذلك بالنسبة إليهم صعب قبوله، الأخطر أنه يخلق مشكلة تحول دون حدوث سلام في الجزيرة العربية وتوحدها، وهو ما كان النبي يتطلع إليه، فضلًا عن أنهم استنجدوا بالنبي وهو القائد الأعلى، ولذا لا بُدَّ أن يجد لهم حلًّا، خاصةً أنهم قبلوا كل الشروط، وكان النبي يعلم أنه لن يفرض على بني تميم وفزارة التنازل عما بات في حوزتهم، لذا

تحدث إلى الناس وشرح بدقة وتفصيل ما دار من نقاش مع الوفد، وأنه خيَّرهم بين المال والأحساب، وأنهم لم يعدلوا بالنساء والأبناء شيئًا، ثم أعلن مبادرته التالية، قال: «إن كل هؤلاء القوم جاءوا مسلمين، فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه فليرسل، ومن أبى منكم وتمسك بحقه فليرد عليهم».

ولم يدعهم يتساءلون أو يندهشون، إذ أكمل على الفور محددًا مقابل هذا الرد: «وليكن فرضًا علينا ست فرائض من أول ما يفيء به الله علينا»، المقصود بالفرض هنا، كما يذهب صاحب «السيرة الحلبية»، «البعير» الذي يؤخذ في زكاة المال، وعُدَّ فريضة لأنه فَرْض على صاحب المال، وهذا يعني أن النبي حدد ستة من البعير مقابل كل سبية تُرَد، فرضًا عليه صلى الله عليه وسلم، إذا لم يشأ صاحبها أن يردها طوعًا.

وتحسبًا لأي تصرف آخر خارج تلك القواعد، دعا رسول الله على من لا يستجيب بعد كل هذا «أن يبخس»، أي لا يمكنه بيعها بما ينتظر ولا أن يستفيد منها، وهذا يعني أننا في النهاية بإزاء عملية اتفاق وقبول.

نجحت تلك المبادرة وتراجع المتشددون في عدم رد السبايا، وصاحوا جميعًا: «يا رسول الله رضينا وسلمنا».

هنا، نحن بإزاء اتفاق كامل، وردد الجميع: «لقد عفا رسول الله عن هوازن»، والحق أن هذا الموقف يكشف كيف كانت أصعب القرارات تتخذ، التدريج في صنع القرار، خطوة خطوة، من السهل إلى الصعب، كل خطوة تمهد وتهيئ لما يليها، المرونة والصلابة معًا، التقدم خطوة من كل طرف مع بعض التسامح، الاحترام والتقدير التام لصانع القرار مع مهابة نفسية تجعل المواطنين يتقبلون القرار بهدوء ويستجيبون إليه بأريحية وبلا ضغط. المهم أن يبدأ صانع القرار بنفسه وبالمحيطين به والأقربين إليه، وهكذا وصولًا إلى الجميع، مع تقديم البدائل والحوافز لمن يمكن أن يضار من القرار أو يشعر أنه مغبون بعض الشيء، لكن كان لا بد من وضع قواعد التنفيذ، وبدأت من أن النبي قال بعد أن سمع منهم الرضا: «مروا عرفاءكم أن يدفعوا ذلك إلينا حتى نعلم»، أي أن تحدد كل قبيلة أو مجموعة مندوبًا عنها، يتولى رد النساء والأبناء أو السبايا، وما إذا كان الرد طوعًا أو في انتظار الفرائض الست، كما تم تعيين عدد من «الأمناء» يكون دور كل منهم المرور على من يخصُّونه ويتأكد أنهم ردوا من لديهم، كان عمر بن الخطاب هو من تولى ذلك بالنسبة إلى المهاجرين ولم يتخلف منهم رجل واحد، وهكذا الحال بالنسبة إلى الأنصار وغيرهم، روى عبد الله بن عمر أنه بينما كان يطوف حول الكعبة في مكة سمع من يناديه وقال له: رد رسول الله نساء هوازن. إلى هذا الحد كان الأمر مهمًّا وصارمًا.

القاعدة الأخرى التي وضعها النبي أن السبية خُيِّرت بين أن تعود إلى أهلها أو أن تبقى بين يدي من آلت إليه، وأن يُحترم اختيارها. في حالة الحرب لا اختيار، الحرب حرب ولها شروطها

وقواعدها، أما وقد تحقق السلم فيصبح حق الاختيار قائمًا، وقد اخترن جميعًا العودة إلى ديارهن وأهلهن، فيما عدا واحدة، وهي السيدة أو الفتاة التي ذهبت إلى سعد بن أبي وقاص، حيث رفضت العودة إلى أهلها واختارت البقاء والعيش معه، وأنجبت منه ابنًا.

هذا الانتباه المبكر إلى احترام رأي المرأة واختيارها يستحق التوقف، وألَّا تُفرض عليها وصاية من رجل ارتبطت به أو من القبيلة. والمهم أن المجتمع كان متقبلًا تلك القاعدة ولم يُعترض عليها.

وربما تساءل البعض عن الأيام التي قضتها كل منهن في السبي وما ترتب عليها، وهنا يجب أن نذكر أن النبي حين وزعهن طاف مناديه يقول: «لا تُوطأ الحبلى حتى تضع، ولا غيرها حتى تُستبرَأ بحيضة»، أي يثبت عدم الحمل، وقد أثار ذلك الأمر وقتها جدلًا مطولًا بين النبي والمسلمين، وهو يثبت أن ذلك المجتمع كان واعيًا وحذرًا جدًّا في مسألة صحة النسب وعدم الخلط فيها، ويدهشك ثقافتهم المتعمقة في هذا الجانب.

بدأ رد السبايا، ومن يومها أخذ معاذ بن جبل يردد أنه سمع من رسول الله: «لو كان ثابتًا على أحد من العرب ولاء أو رِقٌّ لثبت اليوم، وإنما هو إسار وفدية».

والحق أنه يمكن لنا أن نمد الخط على استقامته، ولا يصبح الرق ممنوعًا بالنسبة إلى العرب فقط، بل الإنسان عمومًا، ولعل تخصيص العرب هنا لأن الطرفين في تلك المعركة كانا عربًا.

بقيت أمام وفد هوازن مهمة بسيطة تتعلق بأموال ونساء وأبناء عوف بن مالك قائد هوازن الأحمق في معركة حنين، وكان نبي الله ترك مال عوف دون توزيع، أما النساء والأطفال فقد سلمهم النبي إلى عمتهم أم عبد الله بنت أمية ولم يدخلهم في حيز الفيء، ويبدو أن الوفد كانوا في حرج من طرح هذا الأمر بعد كل ما قام به النبي معهم وما سيتحمله مقابل رد النساء عليهم. لكن لو أنهم عادوا دون أهل مالك فإن نجاحهم بين قبيلتهم يكون منقوصًا وقد يُتهمون بالأنانية، والواضح أن النبي استشعر هذا الحرج لديهم فسألهم عن عوف، فأجابوا بما يعلم من هروبه، فبعث إليه معهم الرسالة التالية: «أخبروه أنه إن كان يأتي مسلمًا رددت عليه ماله وأهله وأعطيته مائة من الإبل».

ولم يكن الوفد مهتمًا إلا بأمر النساء والأبناء، ربما أكثر من الاهتمام بعوف نفسه، قالوا: «يا رسول الله أولئك سادتنا وأحبتنا»، وما بين السطور هنا واضح دون أن يتفوهوا به، فطمأنهم الرسول: «إنما أريد بهم الخير».

بلغت رسالة النبي إلى عوف حيث كان مختبئًا في حصن الطائف، وتخفَّى حتى خرج من الطائف وقابل النبي، واستعاد ممتلكاته وأهله وتسلم المائة بعير التي وعده بها رسول الله واعتنق الإسلام، وصار له شأن آخر في التاريخ.

على هذا النحو حُلَّ هذا الإشكال، لكن بقيت معضلة، أقرب إلى الطرفة المبكية والمضحكة في الوقت نفسه، بطلها عيينة نفسه.

قد يندهش البعض من أن يحدَّد مقابل مادي لاستعادة النساء، لكن ما جرى بين عيينة بن حصن وسيدة هوازن العجوز وابنها يكشف لنا ثقافة قطاع من ذلك المجتمع في تلك المرحلة من التاريخ، ونظرة المرأة إلى ذاتها.

كان عيينة سيد قومه قبل الإسلام وبعده، ولم يكن محبوبًا من الكثيرين، لذا كان اسمه وما قدمه له النبي من فيء موضع عتاب على النبي من المهاجرين ومن الأنصار ومن غيرهم كما سبقت الإشارة، صحيح أن نبي الله قدم الفيء إلى نحو ١٥ شخصية في مثل حالته، لكنه كان الأكثر استفزازًا للكثيرين.

اسمه الحقيقي حذيفة، ثم أصيب بمرض ما أدى إلى جحوظ عينيه فأطلق عليه العرب «عيينة»، ونُسي اسمه الأول تمامًا، في ذلك الزمان لم يكن هناك غضاضة في أن يلقب إنسان بعلامة ما في جسده مثل: الأعرج والأقرع والأعور والضرير والجاحظ وهكذا، دون أن يعد ذلك تنمرًا أو تجريحًا، ويلفت الانتباه الدقة في إطلاق تلك التسميات أو المصطلحات دقة تحرج علماء اللغة ذاتهم، مثلا الأقرع تطلق على من فقد شعره لمرض ما، ولا تطلق على «الأصلع» الذي كانت له تسمية أخرى، كان الإمام علي أصلعَ، وكان يلقب بسبب ذلك بـ«الأجلخ».

لم تكن مشكلة عيينة، أو حذيفة سابقًا، في عينيه، المشكلة الجسدية تعد علامة مميزة لصاحبها، ولم تكن تعد عيبًا ولا كانت مصدرًا للخجل، كانت المشكلة في لسانه السليط الحاد، كانت كلماته مؤذية وجارحة من دون بذاءة تؤخذ عليه، دخل مرة على نبي الله من دون استئذان، ولما لفت انتباهه إلى ذلك، رد عليه: لم أستأذن أحدًا من مُضر. أي أنه لم ولن يستأذن في الدخول، وهكذا دخل مرة أخرى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت معه أم المؤمنين السيدة عائشة، رضي الله عنها، فسأل النبي: من هذه المرأة؟ وكان رد رسول الله: إنها عائشة بنت أبي بكر، فعقب بكلمات مؤذية ومؤلمة لها ولأي زوجة، كانت كلماته تنطوي على تجريح لها أنها لا تنجب، وبعد أن انصرف، سألت أم المؤمنين: من هذا الرجل؟ فأجابها: «إنه الأحمق المطاع في قومه»، كان النبي يدرك ذلك منه، وبالرغم من عدم إسلامه كان النبي يذكر له موقفًا سابقًا وحاسمًا لصالح النبي والمسلمين.

كان عيينة حليفًا لقريش ضد النبي، وشارك هو وقومه في حصار النبي والمسلمين وحصار يثرب، فيما عُرف تاريخيًّا باسم غزوة الخندق، ولما اشتد الحصار وطال أمده استدعاه النبي وعرض عليه مع زعيم آخر الانسحاب والابتعاد عن المدينة في مقابل، حدده النبي، أن يعطي كل منهما مزرعة أو حديقة بما فيها، فوافق عيينة، وبينما يُكتب الاتفاق اعترض أحد المسلمين من الأنصار متعهدًا للنبي بالقتال إلى آخر لحظة، وتبعه آخرون في ذلك مرة أخرى، مما يثبت لنا

حرص النبي على تجنب القتال قدر الإمكان، هو هنا يريد إنهاء الحصار، دون قتال وبلا خسائر لأيٍّ من الطرفين، حتى لو اقتضى ذلك التضحية ببعض المال أو الممتلكات، بستان أو حديقة لعيينة، لكن الأنصار لم يرحبوا بذلك المخرج، كان الأمر يتعلق بكرامة مدينتهم وكرامتهم هم وسط العرب، وكالعادة استمع النبي إلى أصوات من معه وتقبل آراءهم، حتى لو كانت مخالفة لرأيه.

بعد هذا المشهد انسحب عيينة بمقاتليه، دون أي شيء، أدرك أنه لا جدوى من الحصار، ونصح قريشًا بالانسحاب لأن فرسان محمد لن يتزحزحوا، وكان قد تابع مشهد الاعتراض بنفسه، فأخذوا بنصيحته، أدركوا أن هدفهم لن يتحقق، بل الخراب والهزيمة سوف تكون من نصيبهم إذا شرعوا في القتال. لذا كان النبي مدركًا لفظاظة لسانه وحدِّتِه، ولكنه يقدر مكانته وتأثيره في قومه وفي الآخرين كذلك.

وإذا كانت تلك كلماته مع النبي وكلماته إلى أم المؤمنين عائشة، وفي حضورها وعلى مسمع منها، فما بالنا بلسانه مع الآخرين؟

ومع ذلك فقد كانت له رؤى نافذة في القضايا الكبرى أو الاستراتيجية، طلب مرة من عمر بن الخطاب، وهو أمير المؤمنين، أن يخرج العجم نهائيًّا من المدينة، لأن وجودهم بها خطر على العرب، وأن أحدهم قد يقتله، لم يكن عيينة عرَّافًا ولا منجمًا، فقط كان يعيش بالمدينة ويرى تحولات البشر ويدرك مشاعرهم وأفكارهم، وكان واضحًا ضغينة الفرس الذين عاشوا بها على العرب عمومًا، وعلى عمر تحديدًا الذي أسقط إمبراطوريتهم وابتلعها جيشه. رفض عمر ذلك الرأي أو النصح منه، وربما عدَّه نوعًا من العنصرية وعدم الاتساق مع روح الإسلام التي تقول: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» بعدها بفترة ليست طويلة طعن الأعجمي أبو لؤلؤة الفارسي عمر، فتذكر لحظتها نصيحة عيينة.

وحدث أن وجَّه كلمات حادة إلى عثمان بن عفان الخليفة الثالث، بالرغم من أن عثمان كان متزوجًا ابنته، أي أنه «حماه»، عاتبه عثمان مذكِّرًا إياه بأنه ما كان يجرؤ أن يتحدث هكذا مع عمر بن الخطاب، فرد عليه سريعًا: «إن عمر أعطانا فأغنانا وأخشانا فأتقانا»، ومع ذلك لم يكن عيينة ذكيًّا ولا فطنًا طوال الوقت ولا في كل المواقف.

والذي حدث بعد أن جرى الاتفاق على إعادة نساء هوازن، أن ذهب إليه المكلفون بالتسلم وخيروه في بين أن يسلم من لديه راضيًا أو أن يحدد إن كان يريد مقابلها من البعير، غير أنه فعل أمرًا جديدًا فاجأ الجميع، سلم ما لديه من الفتيات الصغيرات الحسناوات، ونظر إلى سيدة عجوز طاعنة في السن، ليس بها أي مسحة جمال واستبقاها قائلًا هذه أم الحي، لعلهم أن يغلوا بفدائها. قال أيضًا: عسى أن يكون لها في الحي نسب. لم يكن فقيرًا ولا كان في حاجة إلى المقابل المادي، فضلًا عن أن النبي كان قد أعطاه الكثير، هي حالة من الطمع والشرَه أو الاعتقاد أنه أذكى الجميع والذي يتكسب من أي موقف، وبدا أن الأمر يسير وفق توقعه، إذ جاءه ابنها، يعرض عليه مائة

بعير ويستعيدها، لكنه تمنَّع ولم يطرح على الابن الرقم الذي يريده، فقط لم تقنعه المائة بعير، لكن الواضح أنه انتظر أن يضاعف له الرقم، وكانت المفاجأة أن الأم صاحت في ابنها تنهره: ما أربك في أن تنقده مائة ناقة؟ ثم أمرت ابنها: اتركه فما أسرع ما يتركني بغير فداء. كانت السيدة أكثر ذكاءً من عيينة، وفهمت ما يريد فعاملته بالعقلية نفسها.

نفذ الابن طلب أمه ومضى هادئًا ومطمئنًا لم يلحَّ عليه ولا أعاد العرض، كما أنه لم يلحَّ عليها ولا راجعها في رأيها، المهم لديه ألَّا يلومه القوم ولا يتهم أنه أهمل أمه، والمهم ألَّا تكون هي غاضبة منه، وانصرف عن ذلك الأحمق. هنا قال عيينة: ما رأيت كاليوم خدعة، والله ما أنا من هذه إلا في غرور، وقال كلامًا كثيرًا بهذا المعنى.

بعد وقت مرَّ الابن ثانية، ناداه عيينة وأنبأه بأنه يقبل بالمائة ويعيد إليه أمه، فرفض الابن وعرض خمسين فقط، هبط إلى نصف العرض الأول، وبدا أن تقدير وفهم والدته صحيح. لم يقبل الأحمق، فانصرف الابن مجددًا، وهكذا ظل السجال بينهما، خفض الابن الرقم إلى خمس وعشرين، ثم عشر، وبعدها ست، كان الابن كمن يتسلى ويتلاعب به، والآخر عنيد، لا يستوعب الموقف، إلى أن تهيأ الهوازنة للعودة فنادى هو ابنها وسلمها له، بلا مقابل، وكانت المفاجأة أن الابن رفض استلامها إلا وأن يكون معها الثياب القبطية التي كساها رسول الله، تلك الملابس حقها وليس له أن يتسلمها دونها. أقسم عيينة أنه تسلمها من دون تلك الملابس، لكن الابن صمم وتحقق له ما أراد، جاء عيينة بالقباطي، وتحدثنا المصادر بأن الابن هدده بأن يغادر ويتركها معه، فيتكلف عيينة مسؤولية نقلها إلى هوازن، أما إذا بقيت عنده تحمل تكلفة إطعامها ونفقات معيشتها.

كان عيينة مذهولًا وقال للابن: ما رأيت كاليوم أمرًا. رد عليه الأخير: أنت صنعت هذا بنفسك، عمدت إلى عجوز كبير، والله ما ثديها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا فوها ببارد، ولا صاحبها بواجد، فأخذتها من بين من ترى.

تنسب بعض المصادر هذا القول إلى السيدة العجوز نفسها، وفحواه أنها بلا أنوثة تغري، وليست في سن تجعلها تحمل وتلد له الأبناء فتزداد عزوته وتقوى شوكته، وليس لها صاحب يتلهف عليها ويفتديها بالغالي والنفيس، لا زوج يبحث عنها ولا حبيب يتلهف عليها، كما أنها ليست شابة يمكنها أن تخرج وراء الإبل والغنم إلى المراعي، أي لن تعمل ولن تكون منتجة، كما أنها لن تفيد في عمل المنزل وخلافه، على العكس سوف يكون عليه أن يتحمل إطعامها وكسوتها، فإن أهملها وأجاعها لامته العرب ولحقه العار.

قال الابن له وهو يغادر ومعه أمه: «إنك غير بصير بالفرص». وقد أكد له صديقه الأقرع بن حابس ذلك، حين شكا له ما ناله من السيدة وابنها، الواضح أن الأمر آلمه، فضلًا عن أنه جعل منه مادة للتفكه والتندر. قال له الأقرع: «إنك والله ما أخذتها بكرًا غريرة، ولا نصفًا وثيرة (سمينة ناعمة)، ولا عجوزًا أصيلة».

حين غادرت السيدة وعادت مع ابنها سخر البعض من طمع وغباء عيينة، وصار موضع تهكمهم، وقال آخرون إن دعوة النبي بالكساد على من لا يرد السبايا حقت عليه وأصابته.

هذا المشهد كله يكشف لنا، كيف كانوا يرون المرأة ويتعاملون معها وكيف كانت ترى هي أيضًا ذاتها. من المهم هنا الانتباه إلى أن هذه السيدة في أصعب لحظة رفضت أن تترك مصيرها تمامًا لمساومات ابنها وعيينة، بل تدخلت ورفضت المساومة، كانت بخبرة السنين تدرك ما يريده الأحمق، وأنه لا يصح الانجرار معه إلى حيث يريد، وفي النهاية سوف يتراجع، وقد صح ما أرادته وتوقعته، نحن أمام نموذج لقوتها، بالرغم من الضعف الذي بدت عليه أو رآها به ذلك الأحمق، وكذلك ضعفه هو بالرغم من القوة التي يبدو عليها.

والحق أن المرأة في ذلك الوقت لم تكن، كما يتصور بعضنا ويردده بعض الكُتَّاب، كمًّا مهملًا، بل كانت حاضرة ومؤثرة، لها دور في صنع القرار، خاصةً فيما يتعلق بمصيرها.

بالتأكيد كانت هناك نماذج أخرى مغايرة من النساء ومن التعامل معهن، لكن يبدو لنا أن نموذج السيدة العجوز التي لم يُشر أي مصدر إلى اسمها، كان سائدًا.

لكن لا يجب أن نغفل الثقافة العامة، حيث كان كل شيء وكل إنسان يتم التعامل معه لحظة الحروب بوصفه سلعة يتم تقديرها بالمال أو المقايضة عليها، وهذا ما كان الدين الجديد يسعى إلى حلحلته وتغييره.

يحتاج موقف النبي مع عوف بن مالك، قائد جيش هوازن، إلى بعض التأمل، سواء رسالته الشفوية إليه «إن جاءني مسلمًا...» وحتى وصول عوف إليه متخفِّيًا.

عوف قائد هُزم هزيمة ساحقة ومهينة، وكان قد بادر إلى الحرب والهجوم على المسلمين وعلى النبي نفسه، ومع ذلك عامله النبي كما لو كان منتصرًا، رد إليه ماله وأهله الذين عوملوا من اللحظة الأولى بتكريم وتقدير خاص، ثم كافأه النبي بأن ثبته في زعامة قومه، بالرغم من أن تلك الزعامة اهتزت كثيرًا بفعل الهزيمة وكان يمكن أن يفقدها، وأعطاه كذلك ثروة جديدة ضخمة، مائة من الإبل، الأهم من ذلك أن النبي كان المبادر بالسؤال عنه، والمبادر بالتواصل معه، لم يتحدث عنه بلفظ مسيء ولا كلمة جارحة، بل حديث عَف، غاية في الرقي والتهذيب، بالرغم من ضعف وهزيمة الخصم، وبالرغم من أنه كان خصمًا على الأصعدة كافة، سياسيًّا واجتماعيًّا وعقائديًّا. البذاءة وسلاطة اللسان ليست سلوكًا دينيًّا ولا اتجاهًا إنسانيًّا، حين تطل البذاءة اعلم أن التدين ليس صادقًا، مجرد قشرة براقة.

للوهلة الأولى قد يتصور البعض أن ما قام به النبي به شبهة التنازل أو التساهل في كثير من نتائج النصر الذي تحقق، غير أن التأمل العميق يضعنا أمام حقائق كان النبي مقتنعًا بها وتكشف عنها كثير من الأحداث.

أولى تلك الحقائق أن الحرب هي الخيار البغيض، لا يجب اللجوء إلى القتال إلا إذا سُدَّت أمامنا كل الطرق، ويمكننا القول إنه منذ النصر في «بدر» لم تعد الحرب خيارًا مطروحًا، وليست لها الأولوية لدى النبي، الحرب كانت اضطرارًا في كل الأحوال: غزوة أحد بادرت بها قريش انتقامًا لقتلاها الكبار في «بدر»، كذلك كانت غزوة بدر، حيث قاد عمرو بن هشام جيش قريش حماية لتجارتها، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ولما نجح أبو سفيان بعبقريته في الإفلات بالقافلة، وتجنب تمامًا مسار الجيش أرسل إليهم يعلمهم بذلك ويطالبهم بالرجوع إلى مكة ثانية، ولا مبرر للقتال مع المسلمين، لكن أبا جهل (عمرو بن هشام) رفض وصمم على مواصلة المسيرة لتلقين محمد ومن معه درسًا قاسيًا، فقُتل هو وكبار القوم. غزوة الخندق بادرت بها قريش أيضًا، وانتهت دون قتال، بعدها تكوَّن الاقتناع لدى النبي ولدى قادة قريش، تحديدًا أبا سفيان بن حرب، بأن ما بينهما حرب استنزاف، وأنه ليس بمقدور أي طرف القضاء على الآخر، ولن تحسم الحروب، وإن طالت أو اتسع نطاقها فيما بينهما.

من هنا بدأ الاتجاه إلى التفاوض، وأن يتنازل كل طرف قليلًا ويتقدم نحو الآخر خطوة والزمن يتكفل بحل الباقي، لذا وجدنا النبي يقدم على خطوة جسورة، إذ يجهز جيشه بعد الخندق ويصطحب المسلمين إلى مكة، ويعلم أهلها أنه جاء ليطوف بالكعبة متعبدًا ولم يأتِ غازيًا ولا محاربًا، تقاليد

سدانة الكعبة في مكة ألا يُمنع أحد من دخولها والطواف حولها، لكن من شدة خوف قريش تصوروا أن النبي إذا دخل بأنصاره وأتباعه وقد ازدادت أعدادهم وتضاعفت قواته قد لا يخرج ثانية، ولكن لا يمكنهم إعلان ذلك، من هنا بدأ التفاوض، وكان صلح الحديبية الذي انتهى وأدى في النهاية إلى فتح مكة دون قتال.

في هذه الاستراتيجية يكون وجود جيش قوي مهمًّا لإقناع الطرف الآخر بعدم التعجل وخوض القتال بحثًا عن بدائل أخرى. حين وقَّع النبي صلح الحديبية غضب بعض الصحابة لقبول شروط الصلح التي يعدها مونتجمري وات، في كتابه عن النبي، «تنازلًا مذلًّا» من النبي، وعمر بن الخطاب عدها قبولًا «بالدنيَّة في ديننا»، والحق أن قبول النبي تلك الشروط ـ وبعضها كان مجحفًا به وبالمسلمين، بالرغم من قوته التي أتاحت له أن صار على أبواب مكة ـ كان مستغربًا لدى الكثيرين، سواء بين المسلمين أو بين القرشيين ذاتهم، الأيام أكدت صحة موقفه وبُعْد نظره، إنها بالتعبير المصرى خسارة قريبة لنيل المكسب البعيد.

ليلة الفتح طلب النبي من عمه العباس أن يحجز أبا سفيان لديه حتى الصباح، وما إن رأى أبو سفيان سرايا جيش النبي حتى اصطكت أضلعه خوفًا، وهرول إلى قريش يحذرهم مغبة مواجهة النبي.

في «حنين» نجد أن ابن عوف هو من بادر بالهجوم، وأن الطائف كانت تتهيأ لاجتياح مكة.

لم يكن معبد الطائف في شهرة وقيمة الكعبة لدى العرب، وبعد سيطرة النبي على مكة، وضح أن مكة سوف تسحب كل الفرص من الطائف، لذا راحت الطائف تستعد لغزو مكة والقضاء على الوضع الجديد، والحفاظ على مكانتها وحماية مصادر ثرواتها ودخلها، وقد بلغت الرسول تلك المعلومة. كان ابن عوف متربصًا، وهكذا كانت غزوة هوازن، لذا لم يكن غريبًا أن يختفي ابن عوف داخل الطائف وبين أهلها بعد هزيمته.

حاصر جيش مكة الطائف، وضرب سورها بالمنجنيق، واكتشف النبي أن الحصار قد يطول والخسائر سوف تتزايد، لذا تشاور مع أبي بكر، وأمر في النهاية برفع الحصار والانسحاب، كان الحصار يعني أن الطائف لم يعد بمقدورها غزو مكة ولا التفكير في مواجهة النبي، وحين تعجز الحرب عن الحسم يجري التفكير في البدائل الأخرى، أصبح ابن عوف نموذجًا أمام ثقيف وقادة الطائف أنهم إذا سالموا النبي لن يخسروا شيئًا إن لم يحققوا على الأقل بعض المكاسب، نفوذهم باقٍ، تسيُّدهم مستمر، أموالهم مصونة، نساؤهم وأطفالهم يبقون معززين، الأهم من ذلك أن كبرياءهم وكرامتهم بين القبائل لن تُمس. ولذا وجدناهم في النهاية يبايعون النبي، صحيح أن ذلك استغرق أكثر من عام، لكنه في النهاية تم دون قتال ودون هلاك للزرع، فالطائف كانت منطقة زراعية.

الاستراتيجية التي تبناها النبي ثبتت فاعليتها بنجاح ساحق، ويمكن القول إن المدن الكبرى

الثلاث، يثرب ومكة والطائف، دخلها النبي بلا حرب، دخل يثرب مدعوًّا من أهلها، لأسباب خاصة بهم، كان الصراع الداخلي بين طرفيها الأوس والخزرج قد أرهقهم، وشعروا بالقلق من إمكانية تسيُّد الآخرين عليهم، كان اليهود يعايرونهم بأنهم ليسوا أصحاب كتاب مثلهم، وكان النبي والإسلام يمثل الكتاب لهم، لذا فإن مقولة إن الإسلام دين السيف، بحاجة إلى مراجعة تامة، المقولة نفسها التي يرددها كثير من المستشرقين والأوروبيين عمومًا تبناها معظم تنظيمات التشدد والإرهاب تحت مسمى الجهاد، راحوا يطبقونها ضد الدول والحكومات في المجتمعات العربية والإسلامية، فنشروا الإرهاب والخراب في كل مكان حلوا به، لم يحرروا وطنًا، ولا نشروا دينًا، ولا أقاموا العدل، ولا حرصوا على خُلُق، استباحوا كل شيء في الموصل بالعراق، وفي شمال سيناء قتلوا جنودنا وهم صائمون لحظة أذان المغرب في شهر رمضان الكريم سنة ٢٠١٢ وبعدها. انتهى بهم الحال إلى أن صاروا مجموعات من الميليشيا ترتزق بالقتل، لمن يدفع لهم أكثر، والواقع أمامنا في سوريا وليبيا، أصبحوا أدوات لدى بعض أجهزة المخابرات حول العالم، فأساءوا إلى الإسلام دينًا وحضارةً وإنسانيةً، كما أساءوا إلى ذكرى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد أن كان النبي نموذجًا لدى فلاسفة كبار مثل جوته وتوماس كارليل، ورمزًا عظيمًا للإنسانية والبطولة، صرنا نرى كيف يتم تصويره الآن في بعض المجلات الغربية.

مقولات السيف لدى المستشرقين وعند الجهاديين حولنا بحاجة إلى مراجعة جادة وتفنيد عميق، لأنها لا تستقيم ولا تتسق مع استراتيجية النبي في أن الحرب أبغض المباح أو أبغض الخيارات، ولا يجب اللجوء إليها إلا مكرهين أو مضطرين.

أمر لافت، يمكن أن نعده استثنائيًّا، في رسالة النبي إلى مالك بن عوف، قائد هوازن المهزوم، بدأت الرسالة بجملة: «إن جاءني مسلمًا...»، وهي الحالة الوحيدة في تلك المعركة أو أي معركة أخرى، في حدود ما نعرف، التي يعرض النبي فيها على إنسان وبكلمات مباشرة أن يصبح مسلمًا، هو عرض سخي قدمه له، ويمكن أن نعده طلبًا أو أمنية يتمناها عليه.

تعامل النبي في هذه المعركة مع عدد من كفار قريش والعرب وأدخلهم في جيشه وقاتلوا معه، وبينهم من تولى مسؤولية جسيمة في ذلك الجيش، قدرهم بعض المؤرخين بنحو ١٨ شخصًا، ارتفعت التقديرات في بعض المصادر إلى أكثر من ثمانين، وهذا هو التقدير السائد، مثل صفوان بن أمية والأقرع وعيينة، هم رؤوس أقوامهم وقبائلهم، ومع ذلك لم يطلب النبي إلى أي منهم ولا عرض عليه أن يكون مسلمًا هكذا وبشكل مباشر، لا قبل الحرب ولا بعدها، بالرغم من أن أكثر ما يسعد النبي هو أن يصير هؤلاء إلى الإسلام.

وقد يقال إن صفوان والأقرع ومن في وزنهم كانوا الأعيان، وما كانوا في لحظة ضعف ولا هُزموا عسكريًّا أمام جيش النبي، غير أننا نجد المهزومين الذين أُخذوا أسرى أو سبايا، لم يطلب النبي منهم أن يصبحوا مسلمين، أمامنا نموذج الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى، أخت النبي في الرضاعة، كانت سيدة عجوزًا، وكان بعضهم عنيفًا معها وهي تصيح فيهم: «إني والله أخت صاحبكم»، لم تقل «نبيكم».

لم يصدقوها، وتصوروا أنها تزعم ذلك لتنقذ نفسها وأسرتها، الذين اصطحبوها كانوا من الأنصار ولم يكن لديهم ـ كما يبدو ـ الكثير من التفاصيل عن طفولة نبي الله، لكن أمام إصرارها نقلوا إلى النبي ما قالت الشيماء، وكان أن طلب أن يراها ويسمع منها مباشرة.

قالت له: «يا محمد إني أختك». رد عليها النبي: «وما علامة ذلك؟». قدمت العلامة ومعها الكثير من التفاصيل، وذكرت بعض الوقائع، وكان النبي مستحضرًا كل ما جرى في تلك الأيام الخوالي التي مضى عليها قرابة الستين عامًا.

كان حوارًا وتذكرًا إنسانيًّا مؤثرًا، راح النبي يسألها عن أفراد أسرته (أسرتها) في الرضاعة، وثبت للجميع صدق الشيماء، وأنها أخت النبي فعلًا من الرضاعة.

قدم لها النبي رداءه لتجلس عليه، وعرض عليها: «إن أحببتِ فأقيمي عندنا محبة مكرمة، وإن أحببتِ أن ترجعي إلى قومكِ وصِلَتكِ رجعتِ»، فاختارت الرجوع، ورجعت معززة ومعها هدايا ثمينة تضمن لها عيشًا رغدًا، وأكثر من ذلك أنها تشفعت لدى النبي في عدد من قومها وقَبِل منها على الفور، في كل هذا الموقف لم يطلب النبي إليها أن تُسلم، فعلَتْ ذلك تلقائيًّا، وكانت سعيدة أنها أخت النبي، رضعا معًا من ثدي واحد وهدهدته طفلًا، تجمعهما معًا أسرة واحدة.

إذن، لماذا وجدنا النبي يطلب أو يعرض على مالك بن عوف أن يصبح مسلمًا؟

قد يحيل البعض الأمر كله إلى أن المنتصر في الحرب عادة يملي شروطه ويفرض مطالبه، وهذا صحيح تاريخيًّا. كان ابن عوف مهزومًا والنبي منتصرًا، لكن النبي لم يتعامل على هذا النحو، ولا طلب ذلك من أي طرف هُزم أمامه، في غزوة بدر الكبرى كان منتصرًا نصرًا حاسمًا ولم يطلب من أي فرد من كبار قريش أن يُسلم، ولا حتى من الذين كانوا أسرى في يد المسلمين كما أنه لم يفعل ذلك حين فتح مكة، بل إنه لما خرج إليه المَكِّيون خائفين مذعورين، ودار حديث: «ما تظنون أني فاعل بكم»، أو ما يُعرف تاريخيًّا بحديث الطلقاء، لم يطلب إليهم اعتناق الإسلام، وكان متاحًا له أن يأمر وليس فقط أن يطلب، لكنه ترك هذا الأمر لهم وظل بينهم من بقي على دينه القديم لفترة ليست قصيرة، فليس من نبل الخُلق استغلال ضعف الآخر، وهدف النبي النهائي كان الخُلق: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وقد يريح بعضنا ذهنه بأننا بإزاء لحظة حرب، حيث تسيطر القواعد والأعراف الاستثنائية في كثير من الأمور، وهذا صحيح في العديد من الجوانب، لكنه لا يصح في مجال اختيار العقيدة الدينية، إذ لا استثناء فيها، القرآن الكريم واضح وصارم في ذلك: «لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ»، وفي القرآن العديد من التنبيهات للنبي بتجنب أي نوع من الضغط أو الإكراه، حتى لو كانت من باب الحب لشخص ما، بدفعه دفعًا نحو الإسلام، وقد التزم النبي بذلك طوال البعثة النبوية واحتمل الكثير من العنت، إذن لا يمكن أن نفهم رسالته إلى مالك على أنها نوع من الضغط أو حتى الإكراه الناعم ـ إن صحت التسميات ـ بل هي محاولة لضمان تجنب احتمال تجدد القتال وحقن الدماء أو الدخول في حرب استنزاف لا طائل من ورائها.

يعرف النبي أن مالك شاب وقائد متهور لا ينقصه الحمق، وقد هُزم فاتجه إلى الطائف ليواصل القتال، هزم مالك في موقعة، لكن الهزيمة ليست النهاية، بل قد تكون البداية بالعقلية الثأرية والموقف العدائي لدى مالك تجاه مكة تحديدًا، بالنسبة إلى مالك لم يكن القتال ليتوقف نهائيًّا، وكان الرسول مستقرًّا في المدينة ومعه القوات المحاربة، أما مكة فستبقى مدينة أو قرية دينية بها الكعبة، التي هي مستهدفة من مالك وقبيلته ومن ثقيف والطائف. الحرب في النهاية تؤدي إلى الهلاك، وعند العرب فإن مقتل شخص واحد يهز قبيلة ويشعل حربًا لا تنتهي. هنا الضامن الوحيد لتجنب اشتعال الحرب مرةً أخرى هو تغيير موقف مالك بن عوف، أو على الأقل تحييده.

الإسلام في هذه الحالة يعني السلم والبُعد عن القتال، أحد التعريفات المهمة للإسلام أن يسلم الآخرون من لسانك ومن يدك، أي تجنب إيذاء الآخرين قولًا وفعلًا، وهذا ما أراده النبي من مالك، لأن البديل الآخر، حتى لو كان تصفية مالك وقتله، ليس محببًا ولا مفضلًا لدى النبي، ولا مأمون العواقب.

قدَّم النبي إلى مالك الكثير من الامتيازات والإغراءات، حتى يبدو منها أن النبي شديد الحرص

على اكتسابه، وأنه يُقدره كونه قائد وزعيم قومه، وبدا هذا التقدير في أن يرفع عنه حرج الهزيمة ويجنبه خيباتها وعارها، لم يعامله بوصفه قائدًا منهزمًا، فالشخصيات من نوعية مالك يهمها التقدير والإكبار الشخصي أولًا، وقد راعى النبي ذلك كله بأن رد عليه أهله وماله، الأهم من ذلك أنه هو الذي خطا الخطوة الأولى نحوه بالودِّ، إذ بادر بالسؤال عنه وتحدث عنه بتقدير وإكبار بين أهله أو من هم رعاياه، وأمام الجميع، وفي ذلك رد اعتبار له.

يجب القول إن النبي صلى الله عليه وسلم كان طوال تاريخه يراهن على دور زعماء وكبار القوم، لذا وجدناه في البداية، يتمنى على الله أن يعز الإسلام بعمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب، وبعد غزوتي بدر وأُحد كان رهانه على أبي سفيان بن حرب، وفي سورة «عبس» بالقرآن الكريم نجد عتابًا قاسيًا من الله إلى النبي لأنه انصرف عن عبد الله بن أم مكتوم مؤقتًا، وانشغل مع البعض من كبار القوم. في مجتمع الجزيرة العربية، وفي تلك المرحلة من التاريخ، كانت القبيلة تتحرك وفق رؤية شيخها أو كبيرها، لذا كان اجتذاب سيد القوم أو كبيرهم يعني اكتسابهم واجتذابهم جميعًا، وهذا ما جعل النبي يتحمل وقاحة عيينة في حديثه معه عن السيدة عائشة وبحضورها، ببساطة كان «المطاع في قومه».

ولما أراد النبي أن يعرض دين الله خارج الجزيرة العربية بعث برسائل إلى حكامها، وفي كل ذلك سوف نجد أن النبي لم يلجأ يومًا إلى ما يُطلق عليه اليوم «الخلايا النائمة» أو «الذئاب المنفردة»، هنا مسلك النبي واضح، إذ يأتي البيوت من أبوابها ويُقدِّم الدعوة إلى دين نبيل، فارق كبير بين هذا المسلك ومسلك الإرهابي الذي يجنِّد العملاء ويسعى إلى الهدم والتخريب وتسعده إراقة الدماء، وبناء مظلومية يبتز بها مشاعر وعواطف الأفراد والشعوب.

بهذا المعنى كان رهان نبي الله على مالك، وقد صح توقعه وصدق رهانه على الخير والسلام باجتذاب ابن عوف الذي استجاب فورًا لنداء النبي، وصارت تلك الجبهة آمنة تمامًا لا قتال فيها ولا اضطراب بها.

الأهم من ذلك أن مالك كان سببًا مهمًّا في مصالحة الطائف للنبي، وانتهى بذلك تنافس أو صراع مكة مع الطائف الذي كان قائمًا قبل الإسلام بزمن، وكان مرشحًا لمزيد من الاشتعال بعد تحول مكة نحو الإسلام.

المفاجأة التي يقدمها التاريخ لنا تثبت صدق رهان النبي على مالك وقومه والطائف عمومًا، اكتشف الجميع ذلك عقب وفاة النبي.

حدث أن تراجع وارتد كثير من العرب عن الإسلام بدعوى أنهم أسلموا من أجل النبي، أما وقد رحل إلى بارئه فقد أحلوا أنفسهم من التزامهم السابق، جرى ذلك حتى داخل مكة ذاتها، إلى حد أن واليها الذي كان النبي عيَّنه عليها اختفى تمامًا خشية أن يفتك به أهلها، وارتد كثيرون بمن فيهم عيينة، حتى قيل لهم: «يا أهل مكة، لا تكونوا آخر من دخل الإسلام وأول من خرج منه»، ومن

هنا ندرك المعنى العميق لكلمة الصديق أبي بكر: «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، ربما كانت المقولة ردًّا على من رفض استيعاب وفاة النبي، لكنها كذلك رد على من أرادوا اختزال الدين في وجود نبي الله فقط. المهم وسط هذه الحالة من التخبط بقي مالك وهوازن وثقيف، أي الطائف، ظلوا مسلمين مخلصين، ما ارتدوا وما تحولوا، وهذا يعني أنهم اتجهوا إلى النبي وإلى الدين الجديد صدقًا واقتناعًا.

قد يُفاجأ القارئ إذا عرف أن غزوة حنين، بكل ما جرى حولها وتداعياتها في التاريخ الإسلامي والإنساني، كبَّدت المسلمين عددًا محدودًا من الشهداء، بتعبير الواقدي في كتاب «المغازي»: «جميع من قُتل أربعة»، ويمكننا القول إنهم ثلاثة، ذلك أن ابن هشام في «السيرة النبوية» سجَّل أسماء الأربعة والقبيلة التي ينتمي إليها كل منهم، يذكر لنا أن أحدهم وكان من بني أسد، وهو يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد: «جمح به فرس له يُقال له الجناح فقُتل»، ويمكننا القول إن عدد القتلى في الطرف الآخر كان محدودًا، ذلك أنه ما إن بدأ الهجوم فرَّ قائدهم مالك بن عوف ومعه جيشه، ولم يكن لدى جيش المسلمين أمر بمطاردتهم، أما غير المقاتلين فكان هناك حرص نبوي شديد على عدم المساس بهم، وحدث أن قُتلت سيدة في أثناء المعركة والتف حولها عدد كبير من الناس، فاستفسر النبي عن هذا المشهد، وكان الجواب أنها امرأة قتلها خالد بن الوليد، فأرسل إليه فورًا هذا الأمر: «إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدًا أو امرأة أو عسيفًا»، العسيف هو الأجير، الذي يتحرك ودخل الميدان بأمر سيده وليس بقراره الحر. معنى الأمر الواضح والمباشر أنه صلى الله عليه وسلم يمنع قتل المدنيين أو غير المقاتلين من الكفار لحظة الحرب، فإذا كان الأمر النبوي على هذا النحو بالنسبة إلى الكفار والمشركين فما بالنا في زماننا بمن يقتلون المسلمين والمؤمنين؟

ولما توجه النبي بالجيش إلى الطائف، وهي مركز العداء له وللدين الجديد، حاصرها وقاوم أهلها وبعد عدة أيام تبين أن الحصار سوف يطول، إذ توافرت المعلومات أن لديهم من الغذاء ما يسمح لهم بتحمل شهور من الحصار، ولديهم الكفاية من السلاح مما يسمح لهم بمواصلة القتال، وحصونهم منيعة، وقد تكبد جيش المسلمين ١٢ شهيدًا، هنا قرر النبي فك الحصار والانسحاب، تجنبًا لمذبحة لا يريدها بين الطرفين، وفتح الطريق أمام ما نطلق عليه الآن «العمل الدبلوماسي»، وتحقق به ما كان سيتحقق عبر المجزرة المتوقعة، باختصار تجنب القتال وسقوط الشهداء والقتلى.

وإذا عدنا إلى غزوتي بدر الكبرى وأُحد، وهما الأكبر والأخطر في تاريخ الإسلام وفي العصر النبوي، نجد الآتي: في «بدر» استشهد ١٤ مسلمًا، بينهم ٨ من الأنصار والباقي ٦ من المهاجرين. أما قريش فقُتل لها ٤٩ رجلًا لم تجف دموع قريش عليهم حتى بعد فتح مكة، وعُدَّت هزيمة مهينة ومروعة لهم، أي أننا أمام ٦٣ شهيدًا وقتيلًا على الجانبين.

في غزوة أُحد، وهي الأشد قاطبة، استشهد ٦٥ مسلمًا طبقًا لابن إسحاق، وارتفع ابن هشام بالرقم إلى ٧٠، حزن عليهم النبي حزنًا شديدًا، وفقد الكفار ٢٢ من مقاتليهم، أي أننا بإزاء ٩٠ شهيدًا وقتيلًا في الجيشين المتصارعين.

وهناك عدد من الدراسات الإحصائية أثبتت أن كل الحروب أو الغزوات التي خاضها نبي الله سقط فيها من جيش المسلمين والجيوش المضادة أو المعادية معًا أقل من ألف.

عمومًا سوف نجد حرصًا شديدًا من النبي على حياة أصحابه ومقاتليه، كان يوصيهم دائمًا بلبس الدروع تجنبًا لسهام العدو، وكان حريصًا كذلك على تجنب القتال والقتل حتى في صفوف الأعداء (الكفار)، وغزوة الطائف وكذلك غزوة تبوك تثبتان ذلك.

فكرة «المؤلفة قلوبهم» التي أقدم عليها نبي الله ونزل فيها قرآن كريم، كانت واحدة من الوسائل لتجنب القتال والكراهية في المجتمع.

المعنى هنا، أنه بالرغم من عظمة ونبل الاستشهاد ومكانة الشهيد وعظم أجره عند الله ورسوله، فإن الاستشهاد لم يكن هدفًا بحدِّ ذاته لدى رسول الله، فالحرب كلها عنده فعل اضطراري، والاستشهاد في الحرب أيضًا، الأصل هو الحرص على الحياة، والأصل كذلك هو السلام وإعمار الأرض.

حتى في الحرب يجب تجنب القتل العشوائي والمجاني للخصوم، ذلك أن الحرب سوف تنتهي حتمًا وسيجلس الطرفان معًا بعدها للتهدئة أو للتصالح، حدث ذلك بعد «بدر الكبرى» مباشرة، وبعد «أُحد» أيضًا، وبعد كل غزوة.

الواقع أن كثيرًا من جماعات العنف التي تتسربل بالدين اعتبرت أن الاستشهاد هدف في حد ذاته، وأنه معنى مطلق يتم اللجوء إليه في أي وقت ولأي غرض يحدده المرشد أو الأمير وتنميته لدى المنخرطين في تلك الجماعات، وليس فقط في ميدان المعركة الحربية، لذا وجدنا مقولات من عينة شعار جماعة الإخوان «الموت في سبيل الله أسمى أمانينا»، ولأن الأمر كذلك عندهم يسجل التاريخ تكليفًا لأحد الشباب باغتيال أحمد ماهر، رئيس وزراء مصر حينها، لأن حسن البنا عدَّه مسؤولًا عن عدم نجاحه في انتخابات مجلس النواب مطلع الأربعينيات بمدينة الإسماعيلية. تفاصيل العملية وردت في مذكرات كل من محمود عساف سكرتير حسن البنا الخاص، وسيد سابق، والشيخ أحمد حسن الباقوري.

الشاب الذي نفذ عملية الاغتيال فعل ذلك تنفيذًا لشعار «الموت في سبيل الله أسمى أمانينا»، وقد حوكم هذا الشاب الذي كان من أسف دارسًا للقانون ويعمل بالمحاماة، وهو محمود العيسوي، وتم إعدامه. مات في سبيل المرشد العام وليس في سبيل الله، قتل زعيمًا وطنيًّا وأُعدم من أجل مقعد في مجلس النواب، وليس دفاعًا عن وطن ولا نصرة لدين. وسمعنا من يهتف: «على القدس رايحين، شهداء بالملايين»، ولم يكن غريبًا أن الذي كان يردد هذا الهتاف بين الشباب غرَّر بهم ثم ولَّى هاربًا، ليس نحو القدس ليحررها، بل نحو الحدود الغربية إلى ليبيا الشقيقة ليشعلها نارًا، ويملأها دمًا، ولما أُمسِك به عَرَض على رجال الأمن أن يستخدموه، وأن يقول كلامًا معاكسًا تمامًا لما نعق به من قبل بين الفتية والشباب الصغار.

الاندفاع نحو الموت لمظنَّة الاستشهاد، يؤدي فعليًّا إلى ممارسة القتل، هكذا قتلوا أحمد ماهر والمستشار أحمد الخازندار والنقراشي باشا، بل وجدنا بينهم من يندفع صيف سنة ١٩٧٧ نحو بيت

الشيخ محمد حسن الذهبي العالم الجليل، ويختطفونه ويحتجزونه في مكان سري ثم يقتلونه، متصورين أنهم بذلك يجاهدون ويبحثون عن الاستشهاد.

ولا أفهم لماذا يجب أن يكون الشهداء بالملايين، هي صياغة قائمة على الجرس والسجع، تفرز إرهابيين ولا تخلق محرري وطن أو مدينة، رسول الله حرر الكعبة المشرفة ومكة المكرمة من دون شهيد واحد، في عصرنا الحديث حُرِّرت الجزائر بمليون شهيد فقط، وليس ملايين، وهو أكبر رقم في التاريخ المعاصر، وربما في التاريخ الإنساني كله.

البطولة ليست في كثرة عدد الشهداء، كما أن قلَّتهم لا تعني قلة في الشجاعة، ولكن في أن يُحرر وطن وأرض محتلة، وأن تُحمى حدود البلاد وتُصان. حين كانت مصر تخطط لعبور قناة السويس وتدمير خط بارليف، قيل للقيادة التي تخطط إن التقديرات العلمية (العالمية) من كبار العسكريين تذهب إلى أن المحاولة المصرية تعني أن تقدم مصر ٨٠ ألف شهيد، ارتفع البعض بالرقم المتوقع إلى ٢٠٠ ألف شهيد، لم تُخِف هذه التوقعات القيادة المصرية، كما أنها تجنبت أن تلقي بأبنائها في أتون النار، واتخذت كل التدابير ليكون الشهداء عند الحدود الدنيا، مثل إغلاق أنابيب النابالم في قاع قناة السويس، التي كان من المقرر أن تلهب الجنود الذين يعبرون، ومثل الاستعانة بخراطيم المياه لإزالة الساتر الترابي على الشاطئ الشرقي للقناة بدلًا من دكِّه بالطائرات أو المدفعية الثقيلة، وكُلِّلت العملية بنجاح باهر، وكان شهداء هذه العملية العظيمة والباسلة عند الحدود الدنيا.

هذه الجماعات وتنظيماتها تدفع شبابها عمدًا نحو الموت بأكبر عدد منهم أو السجن، لخلق مظلومية أو محنة يتعيَّشون عليها ويتكسَّبون من ورائها ماليًّا وسياسيًّا، وفوق ذلك بناء حالة ثأرية وانتقامية لدى كوادرهم تجاه المجتمع كله ومؤسسات الدولة، وتناقلها من جيل إلى آخر، لذا تجدهم يشعرون بنشوة ولذة وهم يتحدثون عن المحنة أو المِحَن التي تعترضهم، والأصح أنهم يتعمدون صناعة المِحَن.

وهكذا نجد شعارات الموت والدعوة إلى القتل تتحول إلى نشيد الصباح في مدارس وحلقات الجماعة، بل سمعنا مأفونًا منهم يسب المصريين عمومًا وأبناء الشرقية تحديدًا، بوصفه من أبنائها، لأنهم لم يحملوا الكلاشنيكوف ويهاجموا مدينة الإنتاج الاعلامي، القتل بات شعارًا لدى جماعة وتنظيم عشوائي خارج على القوانين.

نحن عمليًّا بإزاء جماعات وتنظيمات تخلق مناخًا ثقافيًّا وفكريًّا، وتهيئ جوًّا نفسيًّا يسمح بتكوين إرهابيين لديهم تُكَأَة دينية وشرعية لتبرير ما يطلقون عليه «إدارة التوحش». للمرة المليون دين الله لا يسمح بذلك، لا يقبل به، ورسول الله يرفضه، وحذَّر من هؤلاء.

والنتيجة أن الدعوة إلى التخريب والقتل لدى هؤلاء مسألة هينة تمارَس لذاتها حتى يومنا هذا، والمؤكد أن مواقف رسول الله مع أعدائه وفي غزواته تدحض كل مقولاتهم وتسقط أفكارهم.

اهتم كثير من المؤرخين وكُتَّاب السِّيَر القدامى والتراجم، واهتم بعض الكُتَّاب من المحدثين بأولئك الذين أعطاهم النبي من الفيء بعد غزوة حنين، وسبب هذا الاهتمام، كما يبدو، أن العطاء على هذا النحو لم يكن متوقعًا، وكان كبيرًا للغاية إلى درجة فاقت التوقعات، ومعظمهم بين كافر أو مشرك، أما من أسلم منهم فقد كان إسلامه حديثًا جدًّا، مثل أبي سفيان بن حرب، أي بلا سابقة ولا أقدمية في الإسلام، الأمر الذي أثار حفيظة وغضب عدد من المسلمين، وأثار شكوك الأنصار ومخاوفهم من أن رسول الله يستبدل القرشيين بهم، وأن الحنين إلى مكة وأهلها يأخذه بعيدًا عنهم وعن مدينتهم. كان موقفه صلى الله عليه وسلم واضحًا، وهو أن المال هيّن، وأنه يجب ألَّا يكون الغاية النهائية لدى المسلم، لكن المال كذلك لدى هؤلاء الذين أعطاهم، وأنه أعطى بسخاء ليتألف قلوبهم، وبالرغم من أن الأمور هدأت وزال الغضب، لكن بقي في نفوس المؤرخين شيء من هذا الأمر، لذا راحوا يتتبعون مسيرة هؤلاء وخطوات كل منهم في كل صغيرة وكبيرة بعد ذلك، هل أسلم؟ ومتى؟ وكيف كان حاله بعد الإسلام؟ وهل كان مسلمًا مخلصًا أم مرائيًا ومنافقًا؟ وهكذا تترى التساؤلات، وإن شئنا الدقة الشكوك، بل الاتهامات.

المسكوت عنه في هذه الأسئلة هو: هل ثبت استحقاقهم للعطاء النبوي؟ وهل تحقق ما توقعه النبي وأراده لهم ومنهم؟ والحق أنه اعتراض ضمني أو صامت على خطوة نبيلة وعظيمة أقدم عليها رسول الله.

تقول الوقائع إنهم جميعًا اعتنقوا الإسلام بعد ذلك، وهذا كان متوقعًا فقد كان عالم ما قبل الإسلام في مكة يتبدد، وسوف نقرأ عن بعضهم جملة متكررة لدى كُتَّاب السير: «وقد حَسُن إسلامه»، مسألة حسن إسلامه أو لم يحسن، تعتمد على موقف ورؤية المؤرخ، وعلى ما هو سائد ومعروف عن كل منهم، فضلًا عن انحيازه فيما استجد من أحداث بعد ذلك، خاصةً الفوضى التي انتهت بمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان وما بعدها.

الوقائع الثابتة، كما سبق القول، أنهم اعتنقوا الإسلام طوعًا، بل إنهم ثبتوا على الدين بعد وفاة النبي، وفيهم من صاح بالمسلمين لحظة الوفاة بنفس ما قاله أبو بكر الصديق: «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، ثبتوا جميعًا إلا الأحمق عيينة بن حصن، الذي ارتد فيمن ارتدوا زمن الخليفة الأول، ولما أُلقي القبض عليه وسُلِّمَ إلى أبي بكر عفا عنه وأسلم من جديد. من المهم ملاحظة أن الارتداد عقب وفاة النبي مباشرة ساد في مكة أكثر من أي مكان آخر، ولم يكن عيينة حالة استثنائية.

والحق أن تساؤلات المؤرخين وكُتَّاب السير تحصر الدين والاعتقاد على الأغلب في المواقف والاختيارات السياسية والانحياز إلى هذا الأمير أو ذاك، والميل إلى بيت أو أسرة من أُسَر الحُكم،

أو يحصرونه في بعض الممارسات والعبادات، لكن الدين أكبر وأعمق من ذلك بكثير، إنه حالة روحية ونفس وضاءة لا تنطوي على حقد أو غل، فالقتلة الذين اعتدوا على حياة الخليفة الثالث عثمان بن عفان كانوا يصنفون أنفسهم ويضعهم البعض في خانة التقاة الأكثر غيرة وحرصًا على دين الله، أحدهم نظر لحظة الجريمة بشَبَق إلى السيدة نائلة زوجة الخليفة لحظة مقتله وهي تحاول الدفاع عن زوجها وحمايته، وحاول ـ كما تذكر بعض المصادر ـ التحرش بالزوجة المخلصة والصابرة.

عبد الرحمن بن ملجم، قاتلُ علي بن أبي طالب، كان من الأشد مداومة على قراءة كتاب الله، هو ومن على شاكلته، وكان يطلَق عليهم «القُرَّاء» لكثرة قراءتهم كتاب الله، قال فيهم نبي الله لأصحابه: «تهون صلاة وصيام أحدكم إلى جوار صلاتهم وصيامهم».

تساؤلات المؤرخين والإحن السياسية في الصراع بين العلويين أو الطالبيين والأمويين جعلت من ألفة القلوب التي أرساها نبي الله عقب «حنين» مباشرة مادة للتندُّر وللتهكم السياسي، بالرغم من أنها قاعدة أرساها نبي الله وأقرها القرآن الكريم، هدفها منع الإحن والكراهية لدى غير المسلم، تحديدًا الكافر، فلا يقدم على أي شر أو ضرر تجاه المسلمين. لا يملك النبي أن يُكرِه أحدًا على اعتناق الإسلام، ولكن لا بُدَّ من التعايش بين المسلم والكافر، والبداية عدم وجود كراهية ورفض يمكن أن يتحول إلى عنف يخسر منه الجميع، وبهذا المعنى فإن ما قصده نبي الله تحقق كاملًا، إما أن يعتنق الإسلام أو يظل على موقفه لا يتحول، لكن يتم تحييده، يحسُن إسلامه أو لا يحسُن، هذا كله متروك له ويحاسب عليه أمام الله سبحانه وتعالى.

وحين نعود إلى التاريخ الإسلامي، نجد أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، في لحظة معينة أوقف مخصصات المؤلفة قلوبهم في بيت المال، كان يصرف لهم من «الخزانة العامة» مبلغًا (راتبًا) محددًا، فقد شعر أنهم لم يعودوا بحاجة إلى ذلك المال، فضلًا عن شعوره بأن الدين رسخ في نفوسهم، لكن تأليف القلوب له أوجه عديدة، ويظل احتياجًا مجتمعيًّا وإنسانيًّا. منذ نهاية حكم معاوية بن أبي سفيان، نجد قاعدة ألفة القلوب سواء بالمال أو بالتعاطف والتواد والتراحم الإنساني قد جرى إهمالها في حالات ليست قليلة، تأمل المذابح التي وقعت في الدولة العثمانية بحق مسلمين وغير مسلمين، ثم نتساءل: أين ألفة القلوب التي أرساها نبي الإسلام؟

وحين نسمع من يطالب بمقاطعة غير المسلم الذي يقيم معك في نفس المجتمع، أو ربما في نفس الشارع والعمارة السكنية، وألَّا نبادله التحية والود ولا نهنئه بالعيد، فلا بُدَّ أن نتساءل: أين هذا مما أرساه النبي من ألفة القلوب؟ وحين يطل علينا فقيه مناديًا بأن نضيّق على غير المسلمين الطريق وننبذهم، هل لنا أن نأخذ بما يقول به ويراه ونتجاهل ما فعله رسول الله؟!

الذين ألَّف النبي قلوبهم اطمأنوا وسعدوا. إن النبي لا يحمل أي ضغينة لهم بسبب سابق عدائهم له وللإسلام، وأنه يقدر ويحفظ لهم مكانتهم الاجتماعية، عاش صفوان بن أمية ممتنًّا ومخلصًا لرسول

الله، وقد أثار بعض المكِّيين قلقه، إذ ذكروا له أن المسلم الحق هو من هاجر من مكة، وأنه من دون هجرة فإن إسلامه منقوص، فذهب إلى المدينة قلقًا، ونقل إلى النبي ما سمعه، وأنه يريد أن يستقر بالمدينة مهاجرًا «بعد انتهاء زمن وظروف الهجرة»، فهدأ من روعه وطلب إليه أن يعود ويبقى بمكة مطمئنًا وألَّا يغادرها أبدًا، وأنه «لا هجرة بعد الفتح». فيما بعد، في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فُتحت الشام والعراق، واتسعت الدنيا أمامهم، وفي أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان عُرِض عليه أن ينتقل إلى الشام، حيث الضِّياع والقصور والأملاك الواسعة، وكان ذلك ميسورًا له فرفض امتثالًا لنصيحة النبي له بألَّا يغادر مكة.

بين المؤلفة قلوبهم، يبقى أبو سفيان بن حرب، حالة خاصة جدًّا، ذلك أنه اعتنق الإسلام قبل فتح مكة مباشرة، وكان ابنه معاوية قد سبقه إلى الدِّين بفترة ليست قصيرة، صار مسلمًا مع صلح الحديبية، طبقًا لمعظم الروايات، ولم يكن أبو سفيان بحاجة إلى أن يثبِت إخلاصه للدين الجديد، ذلك أنه شارك في معركة الطائف عقب «حنين» مباشرة، واستعمله رسول الله للتفاوض معهم، ولما لم ينجح التفاوض قاتل وأصابه رمح في عينه ففقدها، أي أنه جاهد وأصيب، لذا فإن عطاء النبي له من الفيء كان تقديرًا له ولأبنائه، وللتأكيد على أن الإسلام يَجُبُّ فعليًّا ما قبله.

واقع الأمر أن أبا سفيان عاش سنواته الأخيرة ضريرًا، حيث فقد عينه الثانية في إحدى المعارك، وتكاد تجمع معظم المصادر الإسلامية على أن رسول الله قبل لحاقه بالرفيق الأعلى قد ولاه أو استعمله على نجران، وأن ابنه معاوية كان كاتبًا لرسول الله، ورأى البعض أنه كان من كُتَّاب الوحي، وإن كان ذلك غير مؤكد. وقد شارك معاوية وأخوه يزيد في معظم المعارك، وكان يزيد أحد القادة في فتح الشام، ومع ذلك تجد الكثير من الكتاب والمؤرخين يرمونه بالنفاق، وأنه لم يخلص يومًا للإسلام، وأنه عاش حاقدًا على نبي الله وعلى الإسلام والمسلمين.

قد يكون ذلك مفهومًا بالنسبة إلى المؤرخين المأخوذين بالصراع السياسي الذي صار مذهبيًّا بين علي ومعاوية، ويحاول هؤلاء أن ينفوا أي إيجابية للأمويين، ومن باب التأصيل لموقفهم يبدأون بلعن أبي سفيان، رأس الأسرة، وتجريده من أي فضيلة، لكن ماذا عمن هم خارج تلك الدائرة؟ حتى إن كاتبًا ومفكرًا في وزن الأستاذ عباس محمود العقاد يهوِّن من أمر عداء أبي لهب للنبي إلى جوار أبي سفيان، بل إنه يكاد يجعل الأمويين سببًا مباشرًا لعداء أبي لهب، فقد كانت أم جميل زوجة أبي لهب أموية، بالرغم من أن القرآن الكريم كان قاطعًا في إدانة أبي لهب، وجعل عداء زوجته لاحقًا بعدائه هو.

العداء السياسي والمذهبي أدى إلى اتهام أبي سفيان في ضميره وفي أخلاقه، ومن ثَم تجاهل دوره شخصيًّا في التاريخ الإسلامي منذ لحظة البعثة النبوية.

تعامُل النبي صلى الله عليه وسلم مع الكافر صفوان بن أمية والكافر سهيل بن عمرو وقبولهما في جيش حنين، ثم تعامله الكريم معهما ومع غيرهما، سواء من أولئك الذين ظلوا على دينهم القديم أو بعض المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام حديثًا، يكشف عدة أمور يتعلق بعضها بطبيعة الدين الجديد (الإسلام)، وبعضها يتعلق بشخصية النبي نفسه واللحظة التاريخية التي جرت فيها تلك الأحداث.

أول هذه الأمور أننا بإزاء قاعدة في التعامل مع المخالفين والمغايرين ـ سواء كانوا من «الكفار»، أي الذين لا يعتنقون الدين، بل يرفضونه كذلك، أو التعامل مع من هم على الدين نفسه، وإن كان هناك تنوع بينهم ـ هي قاعدة ألفة القلوب، أو تأليف القلوب. ولم تكن هذه القاعدة نتاج تعامل رسول الله، في أثناء معركة حنين وبعدها فقط، ولكن نزل الوحي في الحض عليها وتأكيدها، ووردت ألفة القلوب في القرآن الكريم عدة مرات، وجَعَل القرآن سهمًا في توزيع الصدقات ـ أي جانبًا منها ـ للمؤلفة قلوبهم، غير أن تأليف القلوب أوسع وأعمق من عطاء الصدقة والمال، لأنه يقع في حالات كثيرة، وقد تناسينا طويلًا، تلك القاعدة، في العديد من التعاملات الاجتماعية والإنسانية، بل هي واجبة حتى في التعاملات الدولية. ألفة القلوب تكون بين المسلم والمسلم، وبين الحاكم والمحكوم، وبين المسلم والكافر أيضًا.

الواقع أننا لم نتناسَ ألفة القلوب فقط، لكن وجدنا من يبتدعون نظرية مضادة لنظرية رسول الله والقرآن الكريم، أتحدث عن نظرية «الاستعلاء» التي نادى بها سيد قطب، وخط أسسها وكرَّس لها في كتابه «معالم في الطريق»، خصص قطب فصلًا كاملًا بعنوان: «استعلاء الإيمان»، قال فيه نصًّا إن الاستعلاء هو «الحالة الدائمة التي ينبغي أن يكون عليها شعور المؤمن وتصوره وتقديره للأشياء والأحداث والقيم والأشخاص سواء»، والاستعلاء عنده يجب أن يكون مصاحبًا للمؤمن دائمًا في كل حال ومع كل موقف، يقول سيد قطب: «الاستعلاء مع ضعف القوة وقلة العدد وفقر المال كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء»، ولمَّا كان هذا الخطاب موجهًا في المقام الأول إلى جماعة الإخوان ليتدارسوه، فهذا يعني أن المستهدف الأساسي بالاستعلاء عليه هو المواطن المصري الذي ليس عضوًا بالجماعة، أي الذي هو مسلم، فما بالنا بالمواطن غير المسلم؟!

والواضح أن الاستعلاء صار سمة شخصية تتحكم فيهم، حتى سمعنا من شباب الجماعة بُكائيات من استعلاء القيادات عليهم، ومن قُدر عليه أن يتعامل مع أفراد من قيادات الجماعة يدرك مدى الاستعلاء الذي يملأهم، هل حدث أن قدمت لأحدهم معروفًا وبدلًا من أن يوجه لك الشكر أو يعبِّر عن قدر من الامتنان، يواجهك بغطرسة شديدة قائلًا: لقد سخرك الله كي تفعل لي هذا الأمر. أما تعاملهم مع المصريين عمومًا فلم يكن سوى مواقف وحالات من الاستعلاء المبني على أساس أنهم

امتلكوا دين الله واحتكروه لهم.

الاستعلاء كونه أسلوبًا للتعامل على المستوى الفردي والسياسي أو الإنساني كله، فكرة لا تعود إلى أي من الأديان التوحيدية، خاصة الإسلام، فالفكرة منافية لروح الدين، ومصدرها الأساسي فلسفة وأفكار الفيلسوف الألماني نيتشه الذي عاش في القرن التاسع عشر، فهو صاحب نظرية وفكرة «الإنسان الأعلى» أو «السوبر مان»، بديلًا عن فكرة الألوهية التي سيطرت على الفكر والأخلاق المسيحيَّين، كان نيتشه ينكر وجود الله، والحق أنه صاغ الفكرة بطريقة غريبة، إذ قال نصًّا: «الإله قد مات، وولد الإنسان الأعلى»، وضع فكرته تلك في كتابه الأشهر «هكذا تكلم زرادشت»، وله أكثر من ترجمة إلى العربية، وقد يتساءل البعض: هل كان سيد قطب يعرف نيتشه ودرَسه؟

الواقع أن نيتشه كان معروفًا في الأوساط الثقافية المصرية والعربية، منذ مطلع القرن العشرين وجدنا بعض كتابات عنه في عدد من الدوريات الثقافية، مثل مجلة «الهلال» وغيرها، وفي الأربعينيات ذاع صيته بعد أن وضع الدكتور عبد الرحمن بدوي كتابًا شاعريًّا عنه، ثم تلاه الدكتور فؤاد زكريا بكتاب آخر، وأخذت الكتابات عنه تكثر، فضلًا عن بعض الترجمات لعدد من نصوصه الفلسفية. التقط سيد قطب هذه الفكرة ليصوغها في سياق آخر وجديد هو سياق الصراع السياسي والاجتماعي بين آراء تقسيم العالم والدنيا كلها إلى معسكرين أو حزبين: «حزب الله»، ويضمه هو فقط ومن معه من الأتباع أعضاء الجماعة، والآخر «حزب الشيطان»، وهؤلاء يجب الاستعلاء عليهم ومعهم.

الاستعلاء بالمعنى الفردي، أي إذا مارسه فرد بذاته تجاه الآخرين، يتنافى تمامًا مع قاعدة أو فضيلة دينية هي التواضع، الحكمة السائدة تقول: من تواضع لله رفعه، والقرآن الكريم حثَّنا على التواضع، في سورة «لقمان»، الآية ١٨، نقرأ قوله تعالى: «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ»، ونقرأ في آية أخرى في القرآن قول الله تعالى: «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا»، وهناك العديد من الأحاديث النبوية، فضلًا عن عبارات وحِكَم الأئمة والصالحين، التي تحذرنا من الاستعلاء على الآخرين.

وفي الثقافة العربية الكثير من الانحياز لفضيلة التواضع، ورفض الاستعلاء بمعناه المطلق، الذي قصده نيتشه ونقله عنه قطب، نحن جميعًا نعرف موقف الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري:

خَفِّفِ الْوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الْـ أَرْضِ إِلَّا مِنْ هَـذِهِ الْأَجْسَـادِ

وقد يكون مفهومًا أن يمارس الغني وصاحب الجاه والسطوة غرورًا واستعلاء على غيره من الضعفاء والمحتاجين، أو حتى بإزاء منافسيه وحساده، لكن كيف يمكن أن يمارس الضعيف

استعلاء على الآخرين، هنا لا يصبح الأمر منطقيًّا ولا يدخل في مجال العقل، بل يحتاج إلى المتخصصين في علم النفس، لأن الأمر يبدو أقرب إلى الاختلال النفسي والوجداني، وربما العقلي أيضًا.

الاستعلاء على المستوى الفردي يضرب قيمة أخلاقية ودينية وإنسانية رفيعة وهي التواضع، لكنها حين تكون بشكل جماعي أو تنظيمي على النحو الذي وجه به سيد قطب النداء إلى طليعته من الجماعة، فإنه في هذه الحالة يتنافى تمامًا مع القاعدة التي أرساها النبي، وهي تأليف أو ألفة القلوب. كان النبي حريصًا على ألَّا يمارس المسلم الاستعلاء على أي إنسان قطُّ. حين جاء عبد الله بن سهيل ليقابل النبي بعد الفتح، وكان هو من طلب أن يلتقى النبي، يريد أن يطلب العفو لأبيه، فالتفت النبي إلى أصحابه، وفيهم الكبار، قائلًا لهم: «من لقي منكم سهيلًا، فلا يشد النظر إليه»، أي لا ينظر نحوه بحدة ولا باندهاش أو استنكار لكونه كافرًا. باختصار، وطبقًا للأمر النبوي، ليس للمسلم أن يؤذي الكافر ولو بنظرة العين، النظرة قد تكون جارحة أو مهينة ومؤلمة، هذا الأمر لم يكن خاصًّا بعمرو أو صفوان بن أمية وحدهما، ومن مراجعة «تاريخ الطبري» نعرف أنهما لم يكونا وحدهما، كان هناك آخرون ظلوا حتى بعد الفتح على موقفهم، أي لم يصبحوا مسلمين.

يمكن أن نضيف هنا موقفه صلى الله عليه وسلم، من عكرمة بن أبي جهل. ورث عكرمة عن والده عمرو بن هشام كراهية الإسلام انطلاقًا من كراهية النبي بشكل شخصي، ولما اقترب النبي بجيشه الضخم من مكة، تهيأ للمقاومة، وقال سوف أمنع بسيفي محمدًا من دخول مكة، ورفض الاستجابة لنداء أبي سفيان بن حرب بالدخول إلى البيوت وتجنب مواجهة الجيش، وورد في بعض كتب التاريخ أنه لم يكن بلغه نداء أبي سفيان، ولا علم باتفاق الأخير مع النبي. المهم أنه قاد قوة من فرسان مثله محدودة العدد ليقاتل بها، فوجد أمامه خالد بن الوليد، الذي لم يُهزم في معركة، وانتهى الأمر بمقتل من معه جميعًا، وفر هو إلى البحر ينتظر مركبًا ليذهب إلى اليمن يقضي أيامه بها، كان الوصول إلى اليمن يتم عبر الصحراء، وليس عبر البحر، فضلًا عن أن المسافة شاسعة بين مكة والبحر، لكن هكذا تتحدث كتب التاريخ، وكانت زوجته قد أسلمت، فذهبت إلى النبي تطلب أمانًا لزوجها، فوافق الرسول ومنح الأمان، وما إن خرجت لتذهب إليه تستعيده، وتحمل معها الأمان له، التفت النبي إلى صحبه قائلًا: «سوف يأتيكم عكرمة، فلا تسبوا أباه، فإن السباب لا يصل إلى الميت، ويؤذي الحي»، أي ليس مسموحًا للمسلم أن يؤذي غيره بالكلمة، السباب مرفوض ومستهجن حتى لو كان في حق أبي جهل، ولما وصل عكرمة مكة وذهب إلى النبي يتأكد من الأمان، يخبرنا ابن هشام في «السيرة النبوية» وكذا ابن سعد والواقدي وغيرهم أن النبي حين رآه «وثب إليه» مُرحبًا به، وقال عكرمة: «يا محمد إن هذه تقول إنك منحتني الأمان». لنلاحظ هنا خطابه مع النبي، مجردًا من أي صفة إلا اسمه، ولا ينزعج النبي ولا يغضب، ويرد عليه النبي مؤكدًا الأمان، فيخجل عكرمة متذكرًا ماضيه، ويحاول التبرير، فيعفيه النبي من الحرج، قائلًا:

«إن الإسلام يجبُّ ما قبله».

مجددًا، إنها قاعدة ألفة القلوب لا الاستعلاء ولا الغطرسة، كان النبي أكثر من نالته شرورهم، وكان المبادر بالعفو والتسامح والغفران. التسامح وألفة القلوب هما الأصل، أما الاستعلاء فهو عنوان الموتورين والمضطربين المهزومين في أعماقهم.

وضع النبي قاعدة ألفة القلوب، وهناك طائفة أطلق عليهم «المؤلفة قلوبهم»، وهم أهل مكة الذين لم يهاجروا مع النبي إلى يثرب، وحدد لهم النبي مخصصات وحقوقًا مالية، ويقول المؤرخون إن النبي قصد بذلك أن يستميلهم إلى الإسلام، لكن الواقع، أن معظمهم دخل الإسلام قبل تلك المخصصات، ومن لم يعتنق الإسلام لم يكن معاديًا له، ويبدو لي أن النبي أراد ألا يكون هناك في المجتمع فئة يبدو أفرادها كالمنبوذين أو أقرب إلى مواطنين من الدرجة الثانية، يعيَّرون ولو في صمت بماضيهم وتاريخهم السابق في رفض الدين، بل العداء له والحرب عليه. تلك المخصصات كانت حق المواطنة الكاملة التي طبقها النبي وأرادها في المجتمع، ابن مكة يظل ابنها، عليه واجب الدفاع عنها وله حق الحياة الكريمة حتى لو لم يعتنق الإسلام، المهم ألا يكون معاديًا وشريرًا تجاه المجتمع. حدث أن بعض الأنصار أبدوا بعض الامتعاض من تلك المخصصات، فاجتمع بهم النبي وشرح لهم تصوره، فاقتنعوا بنظرية «ألفة القلوب».

غير أنه في أجواء معركة صفين بين علي ومعاوية حول الإمارة جرى التنابز بالماضي، وتمت معايرة معاوية بأنه من المؤلفة قلوبهم، وأنه الطليق ابن الطليق، وكأنها سبة، في تجاهل لموقف النبي من أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله بالنسبة إلى المسلم، وأن النبي اختار معاوية ليكون كاتبًا من كُتابه.

وتناقلت الأجيال، وكذلك الثقافة العربية، تلك السخرية والمعايرة، ومعها تم تجاهل ألفة القلوب، التي وضعها وطبقها النبي نفسه ودافع عنها حماية للمجتمع من التنابز، فما بالنا بالتمييز، ولم ننتبه أننا بذلك أفسحنا المجال للاستعلاء وكراهية الآخر والمختلف، على المستويات كافة، ويتم ذلك بمفاهيم مغلوطة، تنسب للإسلام كذبًا وبهتانًا، ثم فوجئنا بمن يضعون نظرية الاستعلاء، ويطرحون جانبًا سواء بوعي أو من دون وعي ألفة القلوب التي نزل فيها نص قرآني واستنها نبي الله.

ألفة القلوب ليست فقط ما يتماشى لنا من موقف النبي مع صفوان وسهيل وغيرهما، إنها أعمق من ذلك، ويجب أن تمتد إلى الجميع، وتكون قاعدة أساسية في الحياة وفي نظام المجتمع وقوانين الدولة.

لم يكن صفوان بن أمية بن خلف الوحيد الذي طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستعين بما لديه من سلاح في أثناء التوجه إلى «حنين»، كان هناك تاجر سلاح آخر، هو نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، ولندقق جيدًا في الاسم، إنه ابن عم رسول الله، كان لديه من السلاح ما يفوق بكثير ما لدى صفوان، وطبقًا لـ«طبقات ابن سعد» استعان النبي بثلاثة آلاف رمح كانت لدى نوفل، وكان التعامل بطريقة «الاستعارة» كما ورد في «السيرة الحلبية»، وقال له رسول الله: «كأني أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهور المشركين».

الحارث والد نوفل، كان شقيقًا لعبد الله والد النبي، وبالرغم من هذا وقف نوفل عدوًا للنبي منذ بداية الرسالة، شارك في جيش قريش وقاتل النبي في غزوة بدر وأسره المسلمون، كان واحدًا من ثلاثة هاشميين أقارب النبي تم أسرهم، وهم: العباس عم الرسول، ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب شقيق الإمام علي. افتدى نوفل نفسه يومها بألف رمح، ونعرف أن العباس حاول التهرب من دفع الفدية بحجة أنهم استكرهوا على الخروج مع قريش إلى الحرب، وكان صعبًا على النبي أن يكون عمه بين الأسرى، بالرغم من صعوبة التسليم بأنه استُكره على الخروج في القتال، فلم يكن العباس شخصًا عاديًّا ولا بسيطًا ليُكرهه أحد على الخروج، كما لم يثبت أن عمرو بن هشام أجبر أحدًا على الخروج في المعركة. والأقرب إلى الواقع أنه لم يشأ أن يبدو غير متجاوب مع قومه، أو أنه متعاطف هو والهاشميون مع ابن أخيه ضد القوم، خصوصًا أن أمواله وتجارته كانت ضمن قافلة أبي سفيان. عمومًا كان النبي أمام حقيقة أنهم فعلًا كانوا في المعركة وأُسروا، ثم حاول العباس الحصول على الإعفاء من الدفع بدعوى أن ليس لديهم ما يدفعونه، وفوجئ بأن نبي الله على علم بتفاصيل ثروته والمال الذي سلمه إلى زوجته أم الفضل قبل خروجه مباشرة إلى المعركة، فقد كان العباس تاجرًا كبيرًا، وكان شريكًا في التجارة لأبي سفيان، أي أنه أحد الأثرياء الكبار في مكة.

وهناك تباين تاريخي تجاه موقف نوفل الديني يوم حنين، ابن سعد يقطع أنه كان قد أسلم قبيل فتح مكة مباشرة، حيث اتجه العباس ونوفل إلى المدينة «وقد عز رسول الله وصحبه»، وقابلا النبي ومن معه في طريقهما من مكة المكرمة. ويدعم ابن سعد روايته بأنهما كانا «شريكين في الجاهلية، متفاوضين في المال، متحابين متصافيين»، غير أن هناك من يصر على أن نوفلًا لم يكن قد دخل الإسلام حتى غزوة حنين، وهو قول ليس من السهل قبوله لعدة أسباب، من بينها اقترابه الشديد من عمه العباس الذي اتجه إلى الإسلام وصار مقربًا من النبي، يضاف إلى ذلك أن نوفلًا كان تاجرًا كبيرًا، ومن باب الحرص على تجارته وماله الواسع ألا يقف في الضفة الأخرى للمجتمع وللسلطة العليا به، وكان المجتمع الذي به محيط تجارته وثروته اتجه كلية نحو الدين الجديد وتغيرت الكثير من توجهاته، ببساطة على التاجر أن يتحرك مع هوى المجتمع وإلا كسدت تجارته وبارت سلعته،

فضلًا عن ذلك فإن جانبًا كبيرًا من تجارته في السلاح، ولن يحتاج السلاح سوى الجيش القوي، وكان هو بين المسلمين.

هنا، يمكن أن نلمح بسهولة عقلية التاجر، التي تحدد الكثير من مواقف صاحبها واتجاهاته، في البداية حين كانت دعوة النبي تواجه رفضًا من قومه، كان لا بُدَّ أن يساير موقف القوم الذين يتاجر معهم وبينهم، ويحرص على رضاهم، وهكذا تجنب دعوة ابن عمه واتخذ منه موقف المقاطعة والرفض، فلما اتجه القوم نحو النبي ونحو الإسلام كان لا بُدَّ أن يكون معهم. ما يخص القلب والضمير يعلمه الله، لكن هذا ما توحي به تصرفاته المعلنة ومواقفه التي وردت في كتب السيرة والتاريخ الإسلامي.

بعد انتهاء غزوة حنين لا يرد اسم نوفل بين من أفاء النبي عليهم تأليفًا لقلوبهم ولا في أي عطايا أو هدايا قدمها، وهذا يعني أنه كان مسلمًا واستقر الأمر به، ولم يكن قلبه ونفسه بحاجة إلى ألفة، يضاف إلى ذلك أنه فور فتح مكة وهدوء الأمور حرص النبي على أن يلتقي أقاربه، ثم لاحظ غياب ابنَي عمه أبي لهب، معتب ومعيتب، فسأل عنهما عمه العباس: «يا عمي أين ابنا أخيك؟»، فهم العباس مَن يقصد النبي، وسوف نلاحظ أنه لم يذكر اسم عمه، لا باسمه الحقيقي (عبد العزى) ولا بكنيته التي وردت في القرآن الكريم (أبو لهب)، لأنه كان في ذمة الله، ولأن ذلك صار من الماضي الذي يجب تجنب ذكره والانطلاق نحو المستقبل، وكان الرد أنهما مع المشركين وترددا في المجيء بسبب ما جرى من والديهما قبل ذلك تجاه النبي من تعمد الإيذاء الشخصي له، فضلًا عن أنهما كانا متزوجين بابنتَي النبي ثم انفصلا عنهما نكاية في والدهما رسول الله، طلب إليه النبي أن يبعث بمن يأتي بهما، وأتيا على عجل، وكأنهما كانا ينتظران هذا الاستدعاء، وطلب منهما النبي الشهادة، فتشهدا وخرج بهما أمام الجميع إلى الكعبة ودعا لهما داخلها، في إشارة ربما تكون مقصودة أمام الجميع أن النبي تسامح وتغاضى عما جرى من قبل، وأنه لا يحمل ضغينة تجاه من آذاه أو أساء إليه. باختصار أراد نبي الله ألَّا تكون هناك مشكلة ما من جهة أقاربه، وأن يبعث برسالة إلى الجميع أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، لا ضغائن ولا إحن، بل تعاطف وحب واحترام للجميع، لا استعلاء ولا غطرسة ولا إقصاء، وما يمكن قوله هنا: لو أن نوفلًا لم يكن ذهب إلى النبي من قبل، لبادر باستدعائه.

موقف نوفل محير فعلًا، مثلا قدم الرماح بناء على طلب النبي ولم يتطوع بتقديمها، كذلك فإن النبي استعارها منه، أي أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم ملزمًا بردها إليه بعد القتال ولكن دون مقابل. قارن هذا بحالة أبي بكر الصديق الذي حمل كل ما يملكه إلى النبي لتجهيز الجيش، ولما سأله النبي: «وماذا تركت لأهلك؟»، أجاب بكل أريحية واطمئنان: «تركت لهم الله ورسوله». لم يكن الصديق من الأثرياء مثل نوفل، أما عثمان بن عفان، وكان ثريًّا، فقد جهز جيش العسرة بأكمله، ولأن نوفلًا لم يبادر بتقديم السلاح إلى النبي، بالرغم من علمه بالحاجة إليه، فقد جعل

البعض يعتقدون أنه لم يكن قد أسلم.

ويبدو أن نوفلًا انشغل فيما بعد بتجارته ولم ينشغل بالشأن العام ولا حرص على الاقتراب من النبي وملازمته، كما فعل عمه العباس رضي الله عنه، لذا نجد المصادر التاريخية تصمت عنه، فلا نجد له دورًا في القتال في أثناء غزوة حنين أو بعدها في «الطائف» و«تبوك»، حتى يوم وفاة النبي ثم في بيعة السقيفة، لا نجد له أي حضور مع أهل بيت النبي، بل يمكن القول إنه كان مختفيًا تمامًا، حتى إن واقعة استعارة النبي رماحه الكثيفة لا نجد لها ذكرًا لدى ابن هشام في «السيرة النبوية»، ولا لدى الطبري في «تاريخه»، واعتبرها البعض مؤشرًا على أنه ظل بعيدًا عن الإسلام وإن لم يكن معاديًا.

موقف نوفل ومواقف أخرى عديدة لأفراد وشخصيات بارزة من آل عبد المطلب تجاه النبي وتجاه الإسلام، في مرحلة التأسيس أو ما يطلق عليه صدر الإسلام، تدحض قول بعض المستشرقين من أن العقبات التي واجهت الإسلام في بداياته لم تكن إلا صراعًا هاشميًّا أمويًّا، باختصار: تنافس عائلي وقَبلي أكثر منه صراعًا بين دين جديد يطرح نفسه بديلًا عن دين قديم يرتبط بوضع اجتماعي وسياسي في مكة راح يتآكل ويفقد تأثيره وجدواه.

وربما كان المستشرق الألماني يوليوس فلهاوزن من أبرز القائلين بذلك، وهو يبحث في نشأة ما أطلق عليه أحزاب المعارضة في صدر الإسلام، تحديدًا الخوارج والشيعة، أو دراسته المهمة عن الدولة العربية «الأموية»، ومن حسن الحظ أن كلًّا من الدكتور عبد الرحمن بدوي والدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ترجما عددًا من أعمال فلهاوزن إلى العربية، وأتاحا مبكرًا للقارئ العربي الاطلاع عليها، وما زالت هناك بعض دراسات له في هذا الجانب لم تُنقل بعد إلى العربية، والحاصل أن الصراع في معركة صفين وقضية التحكيم، عند فلهاوزن وبعض الدارسين الغربيين، لم تكن وليدة اللحظة والموقف المترتب على اغتيال الخليفة الثالث عثمان بن عفان، بل كانت امتدادًا لصراع بدأ مع اللحظة الأولى لإعلان نبي الله دعوته، وهكذا كثر الحديث عن الحزب الهاشمي، الذي ينسب إلى محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، في مقابل الحزب الأموي الذي يبدأ مع أبي سفيان بن حرب، ومعنى هذا أننا بإزاء حركة سياسية واجتماعية في المقام الأول بغطاء ديني ولسنا أمام دين سماوي موجه للإنسان عمومًا، وليس دينًا لأقارب النبي أو عائلته وخصمًا لخصومهم. هو لا ينكر الإسلام ودوره وتأثيره، لكن العوامل السياسية والاجتماعية عنده لها تأثير أكبر، وتشكل التعامل مع الدين.

ومن الممكن تفهُّم رؤية المستشرق الألماني الذي بدأ حياته العلمية بنقد الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل)، وانتقل بتلك الروح إلى الدراسات الإسلامية واعتمد في جُلها على مصدر رئيسي هو «تاريخ الطبري»، وربما لو أتيح له الاطلاع على مزيد من المصادر والمراجع العربية والإسلامية، خاصة «طبقات ابن سعد»، لقدم المزيد وربما طوَّر آراءه.

وقد أخذ بعض الدارسين والكُتاب العرب في العقود الأخيرة بتلك الآراء، وراحت تتردد في كتاباتهم وأبحاثهم، ونال بعضها قدرًا من الاهتمام في وقت ما.

والحق أن الأخذ بنظرية الحزبين (الهاشمي والأموي) يعني تجاهل كثير من الوقائع المؤكدة في العديد من المصادر المعتمدة علميًّا، وإغفال بعض الحقائق، فضلًا عن الخفة العلمية والفكرية وأخيرًا التعامل مع الإسلام بوصفه حركة اجتماعية وسياسية قرشية فقط.

رصدت مصادر السيرة النبوية وتراجم عصر النبوة أسماء الأوائل الذين صدَّقوا قول محمد بن عبد الله إنه نبي الله وآمنوا بما أنزل عليه، كانت السيدة خديجة بنت خويلد زوجته، الأولى من النساء، وكان أبو بكر بن قحافة، صديقه، الأول من الرجال وهكذا، وحين نراجع الأسماء لن نجد من آل عبد المطلب، أيْ من الهاشميين، سوى ثلاثة، وهم: علي بن أبي طالب، وكان لا يزال صبيًّا صغيرًا، كان يقيم مع النبي، حيث يتولى تربيته تخفيفًا عن كاهل عمه أبي طالب، وربما لأن نبي الله كان لديه حنو خاص على الأطفال، وبسبب حداثة سن علي يميل بعض خصومه إلى عدم ذكره بين الأوائل، باعتبار أنه لم يكن بلغ سن التكليف. وسوف نجد أيضًا جعفر بن أبي طالب، الذي أسلم مبكرًا وهاجر إلى الحبشة ونجح في تقديم صورة إيجابية عن الدين الجديد أمام النجاشي في الهجرة الأولى، وأفحم الخصم الذي أرسلته قريش لصد المسلمين وردِّهم ثانية إلى مكة، وكان عمرو بن العاص هو المكلف بتلك المهمة، وقد استُشهد جعفر في غزوة مؤتة. الثالث هو حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله، وهو يكبر النبي سنًّا بنحو ثلاث سنوات، وكان فارسًا مقدامًا، حدث أن خرج ذات يوم متجهًا إلى الكعبة فأنبأته إحدى السيدات بأن عمرو بن هشام اعتدى لتوّه على ابن أخيه قاصدًا إهانته، فغلى الدم في عروقه فاتجه فورًا نحو عمرو وشجَّ رأسه بقوسه، موجهًا إليه تحذيرًا صارمًا من أن يكرر فعلته مع ابن أخيه، لم يَردَّ أبو جهل ولزم الصمت، كان مدركًا أنه تجاوز فعلًا، لكن أحد المحيطين أبدى اندهاشه لحماسة حمزة هكذا للدفاع عن محمد، فرد عليهم: «أنا على دينه»، واتجه فورًا نحو نبي الله، حيث نطق الشهادتين أمامه، وليس واضحًا في المصادر هل كان حمزة اعتنق الإسلام من قبل ولم يعلن ذلك، أم أنها حمية الموقف والرغبة في دفع الأذى عن «ابن أخيه» النبي وأصحابه؟ تميل المصادر إلى أن اختياره كان وليدَ اللحظة، لكن سعيه يومها إلى النبي والنقاش الذي دار معه يكشف أنه كان على معرفة جيدة بالإسلام، وأنه كان مقتنعًا به، فقط كان بحاجة إلى لحظة أو موقف يدفعه إلى حسم أمره وإعلان اختياره وكان ما جرى من أبي جهل.

أيًّا كان الأمر فإنه لم يعتنق الإسلام مبكرًا، ولكن حَسُن إسلامه وكان قوةً حقيقية للنبي وللمسلمين، وبدت بطولته وفروسيته في غزوة بدر الكبرى، واستشهد في غزوة أحد، فقد كان مستهدفًا من سادة قريش انتقامًا لقتلاهم في «بدر».

غير هؤلاء لن نجد إلى جوار النبي أحدًا من الهاشميين في البدايات الأولى، بل نجد منهم أعداءً وخصومًا لُدًّا، يبرز في المقدمة عم النبي عبد العزى بن عبد المطلب، والذي أطلق عليه القرآن الكريم لقب «أبي لهب».

كان أبو لهب يمثل حالة عصابية تجاه الدين الجديد وتجاه النبي أكثر، الغريب أنه كان في البداية

يحب ابن أخيه، فقد أعتق جارية له يوم وُلِد ابتهاجًا بميلاده، وفيما بعد خطب رقية وأم كلثوم ابنتي محمد إلى اثنين من أولاده، وما إن أعلن ابن أخيه أنه نبي الله، صاح فيه: «تبًّا لك»، وراح يعاديه وقام وَلداه بتطليق رقية وأم كلثوم بضغط من والديهما احتجاجًا على نبي الله.

لم يكن أبو لهب وحده في العداء للنبي، كان هناك من هو أقسى منه، ويتجاهله الدارسون المحدثون، لكن كتب السيرة النبوية لم تهمله، أعني أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، كان كارهًا تمامًا للنبي، وإذا تحرك النبي يكون خلفه معاديًا ويهجوه، كان شاعرًا وكان العرب يرددون قصائده، خاصة أنه قريب النبي، ظل نحو عشرين عامًا على هذا الحال متفرغًا للعداء ومطاردة ابن عمه نبي الله، وسبَّب الكثير من الألم والجرح للنبي، وشعر أصحاب النبي بألمه، فذهب إليه حسان بن ثابت يعرض أن يرد عليه، ويتساءل النبي: «كيف وهو قريبي؟»، فيرد حسان: «يا رسول الله، أسُلُّك منه كما تُسَل الشعرة من العجين»، وبالرغم من ذلك لا يفلح ولا ينجح حسان في دحره شعريًّا، وابن الحارث يَفجُر في الخصومة والعداء بذيئًا في كلماته، حتى أهدر النبي دمه قبل فتح مكة مباشرة. كان واضحًا أن ميزان القوة يميل نحو المسلمين، وأن موقف وقوة قريش تضمحل يومًا بعد يوم، وكان نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وأخوه أبو سفيان بن الحارث قد ذهبا مع عمهما العباس إلى الرسول، عندها سعى أبو سفيان إلى النبي يريد الاعتذار، وأن يسحب الرسول قراره بإهدار دمه، وتدخلت زوجة النبي السيدة أم سلمة: «ابن عمك يا رسول الله»، وكان ردُّه صلى الله عليه وسلم: «أما ابن عمي فهتك عرضي»، ومع ذلك لم ييأس ابن الحارث، بل أخذ يطارد النبي في كل مكان، لكن هذه المرة كانت للمصالحة وطلب العفو، يجلس قبالته والنبي يتجنب النظر إليه، ثم اصطحب أبناءه إلى كل مكان يتواجد فيه النبي، مهددًا بأنه سيخرج بهم إلى الصحراء، حتى يهلكوا إن لم يقبله النبي، وأخيرًا وبعد إلحاح مضجر عفا عنه رسول الله، وألقى قصيدة يشرح فيها حاله لسنوات من العداء والإساءة، وفي أحد أبياتها قال:

هَدَانِي هَادٍ غَيْرُ نَفْسِي وَنَالَنِي مَعَ اللهِ مَنْ طَرَّدْتُ كُلَّ مُطَرَّدِ

يقول ابن إسحاق إن رسول الله حين سمع منه ذلك أشار إلى صدره وقال: «أنت طردتني كل مطرد».

وهناك نماذج أخرى للعداء من الهاشميين مذكورة بالكثير من تفاصيلها في مصادر السيرة النبوية، وغزوة بدر شهدت مشاركة عدد من كبار الهاشميين في جيش قريش، منهم العباس نفسه، والطريف أن أبا لهب نفسه لم يخرج إلى «بدر»، واكتفى بإرسال نائب عنه يشارك بدلًا منه، محارب بالوكالة، وقام بتسليحه ودفع له أجره، كان ذلك النظام متبعًا وقتها في الحروب. قد يكون تكاسل أو لم يشأ أن يدخل في مواجهة مباشرة مع ابن أخيه، ولنا أن نتأمل المشهد: حمزة عم النبي وعلي بن أبي طالب في جانب، والعباس في جانب آخر ومندوب أبي لهب أيضًا.

في المقابل، نجد من اعتنق الإسلام مع بداياته الأولى عدد من الأمويين، لدينا رملة بنت أبي سفيان بن حرب اعتنقت الإسلام مبكرًا وهاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش، وهو ابن عمة رسول الله، وفي الحبشة تحول عن الإسلام واعتنق المسيحية وتركها وحيدة مع ابنتها حبيبة، متمسكة بدينها ومتحملة قسوة العيش والغربة وتقلب الأيام، هي في النهاية ابنة أبي سفيان، لم تعتَدْ شظف الأيام وقسوتها، لكنها اختارت وتحملت مسؤولية اختيارها، وكان أن خطبها نبي الله وعمرت طويلًا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

غير أم حبيبة رضوان الله عليها هناك عثمان بن عفان، الذي اعتنق الإسلام على يد أبي بكر الصديق، ولعب دورًا مهمًّا مع النبي بجهده وماله.

ويجب ألَّا نندهش من عداء معظم الهاشميين للإسلام أو عدم مساندتهم له، الدهشة هي أن يصر البعض على أن الإسلام دين هاشمي! في تاريخ النبوات حدث مثل ذلك، نعرف ما كان بين إبراهيم الخليل ووالده، كانا على طرفي نقيض، وما كان بين نوح وابنه، فقد رفض ابنه ركوب السفينة والنجاة مع الناجين، مفضلًا الذهاب مع الطوفان، نعرف كذلك ما جرى من إخوة يوسف معه، أما ما وقع لنبي الله موسى من قومه فهو النموذج الجلي.

النبوة عادة تقدم ديانة وثقافة جديدة تكون مناقضة لما هو قائم واستقر في وجدان الناس، لذا يكون من المتوقع أن تجد العداء والرفض من الأقارب حتى يدفعوا عن أنفسهم اتهام المجتمع لهم.

وباختصار، فإن فهم المقاومة التي وجدها النبي في البداية والعداء الذي تعرض له بوصفه صراعًا هاشميًّا ـ أمويًّا، هو تبسيط مخل أو تحامل فكري ومذهبي، حتى أننا وجدنا سيد قطب في الطبعة الأولى من كتابه «العدالة الاجتماعية» وفي معرض هجائه للخليفة الثالث عثمان بن عفان، يجزم بأن الإسلام لم يدخل يومًا قلب أي من بني أمية، وأنهم جميعًا من المنافقين، والحق أن الهاشميين والأمويين هم في النهاية من القبيلة نفسها، وحجم التداخل العائلي بينهما كبير، مثلًا والدة أبي سفيان بن حرب، صفية بنت حزن، هي عمة أم الفضل زوجة العباس عم الرسول وأم أولاده (بنو العباس) وهي نفسها عمة أم المؤمنين السيدة ميمونة.

اقتصاديًّا، كان العباس عم النبي شريكًا في التجارة مع أبي سفيان، أي لم تكن هناك تلك الثنائية الحادة بين البيتين الهاشمي والأموي، غير أن كثيرًا من المؤرخين يحاولون أن يسقطوا صراع علي ومعاوية ومعركة صفين، ثم صراع يزيد بن معاوية مع الحسين بن علي رضي الله عنه على نشأة الإسلام وعلى مسيرة النبي نفسه.

رغم العداء الشديد والرفض المطلق لدعوة النبي من معظم أقاربه «بني هاشم»، إلا أن موقف أبي طالب، عم النبي، يظل متميزًا ولافتًا، لم يعتنق أبو طالب الإسلام وظل متمسكًا حتى وفاته بما وجد عليه الآباء، وكم تمنى عليه النبي وهو في لحظات الموت، أن ينطق شهادة التوحيد حتى يمكنه أن يتشفع بها له أمام الله يوم القيامة، لكن أبا طالب رفض أن يغادر دين الآباء والأجداد، ونزل في ذلك قول الله تعالى، في ملاحظة مهمة لنبيه: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ».

كان نبي الله يريد لعمه أن يكون في الجنة، لأنه يحبه ويقدره، فضلًا عن أنه كان ممتنًا له، لأنه سانده وحماه بالمعنى الحرفي، بالرغم من أنه لم يؤمن بما جاء به.

يعود الأمر إلى البدايات الأولى للإسلام، والذي حدث أن قريشًا لم تنزعج أول الأمر من دعوة النبي إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، ذلك أن هناك بعض أفراد سبقوا النبي في انتقاد أحوال قريش والدعوة إلى تغييرها، كان هناك أمية بن أبي الصلت الذي رفض بشدة وجود الأصنام في الكعبة ودعا إلى التوحيد، وكان هناك من هاجم وأد البنات، ووجدنا أبا بكر بن قحافة يحرِّم على نفسه الخمر قبل ظهور الإسلام، ومن قبله حرمها على نفسه عبد المطلب جد النبي، في مكة عُقد حِلف الفضول بهدف التصدي للظلم والغش في التعاملات التجارية وغيرها، ويعد كثير من الدارسين تلك الدعوات، التي يمكن تسميتها بالإصلاحية، تمهيدًا لظهور النبوة، وتعبيرًا عن ضرورة ظهور نبي ودين جديد، في تلك الفترة، أو ما أطلق عليه رفاعة الطهطاوي في كتابه «أنوار توفيق الجليل»: «إرهاصات داخلية وتأسيسات لدولة عربية»، وأسماه عباس محمود العقاد «مطالع النبوات».

لم تتذمر قريش من تلك الدعوات، ولا حملت عداء للقائلين بها، وهكذا تعاملوا مع دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، حتى حينما دخلوا في سجال مع النبي، كان ذلك من باب المناوشات أو المداعبات، بهدف التفكه أو تزجية الوقت، مثل مطالبتهم له بأن يدعو الله بأن يوفر لهم عدة آبار مشابهة لبئر زمزم يرتوون منها ويتسع استخدامهم للمياه، أو مثل أن تتحرك الجبال المحيطة بمكة قليلًا بما يزيد مساحتها، وهكذا.

تحول الموقف وصار عدائيًّا بعد أن كثر أتباع النبي، وراحوا يمثلون تيار التمرد في المجتمع، أي لم يعد ما يطرحه النبي رأيًا فرديًّا يمكن احتماله والتعايش معه مهما كان صادمًا لهم ومغايرًا لما هو سائد بينهم، بل صار حركة اجتماعية يتسع نطاقها يومًا بعد يوم، وتخلخل قواعد ذلك المجتمع وبنية علاقاته الداخلية، لا استعلاء من السادة وعِلية القوم على غيرهم، ولا استعباد للفقراء. وهكذا من أمور أو ثوابت مجتمعهم وحياتهم.

حتى هذه كان ممكنًا التفاهم حولها، لكن ما أثار مكامن العداء والعنف لديهم تجاه النبي أنه راح

يهاجم آلهتهم وينعتها بالأصنام، يقول ابن إسحاق في «السيرة النبوية»: «لما بادى رسول الله قومه بالإسلام وصَدَع به، كما أمره الله، لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه ـ فيما بلغني ـ حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكدوه وأجمعوا خلافه وعداوته».

هناك مؤرخون وكُتاب مثل رفاعة الطهطاوي في كتابه «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز»، وكذلك الدكتور هيكل في «حياة محمد»، قطعوا أن النبي انتقد وسب آلهتهم فتحركوا ضده، يقول رفاعة رافع الطهطاوي في «نهاية الإيجاز»: «واستمر على ما أمره الله تعالى، لم يبعد عنه قومه، ولم يردوا عليه حتى سب آلهتهم وعابها، ونسب قومه وآباءهم إلى الكفر والضلال، فأجمعوا على عداوته إلا من عصمه الله بالإسلام، وذب عنه عمه أبو طالب».

التحرك الأول، من كبار القوم كان نحو أبي طالب، لأنه أعلن من قبل أنه يحمي ابن أخيه، وأنه على استعداد للدفاع عنه، قالوا له: «إن ابن أخيك سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفَّه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلاف». كان حديثهم تحريضًا واضحًا لأبي طالب على ابن أخيه، وكانوا يستندون إلى وقائع محددة، ذكروها واحتجوا كذلك بأنه مثلهم، هو على ما هم عليه. لكنه صرفهم بود، واعتبر الأمر مجرد عتاب أو غضب عادي، ولم يثبت أنه فاتح ابن أخيه هذه المرة في الأمر، وهكذا استمر النبي في طريقه ودعوته، فازداد غضبهم وعادوا مرة أخرى إلى أبي طالب، هذه المرة كان خطابهم أشد وأكثر حدة ويحمل تحذيرًا واضحًا: «إنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفَّه عنا، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين» هكذا وضعوه في كفة واحدة مع ابن أخيه، والتهديد كان له شخصيًّا مع ابن أخيه صريحًا ومباشرًا.

هنا صار العم في موقف صعب، قومه وسادة قريش، هو يقدِّرُهم وعلى موقفهم، في مواجهة ابن أخيه الذي لا يمكن أن يسلمه لهم، هو يعرف ماذا يمكن أن يفعلوا به، تحدث مع ابن أخيه وقال له: «أبْقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق».

ويبدو أن النبي تصور أن عمه ضاق به وضعف أمام قومه، وبالرغم من كل الظروف وعوامل الضعف مثل قلة الأنصار، فإنه كان يحمل تكليفًا إلهيًّا، وظهرت عروض قريش لحل الأمر، إن كان محمد يريد المال أعطوه، وإن أراد التسيد قدموا له ذلك وجعلوه سيدًا عليهم، التفاصيل هنا كثيرة وتملأ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، خلاصتها الأخيرة أنهم عرضوا أن يحلوا أي مشكلة ويلبوا أي مطلب يريد محمد الحصول عليه، فقط يتوقف عن سب ودحض آلهتهم اللات والعزى ومناة، وهنا كان رده القاطع: «يا عم، والله إن وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته، أو أهْلِك دونه».

هنا بات الأمر محسومًا بين الطرفين والعقليتين، عقلية التجار الذين يحسبون كل شيء وفق المنفعة المادية المباشرة من حيازة الثروة أو الصعود إلى السلطة ونيل المتعة والمنافع والاستمتاع

بالملذات، مع رغبة واضحة في تجنب الصدام والقتال، وجو السوق والتجارة ومناخ الكعبة التي لا تحتمل الصدام والحرب، ويحدثنا التاريخ كيف أن أبرهة حين اقترب بجيشه من مكة، تجنب عبد المطلب القتال، وطلب إلى أهل مكة أن يتركوها ويسرعوا إلى الشعاب والجبال المحيطة، كل هذا أمام عقلية النبي الذي يحمل تكليفًا إلهيًّا، عليه القيام به والإصرار عليه، ولا يمكنه التراجع عنه أيًّا كانت المصاعب التي تواجهه، حتى لو هددت حياته، كان أبو الأنبياء إبراهيم الخليل يعرف أن النار في انتظاره، وكان السيد المسيح على يقين أن خصومه لن يتورعوا عن الحكم عليه بالإعدام، ولم يكن النبي محمد أقل إيمانًا، بل لديه الاستعداد نفسه لتقديم حياته في مقابل ما ينادي به: «أهْلِك دونه».

لم تيأس قريش، وبمنطق الصفقات ذهبوا إلى أبي طالب مرة ثالثة بعرض جديد، معهم شاب قوي من خيرة أبنائهم دفعوه إليه دية، على أن يسلمهم محمدًا لقتله، وكانت الدية معمولًا بها قبل الإسلام، هنا بدأ الأمر يتجاوز أبا طالب ويمس بني هاشم جميعًا، أن يسلموا واحدًا منهم للقتل، ففي ذلك عار عليهم أمام العرب طوال التاريخ، وهذا ليس قراره وحده، بل يجب أن يكون قرار الهاشميين جميعًا.

ربما تصور أبو طالب في البداية أن غضب قريش من محمد وحده، خاصة أن أبا طالب نفسه لم يترك دين الآباء، بل إن أشد الناس خصومة للدين الجديد كان بينهم أفراد من الهاشميين، يكفي وجود أبي لهب في مقدمة المستهزئين، ويكفي وجود أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب في مقدمة الشعراء الذين يهجون النبي ليل نهار، ويترصده في كل مكان يذهب إليه، لكنَّ سادة قريش صمموا على مواجهة الهاشميين جميعًا، لذا جمعهم أبو طالب وعرض عليهم الأمر، وكان قرارهم رفض العرض؛ لن يسلموا محمدًا للموت أبدًا أيًّا كانت تكلفة تلك الخطوة، وهذا يعني أن يدخلوا في عداء مع قريش كلها، الوحيد الذي خرج على إجماعهم كان أبا لهب، إذ طالب بتسليم محمد لهم وقبول الدية، لكن قرار الأغلبية نُفذ وتحمَّل الهاشميون مقاطعة قومهم لهم، وهذا ما دفع البعض إلى اعتبار الإسلام من أوله إلى آخره دعوة هاشمية في مواجهة الأموية، بالرغم من أن القطيعة قام بها كل سادة قريش وليس أبو سفيان والأمويون وحدهم.

كان سادة قريش يعرفون جيدًا أن أبا طالب ـ سيد الهاشميين ـ ليس على دين ابن شقيقه، وليس هو فقط، بل معظم الهاشميين أيضًا، لكنهم بالمنطق القَبَلي وبالعقلية التجارية تصوروا أن الضغط الاقتصادي (المقاطعة) يمكن أن تدفعهم إلى الضغط على نبي الله كي يستجيب لما يطلبه سادة قريش، أو أن يتخلى عنه الهاشميون.

فكرة الضغط على النبي ثبت أنها غير مجدية، ليس مع النبي فقط، بل مع بعض الذين اتبعوه، فقد ضغط الأمويون على عثمان بن عفان، حتى أن عمه حبسه كي يترك الدين الجديد ولم ينجح، لذا لم يكن باقيًا سوى الاحتمال الآخر وهو الضغط على العائلة كلها، وهذا ما حاولوه، وسوف تقنعهم

الأيام بفشل ذلك كله، إذ سوف تسقط المقاطعة تلقائيًّا، لقد أراد سادة قريش أن يجعلوا المعركة صراعًا قبليًّا أو عائليًّا، يمكننا القول صراع بعض بيوتات قريش، لكن الأمر كان غير ذلك بالمرة، كان صراعًا بين قديم وجديد في جانب منها، وصراعًا مع دين جديد يريد أن يتعامل مع الإنسانية ومع الحياة بفهم جديد، لذا في النهاية انتصر الدين الجديد وتراجع سادة قريش تمامًا.

هذا الانتصار والنجاح دليل أنه لم يكن صراعًا قبليًّا، خروج النبي من مكة إلى يثرب، وقبلها الانطلاق نحو الطائف، كان تأكيدًا على البعد الإنساني للدين الجديد وتجاوزه الإطار القبلي القديم أو المحلي الضيق، وقد لا يدرك بعض المستشرقين ذلك، لكن الغريب ألَّا يدرك بعضنا هذا الأمر.

في بعض كتب التراث، وفي كثير من كتابات المعاصرين، حول لحظة ظهور الإسلام أو «فجر الإسلام» بتعبير أحمد أمين، نجد إصرارًا شديدًا على أن أبا سفيان بن حرب كان الأشد عداء بين سادات قريش للدين الجديد والأكثر كراهية لنبي الله، وأنه لم يتخلص من تلك الكراهية حتى بعد أن اعتنق الإسلام. فمن المعاصرين عباس العقاد في كتابه عن الحسين بن علي، وكذلك كتابه عن معاوية بن أبي سفيان. وكذلك سيد قطب الذي رمى الأمويين جميعًا بالكفر والنفاق، لم يستثنِ أحدًا منهم، حتى عثمان بن عفان رماه بالفساد، وخطورة حكم سيد قطب الذي ورد في كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، الطبعة الأولى، أن هناك ميليشيات خلفه استهونت بالتكفير.

من القدماء نجد صاحب كتاب «الأغاني»، الذي عدَّ أبا سفيان «كهف النفاق»، وحين نبحث عن الوقائع أو الحيثيات التي بُنيت عليها هذه الأحكام القاطعة لن نجد إلا أقوالًا مرسلة، يُتعسَّف في قراءتها، ويصعب الاطمئنان إليها بضمير علمي، الأمر الذي يدعونا إلى القول إن الحكم على أبي سفيان بن حرب صَدَر في ضوء كراهية عدد من المؤرخين المسلمين للدولة الأموية، وانحيازهم إلى العباسيين حينًا وإلى الطالبيين أو العلويين حينًا آخر، أو كراهية للعرب عمومًا لحساب الموالي حينًا أو البربر حينًا آخر.

نعرف أن نبي الله محمدًا حين أعلن ما كلفه الله به وجد صدًّا من كبار قريش، ثم تحول الأمر إلى العداء حين راح الدين الجديد يهز أركان المجتمع المكي، ومن هنا بدأ الكيد للنبي ولمن آمن بما جاء به، وسوف نجد أن هناك من عدَّ العداء شخصيًّا مع محمد نفسه، وعلى رأس هؤلاء يقف عبد العزى بن عبد المطلب، عم النبي، الذي منحه القرآن الكريم لقب «أبي لهب»، ومعه ابن عم الرسول أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، كذلك نجد عمرو بن هشام الملقب بـ«أبي جهل».

كان أبو لهب يمثل حالة عصابية تجاه النبي والإسلام، فقد بدأ العداء والتنمر بالنبي وقالها من البداية: «تبًّا لك، ألهذا جمعتنا؟»، وسط أبناء عبد المطلب حين كلف الله نبيه أن يبلِّغ أهله أولًا: « وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»، وتواصل إيذاء أبي لهب للنبي، حتى أن ابنيه كانا متزوجين من ابنتي الرسول، فدفعهما لتطليقهما، ما آلم النبي، وكان السبب المباشر للطلاق أن السيدتين أم كلثوم ورقية اتبعتا دين الإسلام بينما ظل كل من الزوجين على دين الأجداد، وبالرغم من كفر الزوجين لم ينصح النبي ولا طلب من ابنتيه الانفصال أو مغادرة بيت الزوجية، بل وقع العكس، هل أمعن أبو لهب في شخصنة المشكلة ليبدو أمام قومه نافرًا من دعوة ابن أخيه التي اعتبروها تهديدًا لنفوذهم ونفوذ مكة في محيطها، أم أن هناك عوامل أخرى أهملها المؤرخون باعتبار أن أمر أبي لهب نُسي بعد وفاته المبكرة، عقب معركة بدر؟

أما عمرو بن هشام فكانت كراهيته قديمة للنبي الذي أعلمنا أن عمرًا كان رفيق صباه، وأنهما

كانا يتسابقان، وأنه ـ أي النبي ـ كان يسبقه، وفي إحدى المرات سقط عمرو بما أحدث ندبة لم تُمحَ في ركبته، كشف نبي الله ذلك يوم «بدر»، حين كان المسلمون يبحثون عن جثة أبي جهل بين القتلى، أعلمهم رسول الله بتلك الندبة ليسهل التعرف على الجثمان.

نعرف كذلك أن أرملة والد أبي جهل عُرِضت على النبي في شبابه ليتزوجها ورفضها، مما أثار حفيظته.

ولما فتح نبي الله مكة قالت ابنة أبي جهل «جويرية» إن ما جاء محمدًا عُرض على والدها لكنه رفض حتى لا يجرح قومه، أي أن النبوة عُرضت على أبي جهل أولًا، وبعض المصادر تشير إلى أن أبا جهل ردَّد ذلك، باختصار هناك عوامل ذاتية لدى أبي جهل جعلته يحمل بغضًا شخصيًّا للنبي، لذا اتجه إلى إيذائه وحاول الاعتداء عليه مرة في الكعبة بينما كان ساجدًا، الأمر الذي استفز حمزة بن عبد المطلب، الذي رد الاعتداء وانتقم لابن أخيه، غير ذلك كان أبو جهل لا يخلو من منطق، ذهب ذات مرة إلى النبي مطالبًا إياه بأن يمنع أصحابه من شتم آلهة قريش، حتى لا يضطر هو والقرشيون إلى هجاء ربه، وكما يذهب بعض المفسرين نزلت الآية ١٠٨ من سورة «الأنعام» تأييدًا لمطلبه، يقول الله تعالى: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ»، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف قدر عمرو بن هشام، لذا تمنى في وقت من الأوقات على الله أن يعز الإسلام به أو بعمر بن الخطاب، وتحققت الأمنية بابن الخطاب.

كان هناك الوليد بن المغيرة، والد خالد بن الوليد، الذي تعمد الإيذاء الجسدي لعدد من أتباع النبي، وكان رأيه دائمًا هو ضرورة العمل على التخلص نهائيًّا من محمد.

وهنا يجب أن نتساءل: أين أبو سفيان بن حرب من كل هؤلاء؟

كان أبو سفيان من البداية مثل معظم سادات قريش ضد نبوة محمد، لكنه كان تاجرًا، تعتمد تجارته بشكلٍ أساسي على بلاد الشام، تحديدًا مدينة بصرى، وهي مدينة سورية قريبة من الحدود الأردنية ومنطقة غزة ومدينة إيلياء، هذا الاحتكاك أضاف إليه قدرًا من الثقافة لم يكن متاحًا للآخرين، وقدرًا من الانفتاح وسعة الأفق. وهو من أسرة مثقفة، يقال إن والده أول من تعلم الكتابة بالعربية في جزيرة العرب، تعلمها في مدينة نينوى بالعراق.

في بداية الأمر كانت العربية لغة شفوية أو سماعية، وهذا ما أدى إلى فقدان الكثير من الشعر الجاهلي، ثم تعلم العرب كتابة لغتهم، وكان أبو سفيان يعرف القراءة والكتابة، وكذلك كان ابنه معاوية، وسوف نلاحظ أن التجار ورجال المال والثقافة أيضًا كانوا أعداء عقلاء للنبي وللدين الجديد، لذا لم يكن الأمر عداء شخصيًّا وذاتيًّا مع النبي، بل فهموا أنهم أمام ظاهرة جديدة يجب أن يتعاملوا معها بأقل قدر من الخسائر، كان كل ما يعنيهم ألا تهتز تجارتهم وسمعتهم، وكذلك سمعة مدينتهم مكة، فإن قتلوا محمدًا أساء ذلك إلى سمعة مكة كونها مركزًا مستقرًا وآمنًا للتبادل التجاري بين الجزيرة والشام من ناحية، واليمن من ناحية أخرى، وأحيانًا بلاد فارس.

باختصار إن تخلصوا من محمد فقدوا جزءًا من سمعتهم، وإن انتصر النبي عليهم فقدوا هيبة مكة دينيًّا. كانت الكعبة مركز جذب ديني وسياحي، وكذلك تجاري لكثير من العرب، وإن اتسع الخلاف داخل مكة وقام فيها ما يشبه الحرب الأهلية فقدوا كل شيء، لن يصلها أي زائر، ولن تكون آمنة للتجارة. لذا نجد أبا سفيان لم يبالغ في العداء للنبي، ولم يقطع كل الخيوط معه، مثله في ذلك مثل العباس عم النبي، وكان أبو سفيان والعباس شريكين في التجارة، وساعد على ذلك أنه كان هناك تداخل عائلي بين أبي سفيان وبيت النبوة. هذه السيدة اعتنقت الإسلام مبكرًا ولم يحاول والدها أن يُكرهها على ترك هذا الدين، بل احترم اختيارها، والدة عبيد الله بن جحش، زوج أم حبيبة السابق، هي عمة رسول الله، وليس صحيحًا ما ذهب إليه العقاد أن الرسول تزوجها بعد وفاة زوجها تأليفًا لقلب والدها ومحاولة اجتذابه، جاء الزواج ـ كما ذهبت بنت الشاطئ في كتابها عن زوجات النبي ـ ليخفف من مأساتها المزدوجة في زوجها، فقد تركها في الحبشة واعتنق المسيحية ودخل حياة جديدة، ثم تُوفِّي تاركًا لها ابنتها التي ما لبثت أن ماتت، هذه السيدة العظيمة أم حبيبة، اسمها الأصلي «رملة»، هي ابنة أبي سفيان الذي احترم اختيارها دائمًا ولم يعترض حين رحلت مع عبيد الله أو حين تزوجت النبي، كما لم يعترض طريق ابنه معاوية حين اعتنق الدين الجديد.

تعامُل النبي مع أهل مكة لحظة الفتح وبعدها مباشرة يحتاج إلى تأمل خاصٍّ، وقراءة مدققة ومفصلة في ظل همومنا المعاصرة وقضايانا الآنية، التي تعاظمت فيها شرور التكفير وانفجرت فيها شظايا الإرهاب تصيب المجتمع، وتصيب صورة الإسلام عمومًا في أذهان الكثيرين، سواء في الداخل أو في الخارج، بين عموم المسلمين وبين غيرهم أكثر.

في فتح مكة، نحن بإزاء مواجهة بين المسلمين بقيادة النبي ومكة بأهلها من الكفار والمشركين، الذين عاندوا وحاربوا الإسلام والمسلمين طويلًا، حربًا بالمعنى الحقيقي والواسع للكلمة، ومع ذلك نجد حرصًا شديدًا من النبي على تجنب الجميع الحرب ومآسيها، يجنب الأصحاب والخصوم على السواء إراقة الدماء والقتل، وكان حريصًا كذلك على أن يجنب مكة كمدينة التدمير والخراب الذي تخلفه الغارات والحروب عادة، ولما نُقِل إليه في أثناء توجه الجيش إلى مكة رغبة أحد القادة في اجتياحها واستباحتها بادر إلى عزله فورًا.

ولما فُتحت مكة سلمًا أصدر النبي عفوًا عامًّا عن الجميع، وسوف نلاحظ أن العفو كان مطلقًا وغير مشروط: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، لم يشترط عليهم ولا طلب منهم أن يعتنقوا الإسلام، ولا أن يتركوا دينهم ومعتقدهم الذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، والذي سبق أن رفضه وحاربه. ترك لهم حرية الاختيار وحق الاعتقاد، وكان هناك بعض الأفراد من المكِّيين سبق لهم أن أوغلوا في العداء وارتكبوا جرائم كبرى ـ من قبل ـ بحق المسلمين وبحق النبي نفسه، هؤلاء كان النبي قد أصدر أمرًا بقتل كل منهم، وكان الأمر أو التوجيه مفتوحًا، أي متروك تنفيذه لكل مسلم يقابل أحدًا من هؤلاء، وقدَّر كُتاب السيرة أنهم كانوا ١٤ فردًا، وهناك من ذهب إلى أنهم كانوا ١٢ فردًا، ومع ذلك فقد أمكن استصدار عفو عن معظمهم، كان الأمر بسيطًا، تذهب الزوجة أو أي من أفراد أسرة كل منهم إلى النبي يطلب الأمن له والعفو عنه، فلا يتردد في العفو ولا يتمسك بالقتل، والنماذج على ذلك عديدة: أم هانئ، كانت أجارت أحدهم في منزلها، وكان علي بن أبي طالب يطارده ليقتله، وما إن دخل المنزل صار آمنًا، لأن وعد الرسول أن من «دخل منزله فهو آمن»، لكنَّ عليًّا أراد قتله داخل المنزل باعتبار أنه ليس منزله وليس من بين المنازل التي حددها رسول الله، لكنها منعته بقوة، استنادًا إلى أنه في منزلها وقد أمَّنته هي وأجارته، ومع احتدام الخلاف مع علي، وهو أخوها، ذهبت إلى النبي تشكو من أخيها، فانحاز النبي إلى قرارها وقال صلى الله عليه وسلم: «قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ»، وخرج الرجل بأمان الله ورسوله بعد أن ظل يومين مختبئًا في منزلها.

وهناك واقعة عبد الله بن أبي سرح، الذي يندهش كثير من المؤرخين والدارسين إلى اليوم من عفو النبي عنه، كان عبد الله اعتنق الإسلام وهاجر إلى المدينة، ولأنه كان يجيد الكتابة، فضلًا عن قربه من النبي، صار من كُتاب الوحي، كان واحدًا من الذين يملي عليهم النبي الوحي الذي تنزل

عليه لتدوينه، ثم حدث أن ترك عبد الله الإسلام، وعاد إلى ما كان عليه أهل مكة، وغادر يثرب عائدًا إلى أهله ثانية، إلى هنا لا مشكلة كبيرة، كان الأمر معتادًا في تلك الفترة من بدايات الإسلام، ولم نجد النبي اتخذ موقفًا عقابيًّا ولا عدائيًّا من أولئك الذين تركوا الدين، لكن ابن أبي سرح لم يكتفِ بمغادرة الإسلام، ولكنه راح يهاجم النبي والإسلام، حيث زعم أن النبي كان يمليه الوحي، ولم يكن يلتزم بما يسمعه من النبي، وكان يتصرف ويدوّن من عنده كما يحلو له أو يخطر بباله، كان ذلك يعني افتقاده الأمانة والثقة، وهذا بحد ذاته كان مرذولًا لدى العرب، بغض النظر عن الدين الذي يعتنقه كل منهم، لكنَّ زعْمَ ابن أبي سرح أحدث لغطًا شديدًا بين بعض المسلمين، وهلل له أهل مكة، باعتبار أن ما يقوله يمثل طعنًا في تدوين القرآن الكريم، وتمادى في ذلك إلى حد بعيد، وهكذا حين تهيأ المسلمون لدخول مكة، كان الأمر بأن يقتله أي من يراه أو يلقاه، وأن يُقتل في أي مكان يُعثر عليه فيه، حتى لو كان خلف أستار الكعبة، إلى هذا الحد كان الجرم الذي ارتكبه والعقاب الذي يستحقه أن يقتل حتى لو كان داخل الكعبة، ولها ما لها من الاحترام والتقديس. أدرك ابن أبي سرح أنه سيلقى جزاءه وأنه لا شك مقتول، ولكنَّ إنسانًا بهذه المواصفات لم يكن ليستسلم بسهولة، وهكذا سعى للحصول على مخرج من ذلك الموقف، فكان أن لجأ إلى عثمان بن عفان، كان أخًا في الرضاعة لعثمان الرقيق، فما كان من عثمان ـ وكان له تقدير خاص لدى النبي ـ أن ذهب به إلى رسول الله، وظل حتى حصل له على العفو، وعاد ثانية إلى الإسلام، وسوف يصبح له شأن زمن حكم الخليفة الثالث عثمان بن عفان. إلى هذا الحد كان رسول الله يميل إلى تجنب إراقة الدماء والقتل، وكان الأفضل أن يعرف عنه التوسع في العفو والصفح من أن يثبت عليه العكس.

بالقطع هناك من قتل يومها من بين الأسماء التي كانت محددة، ولكن قتلوا في الشارع، إذ لم يكن قد دخلوا بيتًا، فضلًا عن أن علي بن أبي طالب دخل مكة وفي نيته أن يلاحق هؤلاء ويقضي عليهم، والواضح أن الأمر لديه لم يكن متعلقًا بالالتزام بالتوجيه النبوي فقط، وهو رضي الله عنه كان الأشد التزامًا بالأوامر والتوجيهات النبوية، لكن الواضح أنه كان غاضبًا بحق من هؤلاء ومما اقترفوه بحق النبي وبحق الإسلام، وهذا الموقف منه يوم الفتح، سوف يخلق ضغائن في الصدور تجاهه، وسوف تتكشف تلك الضغائن في قادم السنوات أيام الفتنة الكبرى.

بإتمام عملية الفتح ذهبت أفواج من أهل مكة إلى النبي لإعلان الإسلام ومبايعته بالمعنى الديني، أو إعلان الولاء وانتهاء عهد العداء والقطيعة بالمعنى السياسي، ولا غرابة في ذلك، كان قطب مكة الأبرز أبو سفيان بن حرب أعلن إسلامه ونصح المكِّيين بتجنب خوض القتال ضد جيش المسلمين، لأن النتيجة معروفة سلفًا، واستمع كثيرون إليه وأخذوا بموقفه، حتى الذين صدموا من هذا الموقف في البداية، مثل هند زوجته، لم يلبثوا أن استوعبوا الأمر، لكن لم يذهب كل المكِّيين إلى النبي، ظل هناك من لم يعتنق الدين الجديد وظل متمسكًا بموقفه القديم، وهكذا بات في المجتمع فريقان، يتحدثون لغة واحدة ومن أصول واحدة، لكن منهم المسلم ومنهم الكافر أو المشرك. شواهد الأمور

تنبئ أن الأغلبية اتجهت إلى الإسلام، حتى على مستوى صفوة المجتمع نجد أن أبا سفيان بن حرب اتجه إلى الإسلام ومعه زوجته، وعكرمة بن عمرو بن هشام اعتنق الإسلام عقب الفتح بعد أن حصلت زوجته له على الأمان من النبي، ولقيه رسول الله بكل ترحاب، لكن بقي صفوان بن أمية بن خلف على كفره، وهكذا بات المجتمع منقسمًا بين أغلبية وأقلية، الأقلية لا ينطبق عليهم وصف «أهل الكتاب»، ولا هم الذين سيطلِق عليهم الفقهاء فيما بعد «أهل الذمة»، بل من الكفار، ومع ذلك لنتأمل كيف كانت العلاقة والتعامل مع تلك الأقلية في ظل وجود رسول الله وكبار الصحابة.

لم نجد تمييزًا من أي نوع بين المسلم والكافر في التعامل، بل وجدنا ما يطلق عليه الآن «المواطنة الكاملة»، لم نسمع من يصيح بأن نضيق عليهم الطريق أو نمنعهم من دخول مناطق بعينها، ولا أن يرتدوا زيًّا معينًا مغايرًا لزي الأغلبية، ولا أن يُمنعوا من استعمال أدوات بعينها في الحياة كأن لا يركبوا الخيول مثلًا وهكذا، مما وجدناه في قادم القرون على لسان بعض الفقهاء في لحظات تاريخية معينة، لم يمارس نبي الله ضغطًا من أي نوع عليهم لدفعهم نحو تغيير دينهم واعتناق الإسلام، كما لم يتم ازدراء معتقدهم الديني أو التحقير منه، ولا جرى التعريض بآبائهم وأهلهم الذين قتلوا في معارك سابقة مع المسلمين، مثل غزوتي بدر وأحد، وقد نهى رسول الله أصحابه عن أن يذكروا بسوء أمام عكرمة والده أبا جهل الذي كان من أعدى أعداء النبي. باختصار لم يكن هناك مناخ عدائي تجاههم ولا نزوع ثقافي لإدانتهم والتحقير من شأنهم. بالتأكيد كان المسلمون يؤمنون تمامًا ويقينًا أنهم على الحق وأن دينهم هو الحق، لكنهم كانوا تعلموا واستوعبوا قول القرآن الكريم في سورة «الكافرون»: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ».

سوف نجد في كتب السيَر والتراجم أنه لم يكن هناك انشغال كبير بتتبع مصائر هؤلاء ولا تحولاتهم، وهذا يعني أنها لم تكن قضية كبرى، ظل المجتمع يحترم الخصوصية ويحترم اختيار الآخرين، وإذا كان المسلمون عانوا في بداية الأمر التهميشَ والمضايقة والعنف لأنهم اعتنقوا الإسلام، فما كان يليق أخلاقيًّا وإنسانيًّا، فضلًا عن أنه غير جائز دينيًّا، كما أوضح لهم رسول الله، أن يكرروا الشيء نفسه حين صاروا أغلبية وصارت مقاليد الأمور لهم وبين أيديهم. وهكذا، فإن المجتمع المكي في ظل وجود رسول الله وكبار الصحابة حوله، أمكن له أن يتجاوز تلك الرحلة بسلاسة شديدة، ويقدم نموذجًا فريدًا في التعايش الكامل والمواطنة الكاملة، بلا تمييز ولا ازدراء لفئة بعينها، ومن ثَم عاش المجتمع بلا استقطاب وبلا إحن داخلية وطائفية، وأتصور أن هذه التجربة لو أنها دُرست بعمق واستوعبت لما وقعت أزمات وصراعات الأقليات في كثير من المجتمعات والدول، ولا كانت الحروب الطائفية والمذهبية عبر التاريخ. نحن نعرف أن أزمة الملل والطوائف كانت من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى انهيار الدولة العثمانية، حيث كانت سببًا لتفتت المجتمعات من داخلها، وتركت تلك الأزمة غضاضة في النفوس، وذاكرة سيئة في التاريخ وفي الضمير العام لكثير من المجتمعات إلى يومنا هذا.

وقد يتصور البعض أن تلك الفترة في تاريخ المجتمع المكي كانت لحظة سعادة بالانتصار، وفرحة باللقاء والاجتماع ثانية بين المهاجرين وأهلهم، ومن ثَم هي لحظة استثنائية لا تُقاس ولا يُبنى عليها.

هذا النموذج للتعايش تعرض لاختبار حقيقي، فبعد أسبوعين من إتمام الفتح وصلت المعلومات أن ثقيفًا ومن خلفها الطائف تجهز جيشًا للزحف على مكة، وفقًا لصعود قوتها وقوة النبي، لأن في ذلك الصعود تهديدًا محتمًا لهم ولمكانتهم، وهكذا كان على رسول الله أن يتجهز لمواجهة ذلك الجيش، وكان الموقف التالي أن يلقاهم خارج مكة، لا يسمح لهم بدخولها، فضلًا عن الاقتراب منها، فيكون القتال في الصحراء وبعيدًا عن المناطق السكنية، وهنا كان لا بُدَّ من تجهيز الجيش للخروج، هذه المرة نحن بإزاء معركة استباقية، وهي معركة للدفاع عن مكة وحمايتها من الغزو، في ذلك الزمان لم يكن هناك جيش نظامي بالمعنى الحديث، ولكن حين يأتي القتال ينادَى بالاستعداد، فيتقدم من يرغب في المشاركة، لكن هذه المرة كان هناك عنصر جديد، وهو أهل مكة خاصة، ومنهم من لا يزال خارج دائرة الدين الإسلامي، هؤلاء كفار، ما هو موقفهم؟ هل يُسمح لهم بالاشتراك في الجيش، أم يمنعون؟ وكانت المفاجأة أنه سُمح لهم بالمشاركة في القتال على النحو الذي أُبرز بالتفصيل، وهنا لا بُدَّ من رصد عدة أمور، نحتاج إليها حتى يومنا هذا:

أولًا: الدفاع عن الوطن واجب كل أبنائه، بغض النظر عن الموقف الديني والانتماء العقائدي لكل مواطن، هناك من يعتنقون دينًا معينًا، ومن يرفض ذلك الدين وله اعتقاد آخر، العدو الذي يستهدف الوطن لن يفرق عند الاجتياح بين مواطن وآخر، ولا دين وآخر، لأنه يستهدف الجميع.

ثانيًا: معنى هذا أن هناك اقتناعًا تامًّا بأن المجتمع يُبنى على التعدد والتنوع، من دون إقصاء من الأغلبية للأقلية أو استعلاء من أصحاب دين معين على الآخرين من الذين لم يعتنقوا هذا الدين. الوطن بوتقة للجميع، بلا تمييز وبلا إبعاد ولا ازدراء لأحد، والواقع أن هناك الكثير من الآيات القرآنية الكريمة التي تؤكد وترسخ ذلك المعنى، فلا يجب أن يكون كل أفراد المجتمع نسخة واحدة، كربونية، مكررة.

ثالثًا: في مثل هذا المجتمع يكون المعيار هو الكفاءة والأهلية في خدمة الوطن والقدرة على ذلك، لذا وجدنا نبي الله لم يتردد وهو يجهز الجيش في أن يستعين بإمكانات صفوان بن أمية وهو لا يزال على الكفر، وفي لحظة احتدام القتال، وبدا أنه هناك من يتمنى هزيمة النبي، كان موقفه واضحًا ونزيهًا، وهو انحيازه المطلق إلى قريش وأهل مكة، بغض النظر عن الموقف الديني.

رابعًا: في توزيع الغنائم أو الفيء تصور بعض المسلمين أن التوزيع سوف يتم على أساس ديني، وأن الأولوية ستكون للمسلم، ليس هذا فقط، بل لمن هم أكثر وأشد تدينًا، أي قراء القرآن الكريم، لكن رسول الله لم يعتمد هذا التصوُّر ولا أخذ به، فوجدناه يعطي غير المسلم ويعطي الأحدث في اعتناق الإسلام، وليس الأقدم أو أصحاب السابقة، كما يقال في التراث. باختصار، كان معنى

المواطنة هو الأساس في التوزيع، وكانت هناك نظرة بعيدة لدى رسول الله، وهو أنه بالعطاء للكافر وغير المسلم فإنه ضَمِن أنه لن يحمل ضغينة ولا كراهية تجاه المجتمع وتجاه المسلمين.

وهذا يقودنا إلى معنى آخر، وهو أن الأقلية تساعد أفرادها وتوجهاتها مسؤولية الأغلبية؛ على الأغلبية أن تبادر بالتسامح والقبول وإعطاء فرص المشاركة والتواجد لأفراد الأقلية. باختصار، التعامل باحترام كامل وتقدير تام، من دون التواء في التعامل.

وبالرغم من المضايقات والسخافات من جانب البعض (ذي الخويصرة)، أو العتاب من الأنصار ومن بعض المهاجرين بسبب هذا الاتجاه، فإن رسول الله لم يتراجع عن الخطة التي التزم بها منذ فتح مكة وحتى غزوة حنين وما بعدها.

ـ السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق: د. محمد فهمي السرجاني. المكتبة التوفيقية بالأزهر.
ـ السيرة الحلبية. ضبط وتصحيح: عبد الله الخليلي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠١٣.
ـ تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف، مصر، الطبعة السادسة، ١٩٩٩.
ـ سيرة ابن إسحاق المسماة «كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي»، تأليف: محمد بن إسحاق بن يسار. تحقيق: محمد حسب الله. تقويم: محمد الناسي. معهد الدراسات والأبحاث للتعريب.
ـ كتاب المغازي، محمد بن عمر الواقدي. تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤.
ـ السيرة النبوية، ابن كثير الدمشقي. تحقيق: د. أحمد عمر هاشم وآخرين، ١٩٩٨.
ـ غزوات الرسول، ابن كثير الدمشقي. تحقيق: حمزة النشرتي وآخرين، ١٩٩٩.
ـ كتاب الخراج، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري. دراسة وتحقيق: د. محمد المناصير. تقديم: د. عبد العزيز الدوري. دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩.
ـ الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني. تحقيق: محمد سيد كيلاني. مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٦.
ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الأندلسي. تحقيق: أحمد السيد سيد أحمد علي. المكتبة التوفيقية، ٢٠٠٣.
ـ تاريخ قريش، د. حسين مؤنس. دار الرشاد، ٢٠٠٧.
ـ في السيرة النبوية (٣ أجزاء)، د. هشام جعيط. دار الطليعة، بيروت، من دون تاريخ.
ـ محمد في مكة، مونتجمري وات. ترجمة: د. عبد الرحمن الشيخ، حسين عيسى. مراجعة: د. أحمد شلبي. الهيئة المصرية العامة للكتاب، الألف كتاب الثاني سنة ٢٠٠٢.
ـ محمد «النبي ورجل الدولة»، مونتجمري وات. ترجمة: حمود حمود. دار التكوين، دمشق، ٢٠١٤.
ـ نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، رفاعة الطهطاوي. تحقيق: محمد عمارة. دار الشروق، طبعة خاصة لمكتبة الأسرة ٢٠١٠.
ـ حياة محمد، د. محمد حسين هيكل. دار المعارف، ٢٠١٤.
ـ حياة محمد، واشنطن إيرفينج. ترجمة وتعليق: د. علي حسن الخربوطلي. دار المعارف، مصر، ١٩٦٠.

- تجارة مكة وظهور الإسلام، تأليف: باتريشيا كرون. ترجمة: آمال الروبي. مراجعة: محمد إبراهيم بكر. المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٥.
- عبقرية محمد، عباس العقاد. دار الهلال، ١٩٥٨.
- مطلع النور (طوالع البعثة المحمدية)، عباس العقاد. كتاب الهلال، ٢٠١٩.
- نساء النبي، د. عائشة عبد الرحمن. دار الهلال.